@ketab_n

19.12.2014

حمّور زيادة

رواية

شوق الدرويش

دار العين للنشر

شوق الدرويش

روايـة

حمّور زيادة

دار العين للنشر

شوق الدرويش

شوق الدرويش

(رواية)

حمّور زيادة

الطبعة الأولى / ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م



دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الغلاف: صابرين مهران

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٩٠٦ /٢٠١٤

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 284 - 0



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشيءون الفنية

زيادة، حمور

شوق الدرويش: رواية/ حمور زيادة.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٤

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٢٨٤

١- القصص العربية.

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع/ ٩٩٠٦/ ٠١٤

إلى التي..

" كُلّ شوقٍ يسكن باللقاء، لا يُعَوَّل عليه "

ابن عربي



الأول

1

"لست خائفاً من الموت. أنا خائف ألا أراكِ مرة أخرى"

2

النار والدخان في كل مكان.

النار والدخان في قلبه.

سقطت مدينة مهدي الله.

بقعة الإيمان دكتها قنابل الكفار.

إنها الساعة.

ما ينتظره من سنوات سبع.

يخرج الآن.

أيها الجلادون أنا آتٍ.

3

ما أن تم فكّ قيد المكية عن ساقيه حتى قفز **بخيت منديل** واقفاً.

السجناء الباقون من حوله يهنئون بعضهم بعضاً. أحدهم يضرب على كتفه ويصرخ "أخيراً.. الحرية يا **بخيت**"

أتتهم الحرية على بوارج الغزاة وخيولهم في سبتمبر 1898 مع دخول الجيش المصري للبلاد. انكسرت دولة مهدي الله.

لم يشعر أنه حر. بينه وبين حريته دماء. بينه وبين حريته ثأر.

دفع نفسه وسط الزحام خارجاً من السجن. يشعر بالضعف.

ما أكل منذ ثمانية أيام. وما شرب منذ ثلاثة. لكنه لا يقدر أن يبقى هنا لحظة أخرى.

من يومين سقطت المدينة. بلغهم، في سجنهم، إن خليفة مهدي الله وقادته فروا. دخل المصريون أم درمان. وجاء إلى السجن جماعة من النصارى والمصريين، أطلقوا سراح بعض من يعرفون من أكابر الناس، وتركوهم.

يومان بلا حارس، دون أن يسأل عنهم أحد. بدا كما لو أن الذين في الخارج نسوهم تماماً. يسمعون دوي قنابل متفرقة. هم في قيودهم على الأرض حيث تركهم الحراس قبل الهرب. بعضهم في الغرف الضيقة. وبعضهم في فناء السجن تحت الشمس. **بخيت** داخل إحدى الغرف. كانوا حوالى سبعين شخصاً في غرفة لا تسع خمسة. الهواء ثقيل كثيف. يتنفسون ما يخرج من صدور بعضهم. بعضٌ يبكي فرحاً، بعضٌ يبكي خوفاً من الموت هنا في النسيان إذ فر حرسهم، وتجاهلهم القادمون. لكن **بخيت** كان يعرف أنه لن يموت الآن. تحمل السجن سبع سنوات في انتظار هذه اللحظة. لن يموت قبل أن يسوق أمامه خصومه قرباناً. سيقدم على **حواء** وهم بين يديه.

خرج إلى الشارع متعثراً.

النار والدخان في كل مكان.

المدينة مستباحة. العساكر السودانية تنهب البيوت.

يسمع صراخ النسوة. وبعض الشاويشية يمشي منادياً أن وقت استباحة المدينة قد انتهى.

تسلل بعناء وسط العنف والجنون يطلب بيت **مريسيلة**. استوقفه أكثر من عسكري. فتشوه عدة مرات. اعتدى عليه بعض عساكر لينهبوه، ثم أدركوا أنه أفقر من كلب أجرب.ضربوه وتركوه يذهب. يمشي في شوارع مدينة لا يعرفها يسأل المارة. أم درمان تغيرت جداً. كان رآها قبل أسبوعين حين آخر خروج له للخدمة. اليوم كأنما مرت أعوام بين تلك اللحظة وهذا المشهد الجنوني الذي يتعثر في جوفه. الجثث في الشوارع. منتفخة يحيط بها الذباب الأسود. رائحتها عفنة تدوّخ المدينة الذاهلة. البيوت محطمة الأبواب. الطرقات قذرة مليئة بالحفر. رائحة البارود في كل مكان. وقبة المهدي مهشمة كأنما انكسر كبرياؤها.

يتسول عابراً يعرف البيت الذي يقصد. يتلقى نظرات دَهِشة، وتوصيفاً أبتر.

مر جوار بيت الأمانة، سار محاذياً السوق، عبر تحت المشنقة الخالية، ثم اتجه غرباً. يمشي طفلاً جاوز الحبو لتوه. رجلاه تستشعران قيود المكيّة. يترنح، لكن بجوفه جَلد يقيمه. لو ركن لضعفه لمات قبل سنوات. لكن مَدين الهوى لا يموت.

يتبع وصف المارة وإرشادهم.

إذ وقف بباب **مريسيلة** لم يكن واثقاً أنه سيجدها. لكنه كان موقناً إن ظل سقفها هو آمن ما يأوي إليه الآن. دفع جسده داخلاً. وعيناه تختلجان لمح أجساداً مكومة ما ميزها. سمع اسمه. وهو يسقط رأى **مريسيلة** تهرع نحوه. انكفأ على الأرض يلهث. يسيل عرقه ودمه، ويقطر عزماً.

احتضنت **مريسيلة** رأسه وصرخت. ظنته جاء ليموت على بابها.

لكنه رفع عينيه إليها. قال موجوعاً:

إنها ساعة الثأر يا مريسيلة. الموت لمن قتلوها. الموت يا مريسيلة. أنا الموت.

صكّت **مريسيلة** وجهها. ناحت وهي تضرب براحتيها صدره كام غضبى.

يلعن دين بنت النصارى!! يلعن دين بنت النصارى!! واحزني عليك يا بخيت.

"إن دخلت دينك وتركت دين المهدية يرضيك هذا؟ "

تضحك. " أنت هازل!!"

"كنت أريد أن أرى ضحكتك. سأبدل ديني لأجل رضاك في غضبة قادمة"

مريسيلة ما أحبتها قط. تتخيلها شراً كاملاً. شيطاناً أبيض اللون تلبّسه ساعة مغرب.

جرّته بمعونة نسوة أخريات إلى عريش من القش. أرقدته على الأرض وفحصت ساقيه. قيود المكيّة نخرتهما حتى بان العظم. لحمه متعفن يسيل صديداً. جسده يلتهب بالحمى.

كان ميِّتا لولا العهد.

المكيّة بحلقتيها الحديديتين موسومة في لحمه. كان يخرج للخدمة التي يكلف بها في شوارع أم درمان والقيود في قدميه. كلما مشى خطوة غاصت المكيّة في لحمه. مشى **بخيت** شهوراً، وغاصت فيه القيود سنيناً.

على مدى أيام صبّت **مريسيلة** السمن في جروحه. عرّته كل صباح ومسحت جسده بالزيت. سقته مزيجاً معالجاً من السمن والثوم والعسل والبلح.

ما كان يئن. ولا هرب من أوجاعه بالغيبوبة. ما كان داخله من وجع حماه من كل وجع آخر.

يستلقي على ظهره يرمق سقف القش الذي يأوى تحته. جسده عارٍ تحت أنظار النسوة اللائي خبأتهن **مريسيلة** عندها. يسمع تهامسهن وضحكات تنفلت فجأة. يلمع جسمه كزيتونة حين تغسله **مريسيلة** بالزيت. تقلّبه فيتقلّب. ظهراً لبطن تمشي يدها بالزيت على جسده العاري. تلف جروح ساقيه بالقماش بعد أن تزيل صديدها وتحشوها سمناً وملحاً.

بيت **مريسيلة** كان مجرد سور من الطين لا يضم إلا غرفة واحدة وعريشين.

حين علم النساء أن رجالهن الذين خرجوا حاملين رماحهم لملاقاة العدو لن يعودوا فزعوا إلى **مريسيلة** يختبئن عندها. هن يعلمن ما يفعل العسكر إن غلبوا. أم درمان رأت كثيرات من نسوة مدائن مهزومة. تسولن في الطرقات أو دُفعن إلى بيت المال. وكلهن عبر المنتصرون على أجسادهن.

حتى من كرهن **مريسيلة** عرفن أن النجاة عندها.

إن كان مَن ينشغل عن نجاته بنجدة غيره الأن فهي تلك الأمة السوداء ذات العشرين عاماً. بائعة خمر المريسة السرية، قارئة الودع، مدبرة صفقات الهوى، خاطبة الحلال والحرام، معينة الهاربين، تاجرة العقود والسلاسل والوصفات السحرية للحب والوصل والفراق وانتصاب الذكر وضيق الأعضاء الأنثوية. المرأة

التي تعلم المدينة أنها أنقذت سبعة نساء من مشنقة السوق، وأذلت حامل راية أحد الأمراء أمام المسجد على مرأى من خليفة المهدي. الحب صناعتها، بالسحر لها نسب، ولها مروءة فارس قبيلة.

مريسيلة آوت طالبات النجاة. هرّبت من أرادت الهرب. عالجت من هاج بها الحزن. ووفرت بشكل غامض الطعام لعشرات النساء اللائي تعرف بعضهن وترى بعضهن للمرة الأولى.

وحين أتاها **بخيت منديل** أخلت له فوراً عريشاً وضعته فيه وحده وعكفت على علاجه بتصميم، منازعة الموت فيه والضعف.

يسمعها النسوة تسحن الثوم للمزيج العلاجي وهي تتمتم وجلة:

لن تموت مني أيها العبد النجس. ابن كلب لا عقل لك. لن أسمح لك بالموت.

تنشق بقوة، فيتساءل النسوة هل أوشكت أن تبكي حقاً؟

ضعيف متماوت على الأرض. لا تقدر أن تقف. جراحك ينهشها الدود. من أجل ماذا؟ يالك من عبد حقير. سأعالجك لأقتلك بعدها. أنت بغل.

تهرع بالمزيج إلى **بخيت منديل**. ترفع رأسه لتسقيه وهي تسبه:

اشرب أيها الغبي. اشرب. مريسيلة لن تتركك تموت.

تلمع عينا **بخيت** لكن فمه ملئ بالسائل اللزج فلا يقدر أن يرد.

ليس غاضباً ولا خائفاً. هو في المكان الصحيح. عليه أن يترك نفسه **لمريسيلة** وهي ستعتني به.

بعدها يبدأ السعي إلى الهدف الذي عاش له طوال سنوات مرّت.

حين يحس دموع **مريسيلة** تسيل بعيداً عن مراقبة النسوة لتصب على وجهه، تجري على خده الأمرد لتدخل فمه مخالطة المزيج الذي يشرب، يحس أنه نجا من كل الصعاب القديمة.

لما تذوق دموعها المرة كمطر الصحراء مسته السكينة.

اترك نفسك **لمريسيلة**. *أنت الآن آمنٌ.*

4

لا يعرف كم مر من الأيام ولا يهمه.

ماذا يعني حساب الزمن وقد أعلن لنفسه نهاية الأزمان وانقضاء الوقت حين ذهبت؟

بقي بين يدي **مريسيلة** حتى أحس جسده مرة أخرى. معافىً

كأنما خُلِقَ من بدء. علامات المكية لم تزل عن ساقيه لكن الجروح برأت بسحر الزنجية.

تحمّل راضياً شتائمها وسبابها. لم يخجل من نظرات النساء لعريه. لم تثر فضوله صرخات المدينة وأصوات الرصاص البعيدة والقريبة.

كان يحلم. حلمه ممتد لا ينقضي. يكرر نفسه بإلحاح صحواً ومناماً. ستة يعرفهم بالإسم. بينه وبينهم قصاص.

وفي يومه الذي تعافى فيه ونهض بعريه قائماً تحت العريش اقتحم العساكر السودانية البيت.

ارتدى جلباباً جلبته له **مريسيلة**. جلس على الفراش لأول مرة وتناول طعامه. همس **لمريسيلة** بما يريده منها. هي وحدها من يقدر على انجاز ما يريد في مدينة مرتعشة ككف عجوز. كلفها بمهمتين كل واحدة أقسى من الثانية. لكن **مريسيلة** لم تشك عبء المهام. شكت جنونه وتعلقه بالوهم. من يوم عرف **مريسيلة** وعرفت حكايته لم يهتم برأيها. لكنه قدّر كفاءتها.

كان يأكل العصيدة، التي صنعتها له خصيصاً وزجرت النسوة عن النظر إليها، حين دخل العساكر البيت. سود مثله، يرتدون الملابس العسكرية والطرابيش، تتحزم صدورهم بالبنادق وأحزمة

البارود. صرخت النسوة وعمّت الرجة البيت، لكن قائد العساكر بادر بإعلان مقصدهم.

نبحث عن الرجال. الحكومة فرضت السخرة على كل رجل قادر.

مريسيلة لم تقتنع بما قال فتصددت له. وقفت أمامه، رأسها لا يبلغ صدره، لكنه بدا ضئيلاً أمامها.

صرخت:

لو كنت أنت رجلاً فتجاوزني لتفتش البيت.

ارتبك الشاويش. نظر إلى عساكره في توتر ثم أعاد النظر إلى **مريسيلة** الثائرة كجمرة. عاجلته قبل أن يتكلم:

أنا أعرفك. أنت فرج الله عبد شيخ الجزارين الهارب. أنت هو يا منحوس. جئت اليوم مزهواً بشرائط النصارى الحمراء تقتحم البيوت؟

الشاويش كان في أسوأ حال وهو يرد عليها:

نحن لا نريد سوى إخراج الرجال. لو قلتِ أنه لا يوجد سوى هذا الرجل (أشار إلى بخيت منديل) فلن نحتاج لتفتيش البيت. سنأخذه للعمل. نحن نأخذ الجميع.

تقدم **بخيت** نحوه وقد أزعجه أن تحميه **مريسيلة** كدجاجة تحضن فرخها.

ليس في البيت رجل غيري. سآتي معك.

بصقت **مريسيلة** على الأرض فأخطأت حذاء الشاويش بقليل. هرولت داخل حجرتها اليتيمة ثم عادت بتسع تمائم أحاطت بها ساعد **بخيت**. تسع تمائم ضخمة تقيه غوائل الجان والعين والسحر والحسد وعيون الرصد. همست له بصوت حرصت أن يسمعه الشاويش:

لا يرهبنك بهرج ما يرتدي. انه فقط فرج الله عبد شيخ الجزارين في السوق. كان عبد سوء ما عاش هنا. ثم هرب قبل عام. ظنوه غرق في النيل. ليته كان. إن دعته نفسه لإظهار سيادة عليك فذكره من هو. إن ظهره ملئ بآثار سياط أسياده.

لما خرج مع العساكر إلى الطريق وجدهم يسوقون عشرات غيره. عرب، زنج، مواليد، عبيد، وأحرار. دفعه **فرج الله** الشاويش برفق إلى الصف. قبل أن يبتعد عنه قال له محاولاً استعادة مهابته:

يالها من امرأة. لولا الأوامر لعرفت كيف أربيها.

ابتسم **بخيت** ابتسامة شفافة.

لولا الأوامر لأكلتك في مكانك يا فرج الله.

5

سنوات الكفّارة ما كان أشدّهن عليه.

المناحيس الذين قادتهم أقدار السوء ليضمهم سجن **الساير** في أم درمان كان عليهم أن يشتروا طعامهم وشرابهم. السجن ما كان يوفر لمحابيسه طعاماً. ما كان السجن يوفر لهم سوى العذاب. ينتقي الحراس، لأسباب لا يعرفها غيرهم، بضعة مساجين ليجلدوهم، يكلفونهم أعمالاً عبثية، يضعونهم في جوالات مع العقارب ويجرون المراهنات عمن يموت ومن ينجو. حين يدخل الحراس يفتشون بين المساجين يشعر كل واحد منهم أن القدر يمشي بينهم يبحث عن فريسة. بعض لم يكن يتحمل العذاب فيقضي بين أيدي الحراس. ربما دفعوا جثته إلى أهله أو ألقوها وراء السجن لتنتفخ وتتعفن هناك. لا شيء مؤكد. الحقيقة الوحيدة أن العذاب واقع في أي لحظة.

كان بالسجن أوروبيون، مصريون، قادة وأمراء تغير عليهم قلب خليفة المهدي، مجرمون، خصوم سياسيون، وتعساء لا يكفون عن البكاء لا يعرف أحد لماذا أتوا.

السجن حوش كبير قريب من النهر. سور من اللبن الأخضر. داخله حجرات صغيرة أغلبها بلا نوافذ. يُسمح للسجناء بالجلوس نهاراً في الفناء. لكن ليلهم يقضوه متكدسين داخل الحجرات الضيقة، بعضهم فوق بعض.

السجناء ميسورو الحال، وهم كثر، كان لهم من يوفر الطعام والشراب عبر سلسلة طويلة من الرشاوي. أما دواب الأرض مثل **بخيت منديل** فكان عليهم أن يعولوا أنفسهم داخل السجن. يُخرجون إلى المدينة بحثاً عن عمل يدر عليهم دخلاً. يخرجون، مقيدون في حراسة بعض حراس يقاسمونهم ما يتقاضونه مقابل خدماتهم. يحرص الحراس على حضور اتفاق العمل ليعرفوا المبلغ الذي سيُدفع للسجين. يحسبون حصتهم.

في هذه الشوارع خدم **بخيت منديل** كثيراً في السنوات السبعة الماضية.

كان يخرج في صف المساجين يمشي متمهلاً بمقدار ما يسمح قيد المكّية في ساقيه. يحاذر أن ينكفئ. يمر بهم حراسهم على شوارع المدينة. يقبع السجن ومعه عدد من مباني ادارة الدولة المهمة خلف سور عظيم من الحجر. شارك **بخيت** قبل سنوات في بناء هذ السور المحيط بحي القبة في وسط المدينة. يخرج بهم الحراس من بوابة السور الشمالية. يمرون على بيت المال ومنازل

الكتبة ومساكن المصريين وأهل مدينة الخرطوم القديمة. تنحرف المسيرة شرقاً فيحاذون النهر. ربما مالوا جنوباً ليدخلوا حي القبة مرة أخرى، وربما نكصوا غرباً ليدخلوا السوق. ليس للمسيرة خط سير ثابت دوماً. فالمهم أن يتعرّض لها بعضُ باحثين عن عمّال يكرونهم.

فرقٌ بين أيام الخدمة تلك وأيام السُخرة هذه.

الشوارع فقدت لونها وخبا فيها البريق. ظلم بظلم. لكن روحاً كئيبة كانت تحلق فوق العاملين الآن. لعلهم ألفوا الظلم القديم. لكنهم اليوم على بوابة ظلم جديد لا يدرون ما يكون أمرهم فيه.

أمرهم العسكر أن يردموا حفر الشوارع، وينظفوها من القذارات.

يحملون الجثث فتندلق منها الأحشاء. رفع بخيت مع بعضهم جثة فخرجت ساقها في يده.

وقع حظه على شوارع قريبة من ترسانة السلاح في رفقة خمسة آخرين. يعملون والعساكر السودانية تمر بهم جيئة وذهاباً. رأوا مرة أو مرتين ضابطاً أوروبياً يمتطي حصاناً. أحد العاملين سأل متعجباً:

- هذا الأحمر مصري؟

بخيت نظر إلى الضابط، أصاغ السمع، وأجاب:

إنه انجليزي. إنهم في كل مكان اليوم.

نظر إليه رفاقه في حيرة. فأوضح:

مثل غردون!!

فهموا قصده. الجميع يذكر الباشا الانجليزي الذي بعثته القاهرة قبل سنوات لمحاربة مهدي الله. ثم ذبحه جند المهدي على سلالم السرايا في الخرطوم وهو يلبس بدلة التشريفة.

باشا أحمر اللون. مليئ بالأوهام. جاء المدينة في أحلك الأوقات. أباح تجارة الرقيق بعد منعها. تودد لمهدي الله وتوعده. أغراه بولاية. راسله محاوراً. حاول نشر الأمل في مدينة يخنقها اليأس، ووقف في شرفة السرايا يرمق الأفق بمنظار يرتقب النجدة. جاءت النجدة باخرتان بعد موته فصدتها المدافع.

هل تشاركني مخاطرة مربحة؟

سأل أحد العمال **بخيت منديل** همساً.

نظر إليه مليًّا. كان متوسط الطول، يقاربه في العمر، ضخم الرأس بشكل ملفت، عيناه عكرتان.

أفصح أكثر.

آخر هذا الشارع الترسانة. لابد أن بها سلاحاً وباروداً يستحق السرقة.

مد بخيت نظره إلى آخر الشارع. رأى العساكر يحيطون بالترسانة مشرعين أسلحتهم وترقبهم.

ألم تر كل هؤلاء الحراس؟

تلفّت العامل حوله ليطمئن أن رفاقهم لا يسمعون.

أعرف أحد الكتبة الذين يعملون في الداخل. سيساعدنا أن نمر عبرهم. وبمعونته سنأخذ بعض البارود والسلاح ونهرّبه عبر السور إلى النهر.

تواثبت روحٌ مغامرةٌ داخل بخيت. لكنه كبح تحفزه بقوة. قال:

هذه مغامرة خطرة عليّ. قد خرجت من السجن تواً. لا أريد أن أرجع إليه تحت حراسة المصريين.

هز العامل رأسه متعجباً، انفلت من جواره يبحث عن شريك آخر. يعرف بخيت هذا الحماس لاغتنام الفرص الذي لا يهدأ. لكنه مشغول عن كل هذا. كان ينوي أن يكتفي بما سيدفعون له آخر اليوم نظير عمله. هو يقيم عند مريسيلة فلا يحتاج لكثير مال. وأي خطوة غير محسوبة، وغير ضرورية، ستبعده عن هدفه كثيراً.

يعمل وهو يفكر في خطوته القادمة. طلب من **مريسيلة** ما يريد من معلومات. لكنه يحتاج إلى سلاح ونقود. لن يحصل عليهما سرقةً ذلك يعرض كل مهمته للخطر. عليه أن يجمع أجرته ويدخرها رويداً رويداً كنملة نشطة.

ليس متعجلاً، فقد حدد لمهمته وقتاً مدته الأبد.

6

كان أصل مدينة أم درمان قرية صغيرة للصيادين على ضفة النيل الغربية، تواجه عاصمة البلاد، خرطوم الترك. ولما نزل بها، عام 1885، سيدي مهدي الله عليه السلام، بعد أن فتح الله له الخرطوم، جعلها دار مستقره إلى حين.

خرج المهدي عليه السلام راكباً جمله حتى إذا برك بموضعه الذي أمره الله بنى فيه بيته. ذلك الذي دفن فيه لما مات، وقامت هناك قبته المباركة تضم جثمانه الطاهر.

نبتت البويتات من الأرض. من طين وقش وجلد، ثم كساها الزمان طوباً أحمر وحجراً.

امتدت المدينة بمحاذاة بحر النيل، في قلبها قبة سيدي المهدي،

وغرب القبة المسجد الكبير. وجنوبهما منازل خليفة مهدي الله واقربائه وحرسه وأهله من غرب البلاد. وشمالهما منازل أهل شمال البلاد ابناء النيل.

وفي المنتصف بيت المال، وبيت الأمانة حيث مخزن الذخيرة، وسجن **الساير** الذي خرج من جوفه **بخيت**.

ليلة أُلقي **بخيت منديل** في سجن **الساير** قبل أعوام كان الوقت صيفاً.

قذفوا به بين أيدي الحراس وهو ينزف غزيراً. كان يرجف هلعاً. بين مصدق ومكذب. في جوفه بقايا خمرٍ مازال يجد مذاقها اليوم.

تلقاه الحراس راغبين في ضربه. لكن ما كان على جسده موضع يقع عليه سوط. جسمه متورم ينزف. ملامحه ما كانت بادية. أدخلوه إلى غرفة حجرية صغيرة لا منفذ لها إلا الباب الذي أوصدوه خلفه. رائحة عطنة، وعفن الجروح المتقيحة يعبق بالحجرة. حارة كقدر يغلي.

رموه على أجساد الراقدين ففزعوا وصرخوا. شتموا **بخيت** والحراس. الحجرة مظلمة كدنيا كفيف. لم يكن عليه سوى سروال ممزق لا يستر. أحس الأجساد حوله تزحف لتفسح له مكاناً على

الأرض. كان سكراناً بالفزع وبقايا المريسة. سال بوله حاراً أسفله. سمع من بعيد أحدهم يسب الدين. لكنه لم يهتم. واصل دفع بوله دفقاً ليختلط بدمه. ركله أحدهم على جنبه. ثم سبّه حين تلطخت قدمه بالدماء.

قُرب الفجر أخذ يبكي.

ناح بصوت عال. لم يبك بعدها طوال مدة سجنه. كأنما أفرغ كل حزنه في ذاك النواح. زحف إلى ما ظنه اتجاه الحائط وحاول أن يقئ المريسة التي داخله. تباعد عنه رفاق الزنزانة. لكنهم قاربوه مرة أخرى لما رأوه عاجزاً عن إخراج شيء. ما كان بجوفه سوى الخمر التي تسللت إلى عروقه لتلهبه ما بقى من عمره. بصق ثم استكان بظهره إلى الحائط. الغرفة حارة كجهنم. سمع آذان الفجر يرتفع من المسجد القريب، وأصوات بيبان الصفيح تتنحى لتفسح للمصلين الطريق.

بقي دون حراك. سأله رفاق الزنزانة عن جريمته. لم يجب. تطوع كل واحد منهم بذكر تهمته.

أنا قتلت ثلاثة.

جلبوني لتأخر سداد دين.

محكوميتي خمس سنوات لتهريب الذرة من الشرق.

أنا مظلوم.

هربت من سيدي فأمسكني الجهادية وحبسوني هنا. لا أعرف حتى متى.

أقضي حكم ثلاثة أشهر لأني دخّنت التنباك.

سرقت حماراً من سوق الجزارين.

أصوات كثيرة تبارت في ذكر جرائمها حتى اكتظ رأسه بالضجيج. العالم كله في هذه الحُجيرة.

قطع سيل الأصوات دخول النهار الغرفة في معية الحراس. امسكوه ووضعوا في قدميه ستة قيود ثقيلة. قيدوا يديه بجنزير ضخم شدوه إلى عنقه. قاومهم فجلدوه. وقع الضرب على بعض مجاوريه فصرخوا وتباعدوا. حين فرغوا منه تفقدوا بقية المساجين. وجدوا أحدهم ميتاً. سحبوه خارجاً وأغلقوا الباب. تقارب المساجين مرة أخرى ليمتزج عرقهم وخوفهم. سألوه مرة أخرى عن جريمته.

صوته خرج مفعماً بالوحدة التي يحسها.

جريمتي المحبة.

تعجبوا صمتاً لبرهة قبل أن ينفجروا ضحكاً حذراً.

هل هذه تهمة رجل؟ يالخيبتك.

لم يهتم **بخيت منديل** بالشرح.

انزوى بحزنه عن المساجين الذين أُخرجوا إلى الفناء. لاذ بقعر الحائط مستكيناً.

دلف إلى أحزانه لتحتويه.

ما كان به طاقة للحكي. كان يريد أن يجتر كل لحظة في اليوم السابق كي لا ينساها. يريد أن يحفرها على جسده أوشاماً

صامتاً شرع يكوي جلده بالذكريات. انغرست فيه الأوهام. تلك التي رافقته ما عاش بعد ذلك.

7

يوم بألف عام.

فيه أعاد حساب ما مر من دهره.

تذوق سعادته الماضية. توجع مع أحزان ما ظنها موجودة.

ثم خلص إلى حقيقة عاش بها ولها.

سينتقم.

سينتقم ويموت لأجلها.

سيهديها عصفور دوري مرة أخرى.

لن يمنعه شيء عن طلب ثأره. لن يُسلم للحزن قيده. لن يقتل بالذنب روحه. بل سيغذي بالغضب قلبه. لا يعلم كم سيبقى هنا. لكنه يوم يخرج سيكون ممتلئاً غضباً كافياً ليحصّل ديون ثأره باحتراف.

حدد هوسه.

قرر أن يطُعم نفسه المقت ويرويها الكراهية. حتى يوم خروجه.

اليوم الذي لم يعلم، حينها، أن عليه انتظاره سبعة أعوام.

8

في يومه الثاني عرف أن عليه أن يعمل ليأكل. لكنه كان زاهداً فلم يهتم للخروج. بقي متسكعاً في الفناء بقيده.

كلما مشى أصدر صوتاً معدنياً منفِّرا. يحصي بقرع السلاسل خطواته واتساقها.

أحسن إليه بعض السجناء فدفعوا إليه شيئاً من قليل زادهم.

أحدهم وهبه خرقة كان يستعملها ليروح بها على نفسه في ليالي الحر.

أنت أولى بها مني فأنت جديد. أما أنا فقد اعتاد جسدي هذا السعير.

شرح له:

ستحتاجها لتروّح على نفسك. فالهواء هنا مقيّد مثلنا بقيود المكية. يجثم ولا يقدر أن يهب. عليك أن تحركه بهذه الخرقة لتحصل عليه.

يمشي في فناء السجن ينظر إلى المساجين مع محسنه الكريم. اسمه **جوهر**. هو مثله عبد ما عاد له سيد.

أنحف منه، لكنه أطول قامة. أطول من أي أحد عرفه **بخيت** من قبل. على خديه آثار فصد رفيعة. له شعيرات قليلة أسفل ذقنه فشلت أن تصبح لحية. كان ثرثاراً لطيفاً. أوى معه إلى ظل قصير. أشار له إلى حجرة نائية وقال:

تلك غرفة العجائب. بها ثلاثة مصريين. اثنان من موظفي الحكومة، وثالث جندي أمسكوه يتجسس في بربر. ومعهم رجل يزعم أنه عيسى بن مريم، وخامسهم شيخ من شيوخ النصارى. يأخذ الحراس من كل واحد منهم، عدا نبي الله

عيسى، ريالاً في اليوم ليتركوا الغرفة لهم وحدهم دون مساجين آخرين.

عرّفه إلى حجرات الحراس. وحكى له عن **التومة** زوج أحد الحراس التي تؤدي بعض خدمات للمساجين مقابل هبات قليلة.

خدمات؟

تهرّب إليك رسالة من امرأة. أو توصلها عنك. تحضر قدحاً من المريسة. ربما مقابل ريال تسمح لك بلمس مؤخرتها.

ثم أردف مؤكداً:

مؤخرتها تستحق الريال وأكثر. عظيمة كأنها القبة.

ليس لبخيت أي ميل لامرأة الآن. فالتي استرقته ليست هنا. ذهبت ومعها كل ما يشتهي في النساء.

جوهر سأله في شغف:

سمعت أن جريمتك المحبة. كيف هذا؟

لم يجب.

هل قتلت زوج عشيقتك؟

لم يجب.

أمسكوا بك في بيت امرأة متزوجة؟

لم يجب.

جوهر لم يلح. دلف به إلى أحاديث أخرى وحكايات عديدة.

في غضون أيام قلائل صار **بخيت منديل** ملماً بكل تفاصيل السجن. تاريخه، حكاياته، توزيع القوى بين أمير السجن وحراسه، عادات المساجين وأحزانهم. ما ترك **جوهر** صغيرة ولا كبيرة إلا حكاها. صار رفيقه وملازمه. ربما دللهما القدر فأدخلهما الحراس غرفة واحدة ليلاً. وربما، غالباً، ما فرقوا بينهما. كان حشر المساجين في الغرف يتم كيفما اتفق. يساقون سوق الأغنام جلداً ويحبسون حتى الصباح. يعيدون وضع أغلال الأيدي لبعض، يحصون الأحياء، يسحبون الأموات، يحصِّلون رشاهم، ثم يغلقون الأبواب.

بخيت كان يبيت في أغلال الأيدي ثم يطلق صباحاً ليتخبط في قيود رجليه.

يوم أكمل شهره الأول خرج إلى الخدمة لأول مرة.

جره حارس من عنقه ودفعه إلى صف طويل من المساجين يتعثر خارجاً. هالته شوارع المدينة في هدوئها. رغم تجلده كان

يظن المدينة نائحة والشوارع ترتدي الحداد. كيف مازال النيل في مكانه؟ لم تهو القبة ولا طار مسجد الصفيح في الهواء. ما تخيل أم درمان بدونها. ما عرف أم درمان بدونها. لكنه عرف أن الحزن حزنه. أدرك كم هو وحيد في هذا العالم. ربما هناك باكون. لكنه الحزين. ربما هناك آخرون. لكنه وحيد.

اختاره، و**جوهر** ومعهما آخر، شخص قرب حي قبيلة كنانة. أخذهم إلى منزله لاستكمال حفر بئر. كان **بخيت** راغباً في الثرثرة فروحه مثقلة بالقروح. أصر أن ينزل هو و**جوهر** إلى البئر ويبقى رفيقهما بالأعلى ينقل التراب. وهو يملأ الدلو مرات ومرات حكى لصديقه حكايته. حكى ودمعات تفر من عيني **جوهر** الذي يتشاغل بالحفر. لكن مجرى الدمع كان ظاهراً على خديه المكسيين تراباً ناعماً. حدثه عن **حواء**. حبه. نفورها وميلها. العصافير التي أهداها إليها. العشق الذي أثقله. دفترها وروحها المسكوبة فيه حبراً. حكى له حكايات مختلطة مفككة لا رابط بينها سوى هواه. لكنها مست **جوهر** فأبكته. أشركه في وجعه، نزهها عن أي خطأ وحمّل نفسه كل لوم. أشركه في أوهامه حقائق. ما الحقيقة إلا ما نتذكره. ذكرياتنا هي الواقع. والوهم، حقاً، هو ما حدث. انتهى اليوم وما انتهت الحكايات. جهد **جوهر** أن يُحبس معه في غرفته لكن الحارس شاء غير ذلك. ومشيئة الحراس نافذة. حتى الرشوة لم تفلح. فمضى **جوهر** بحزنه وفضوله إلى غرفة اخرى وترك **بخيت** **منديل** ببقايا

حكاياته يندس في غرفة مع جماعات من السجناء.

لم يقيدوا يديه الليلة بعد أن دفع شطراً من أجرته للحراس. حشر نفسه وسط المساجين. سمع من يشكو مكانه جوار حفرة الغائط. تحرك بعضهم في الظلام. صاح أحدهم يطلب من الذين قرب الباب أن ينتحوا جانباً ليمر نور القمر عبر شق عريض بخشب الباب. برهة ثم دخل النور دائخاً شاحباً. ارتمى بعضه على وجه بخيت، وبعضه أنار السبيل للشاكين كي يغيروا أماكنهم. قبل أن يُحجب النور مرة أخرى سمع بخيت منديل من يقول:

أهو أنت؟ يا للصدف.

لم يدرك من يقصد صاحب الصوت. لكنه أحسه يزحف مقترباً.

أنت بخيت عامل مصنع الصابون. هل نسيتني في بضع أيام؟

تململ بخيت مكانه. هذا الصوت المتسخ.

لم أنسك. أنا لا أراك.

ضحك الصوت. في رأسه يحسه قذراً يقطر بالدنس.

في هذا القبر لم أكن أنا أيضاً لأراك لولا النور الذي دخل قبل قليل.

وصل المتحدث إلى جواره. التصق به.

من أنت؟

أنا يونس ود جابر.

يونس!!

نعم يونس.

يونس عسكري الجهادية؟

ها أنت تذكر.

ياللنور الذي يغشاه.

السجناء هاجوا وصاحوا. حاول بعضهم دفعه. بعضهم كان يضربه بقوة. لكنه لم يتزحزح.

لا حول الله!! ستقتله.

نعم هو يريد أن يقتله.

بلغ الصياح مبلغاً حتى فُتح الباب وهجم الحراس. ضربوه بعنف لكنه لم يطلق عنق **يونس**. حين قفز الضوء داخلاً من الباب المفتوح ليحتل الغرفة رأى الوجه المحتقن بين يديه. محجراه محتقنان، ولسانه يندلق من فمه. كان يشخر بعنف وكفا **بخيت** تضيقان على عنقه. تلقى ضربة على جانب عنقه فتراخت قبضته. أخرى فغامت

الدنيا. لكنه تشبث. أنشب أظافره ليؤذي خصمه أكثر. لكن الضربات القوية على عنقه لم تمهله موته.

وهو يهوي مبتعداً بوعيه رأى **حواء** تنظر إليه من الباب المفتوح. بيضاء يغلفها النور الفضي.

وجهها كان حزيناً.

9

حين فُتحت أبواب الغرف صباحاً جرى **جوهر** يبحث عن صاحبه.

سرى الخبر كالسحر في السجن كله ليلاً. عرفت كل الحجرات أن **بخيت منديل** حاول قتل سجين جديد. دفع **جوهر** رشوة ليسمحوا له برؤية **بخيت** في عموده المعلّق عليه. قاده الحارس إلى مسافة أقدام وأوقفه. أراد أن يهرع إلى صاحبه لكن الحارس منعه.

اتفقت معك أن تراه. ان أردت معاينته عن قرب ادفع أكثر.

لم يكن **جوهر** يملك ما يدفعه. فاكتفى مرغماً بالنظر من بعيد.

بخيت كان معلقاً إلى عمود خشب ضخم في الجانب الشرقي

من فناء السجن. ظهره يرشح دماً بلا توقف. وسرواله المُمَزّق قبلاً صار مُزَقَاً الآن. قدماه لا تمسان الأرض. وحول معصميه وعنقه يلتف جنزيران ضخمان يلوّنهما الصدأ. رأي **جوهر** الدم يقطر سائلاً على أصابع قدمي **بخيت**، ينخر الأرض.

محزوناً تراجع.

هرع يمر على الغرف يجمع بقايا طعام ثم أخذ يبحث عن **يونس**. سأل عنه السجناء فدلوه عليه محتبياً في ظل غرفة قصية. يجلس وحيداً يلعق ذهوله. قدم إليه الطعام. فكل جديد في السجن تشغله جدته عن تدبر شان الأكل في أيامه الأُوَل. تودد إليه بالحديث حتى أزال توجسه. **جوهر** متحدث لبق ومنه سيتعلم **بخيت منديل** كيف يشرّق بمستمعه ثم يقوده غرباً مشدوهاً. قال له:

مرحباً بك في الساير. ليس من المعتاد أن يتعرض سجين جديد لما تعرضت له. لكن ما حدث له فوائد. فقد جعلك مشهوراً. للشهرة في السجن فوائدها إن أحسنت استخدامها.

حشا **يونس** فمه بالطعام وهز رأسه. زحف **جوهر** بالحديث متسللاً لما حدث. قص على **يونس** أساطير اختلقها عن هجوم **بخيت منديل** عليه بلا إنذار. تعمد أن يوجعه بحكاية عن صراخ **يونس** وتوسله.

انتفض العسكري السجين.

كذب! هذا كذب! لو شئت لذبحته هناك.

يقولون غير ذلك.

أخذني المجرم النجس على غرة. لكني سأقتله.

تقتله لما فعل أمس أم لتاريخ بينكما؟

أنا أعرف الكلب منذ زمن.

وقع **جوهر** على بداية الأثر.

كيف ذلك؟ حدثني عن هذا.

طلب **يونس** شراباً. هرول **جوهر** مسرعاً ليحضر الماء. مر في طريق عودته على **التومة** فأوصاها أن تزور **بخيت** لتسقيه خفية. وعدها أن يهبها أجر يوميته لأسبوع قادم. حين لامته نفسه على هذا الكرم واساها:

العاشق في ذمة العاقل.

رجع إلى **يونس** فألفاه محاطاً بجمع من سجناء الجهادية. اندس وسطهم متبرماً. ما عاد للحكاية مكان.

عرف أنهم معارف قدماء **ليونس** خدموا معه في رايات الجيش. كانوا يحرضونه على الانتقام. في عز صخبهم لم يميزوه. لكنه يدرك

أن فيهم من سيتذكر أنه صديق **بخيت**. فهما لم يفترقا لأسبوعين. حينها لن ينجو. تسلل مبتعداً وقد كفاه ما سمع.

قضى نهاره يراقب صاحبه من بعيد حذراً أن ينال منه الجهادية. رأى **التومة** تتسلل إليه فتسقيه شيئاً يسيراً. مر النهار بسلام حتى حُشرَ **جوهر** في غرفة. في النهار التالي أنفق حيلاً عدة ألا يخرج في طابور الخدمة. بقي يراقب صاحبه، حارساً له. كلما أكلته الشمس مال عنها قليلاً إلى ظل لا يمسك نظره عن **بخيت**. مر به أحد الحرس فسأله عنه. إلى متى يبقونه هناك. هز الحارس كتفيه وقال انه لا يعلم.

أغلب الظن أن لا أحد يعلم. سيبقى معلقاً هكذا حتى يتنبه له أحد من لهم الكلمة فيأمر بإنزاله. أما قبل ذلك فلن يهتم أو يجرؤ حارس على الاقتراب منه. أما إن ظفر به الجهادية فهو أقل شأناً من أن يُحتسب. سيلقونه في الخلاء بين سور السجن والنهر لينتفخ هناك حتى العفن.

في اليوم الرابع لمراقبته عثر به **يونس ود جابر**. كان يمشي مختالاً رفقة اثنين من الجهادية حين لمحه. فارق صاحبيه وسار إلى **جوهر**. ألقى إليه سلاماً باشّاً. جلس جواره. شكر إليه يده التي قدمها. أخبره أنه بحث عنه ليضمه إلى زمرة صحاب يعرفهم قبل سجنه. شكره **جوهر** وسأله عن الصحاب.

جماعة من عسكر الجهادية. جاهدنا الكفار سوياً مع مهدي الله.

وما الذي جاء بك هنا وأنت من عسكر الجهادية؟

ضحك **يونس**.

عسكر الجهادية هنا كثر. ألا تعلم؟ أما أنا فجاء بي الطمع.

لم يوضح أكثر. لكن **جوهر** حدس أنه أحد العساكر الذين يغتالون مال العهدة تحت أيديهم، ثم ينتهي بهم الأمر أمام قاضي الإسلام ليأمر بتجريدهم وحبسهم.

في حكاية **بخيت منديل** التي لم تكتمل هناك "**آخر**" كان يسومه عذابات الغيرة. كان من عسكر الجهادية. لم يسمه **بخيت** إلا "**الآخر**" لم ينطق اسمه قط. أتراه يكون؟

لا يعرف لأسئلته أجوبة إلا لدى صاحبه المعلق على مسافة منه يشده إليه القلق. لم يجد بداً من أن يسأل **يونس** مباشرة:

هل تنوي الانتقام منه؟

أدار **يونس** نظره إلى مهاجمه المعلق كجيفة يابسة.

ليس الآن. يحرضني رفاقي على الانتقام. لكني لن أقتل ميتاً. إن نجا من عموده هذا فموته على يديّ. وإلا فإني قد سامحته.

قرأ **جوهر** في عينيه صدقاً رغم أن كحلهما مكر. هدأ قلبه لكنه لم يطمئن لترك المراقبة. قرر أن يتبع سوء الظن ويبقى مراقباً حتى يقضي الله أمراً. لكن القضاء لم يتأخر.

ذلك المساء وهم يُحشرون في غرفهم رأى **جوهر** الحراس يُنزلون **بخيت** عن عموده ويجرونه إلى غرفة العجائب البعيدة.

لم يفهم لماذا. لكن قلبه ارتاح أن القدر ربما نظر إلى صاحبه البائس بعين لطف أخيراً.

10

يغلفه السحاب.

هذا الأبيض لا يكون إلا سحاباً.

ليس في الدنيا إلا عمود هو مشدود عليه، و بياض يلفه يعانق بعضاً كنتف السحاب.

تبرز إليه من مكان قصي.

تحمل الشمس في كفيها. فيشع جسده بالدفء. تسري فيه كحلم.

فارعة كما عهدها.

لونها الأبيض.

قال لها يوماً "أنت بيضاء كالنهار"

عيناها مشاغبتان تحملان حزناً دائماً. أنفها المحبب. وشفتاها كما اشتهاهما دوماً.

ما غيّرها الغياب.

مربكة.. *تماماً كالحياة.*

موجعة *مثلها.*

ولا أمان لها كالنهر.

يلفها ثوب من نور شمس.

تحوم حوله. هل تراه؟ هل تحادثه أم تتجاهله؟

ما أقسى الأمل حين تنتظر ما لا تأمن.

وحدهما في عالم من نُتف السحاب. لكنه يخشى أن تتجاهله.

همّ أن يناديها. لكن صوته لم يكن معه.

رآها تنظر إلى دمه المتجمع أسفل قدميه. بركة قانية يعرف أنها هناك لكنه لا يقدر أن يثني رأسه ليراها. جسده مشدود إلى أعلى العمود بالجنزير الغائص في لحمه.

ربما عطفت على عذابه. لعلها تحنو على جراحه.

لكنها مضت إلى أفق آخر.

مرت به كضوء شارد. ما فاز منها إلا بنظرة. ما أحلى ذلك الفوز.

احتضنها بعينيه وأغمضهما عليها. فلتمض حيث شاءت. فصورتها هنا.

لكنه، متحسراً، وجد صورتها في ظلام إغماضه تذوب مسرعة.

"لا تذهبي!!"

تركته ومضت.

11

يتكون الجيش المصري الذي غزا المدينة من أجناس عدة. قوامه جند مصريون، وبعض كتائب من العسكر السودانية هم الأشد غلظة على بني جلدتهم، وقادة من الإنجليز والأوروبيين.

دكوا المدينة كالوطء على جحر نمل. ثم انتشروا فيها يستخدمون رجالها الباقين لأصلاحها.

يعود **بخيت** آخر النهار إلى بيت **مريسيلة** يحمل تعبه وفشله.

فوجئ أن السُخرة التي عملها مجانية. الحكومة تستخدم الرجال لإصلاح ما أفسده هجومها لكنها لن تدفع لهم نقوداً. حين سأل عن أجره رأى في وجه **فرج الله** العسكري شماتة تبرق.

لا يوجد أجر. هذه سُخرة.

ماذا يعني هذا؟

يعني سُخرة. تعمل مقابل لا شيء.

ظن **فرج الله** يخدعه فسأل أحد الضباط.

قال له الخواجة:

أنت تعمل لبلدك. هل تطلب من بلدك نقوداً؟

لم يفهم ماذا تعني بلده. ولماذا لا يطلب منها نقوداً. لكنه فهم أن **فرج الله** لم يخدعه.

عاد منهكاً إلى **مريسيلة**.

وبخته كأم عصبية. شتمت **فرج الله** والمصريين والنصارى وجند الخليفة. وصفعت امرأة جرؤت أن تطلب منها الهدوء. فحصته بدقة وحزم لتتأكد أنه عاد سليماً. هوّنت عليه أمر النقود. لم تسأله لماذا يحتاجها. لكنها طمأنته:

المال يمكن تدبيره.

قادته إلى العريش. جلبت له طعاماً قليلاً. أكل. قالت وهي تشم رائحته:

تحتاج إلى غُسل. رائحتك كدجاجة مبتلة.

غداً أذهب للنهر.

نظرت إلى عينيه. يعلم أنها شهية نضرة. غيره قد تقتله هذه النظرة. أما هو فميت قبل أن يراها. لهذا هو آمن. لهذا هو جثة أمامها.

سألها:

ماذا فعلتِ في ما طلبته منك؟

قذفت في حجرة صُرّة مغلقة.

هذا أحد طلبيك. أما المعلومات فتحتاج وقتاً.

ضم قبضته على الصرة غير مصدق أنها نجحت في العثور عليها في سحابة نهار واحد. سألها كيف حققت هذه المعجزة.

لم يكن الأمر صعباً. وصفك كان دقيقاً. وجدت المكان ووجدتها حيث وضعتها. ما كان في المكان ما يغري أحد بالبحث فلم تمسها يد منذ دسستها أنت هناك.

فتح الصرة فهبت عليه رائحة المسك.

مد يده يلمس ما بداخلها. تميمة من الجلد قديمة. قطعة قماش. شظية حديد صدئ. مكحل نحاسي عليه نقوش دقيقة. دفترها الصغير؛ حشوه أوراق ومراسلات قديمة. خنجر وقلادة أهداهما إياه سيده المصري.

مريسيلة كانت تنظر إلى الأشياء دهشةً. حين لف التميمة الفارغة حول عنقه سألته.

ما هذه الأشياء؟

ضم على قطعة القماش كفه. استرق منها نظرة إلى ماضٍ. بعث ملمسها فيه حكايات ولفتات وتفاصيل.

مريسيلة كانت تعرف الإجابة قبل أن ينطقها.

هذا كل ما تبقى منها.

أرادت أن تلعنه وتسبه لكن لسانها لم يطاوعها.

روحها مثقلة. وخواطرها مبللة بالدموع.

سمعت ضجيج المدينة البعيد. صراخ أو ضحكات يبعثرها الهواء. طرقات مكتومة. دقات الوابورات في النهر. هل عوى كلب في مكان ما؟ ما أثقل ليل الخريف. ومضت حياتها أمامها.

رغم كل ما تعلنه من سخط شعرت بشيء كالحسد. ورغم كل من حولها الآن ومن تعرف في حياتها أحست أنها وحيدة. قطعة القماش في كف بخيت آمنة أكثر منها في مهب الحياة.

مريسيلة.

لا تكلمني.

مريسيلة.

لا تنطق اسمي.

مريسيلة.

صرخت:

اذهب. طارد أشباحك. لا شأن لك بي.

ثم جرت مبتعدة عنه وعن ضعفها.

الثاني

1

لا ينام.

يتقلب **بخيت منديل** في مكمنه على مقربة من **أبوحراز** ويجهد أن يستدعي النعاس. يتوسله بـ ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾. يتمتم بسورة {الأنبياء}. لكنه لا ينام.

يجهل أنهم خلفه. قدره. مطاردوه الذين لم يكلوا. لا يعرف أنه صيد كما هو صياد.

يشغل باله من يطاردهم. ولا يعلم أن بينه ومطارديه أيام.

يبحثون عنه في جد ليحصلوا منه ثأرهم.

يتذكر قتيله الأخير.

الشيخ **إبراهيم ود الشوّاك.**

منظره وهو يتصدع ويسقط كجذع السُنُط.

ولد الشيخ **إبراهيم ود الشوّاك**، الذي مات قبل أيام، في إحدى قرى **دنقلة**، شمال السودان حوالي العام 1826. هاجر طفلاً معية أسرته إلى **خرطوم التُرك** حين شرع **خورشيد باشا** في اجتذاب السكان إليها بتوسعتها، وإنشاء المباني والحدائق لتكون عاصمة للقطر. حقق والده **عبد الله ود الشوّاك** قدراً معقولاً من الثراء بالعمل مع شيخ مراكبية المغاربة الشيخ **عبد السلام** في نقل أحجار مدينة **سوبا** المقتولة إلى **الخرطوم** الوليدة. خبرة الدنقلاوي المهاجر كانت مفيدة لشيخ المراكبية، فقرّبه وأغناه عن العمل لغيره. وكان إن لامه أقاربه على تقديم المهاجر ضحك وقال "**ود الشوّاك** لا يرفض عملاً ولا يكل. إنه لا يعرف التعب. فهو ككل الدناقلة؛ شيطان مجلد بجلد إنسان"

بلغ تقدير الشيخ **عبد السلام لود الشوّاك** أن زوجه إحدى قريباته عرفاناً لإخلاصه. الزيجة التي ما استفاد منها إلا **إبراهيم ود الشوّاك**، بعد أعوام، إذ تزوج إبنة أخت زوجة أبيه، فورث بها ثروة طائلة عن أبيها.

نشأ **إبراهيم ود الشوّاك** في الخرطوم في معية المغاربة أول أمره، ثم لما شب رافق أبناء الجركس واليونان فتعلم منهم أصول التجارة ومسالك الرزق. ونمت لديه غريزة الربح وقراءة اتجاه الريح بقوة. فكان كمن يقرأ غيب المكسب. لا تخطئ له صفقة، ويمشي في ركابه الربحُ تابعاً مخلصاً. وإذ تزوج من **النوّار بنت الحاج قاسم** المغربي تاجر الغلال كان قد غرس راية مجده في أعلى تلال الثراء. لكن أربح صفقاته عقدها حين حوصرت **الخرطوم**، فأعان أغلب الأثرياء، من تجار الرقيق والعاج والأبنوس والجلود والحبوب، وعلية القوم، من الشيوخ والعلماء والوجهاء، باشا المدينة **غردون** الإنجليزي، توهماً منهم أن **القاهرة** ستنقذ حاكمها قريباً.

الشيخ **إبراهيم ود الشوّاك** لم تخدعه خطابات الباشا، الذي انتهى ذبيحاً على سلالم السرايا، وبلاغاته التي ينشرها معلناً قُرب الفرج وانهزام المتمردين الدراويش. فبعث سراً بالرسائل إلى أمير الأمراء **عبد الرحمن ود النجومي** يعلن ولاءه لمهدي الله. وبعث بين يدي ولائه بأموال وهدايا للجيش المحاصِر. وأرفق مع ذلك تقريراً وافياً بموقف الغذاء في المدينة المنهكة، وكشفاً تفصيلياً بثروات ومواقف أثرياء المدينة بمن فيهم أصهاره أبناء الحاج **قاسم** المغربي. رسائله طارت سريعاً حتى تلقت مهدي الله في **أبوسِعِد**، فحظيت بتقدير وثناء. ونال الشيخ **ابراهيم** مقابلها، بعد

أشهر قليلة، مكانة وحظوة لدى خليفة المهدي. وكان الشيخ **إبراهيم** يفاخر أنه من القلة الذين دخل بهم الخليفة على جثمان مهدي الله قبل أن يُعلن خبر صعوده إلى السماء.

طوال ثلاثة عشر عاماً ارتفع نجم الشيخ **إبراهيم** إلى أقصى قدر يمكن أن يبلغه تاجر خرطومي، أصوله دنقلاوية. حين أرسل خليفة المهدي الجيش لغزو مصر أنفق الشيخ **إبراهيم ود الشوّاك** على الجيش ما لا يحصى من الأموال، ودعمه بعشرات العبيد الذين اشتراهم لم تهزه حوادث تنازع السلطة بين قبيلته الدناقلة وأبناء العرب والأشراف من ناحية وخليفة مهدي الله من ناحية. ساهم في دعم قوات الجهادية في كل حملاتها ودفع بابنه البكر إلى ثلة **عثمان شيخ الدين** وريث أبيه، خليفة مهدي الله، المرتقب.

دانت له الدنيا التي كان يدين بدينها، ولا يؤمن بغير الربح فيها رباً.

لكنه، كعهده بغريزة المكسب، استشعر القلق قبل الغزو. فقام بتهريب قدر من أمواله خارج **أم درمان**. واشترى جنائن ومنازل في عدة مدن بعيدة جنوباً، لتكون مستقراً له إن وقع ما يحوجه إلى فرار.

وفي يوم الواقعة، حين كان ركب خليفة مهدي الله يجد السير خروجاً من المدينة الجريحة، بعد أن مات عشرة آلاف مقاتل في

ساعتين، كان ركب الشيخ **إبراهيم ود الشوّاك**، يقوده وكيل تجارته **الحسن الجريفاوي**، يبعد مسيرة ساعات عن **المسلمية**.

ما أن استقر بها حتى شرع يرسل الرسل إلى الجيش المصري الغازي، يتقصد بهم أسرى قدامى عاشوا ردحاً تحت وطأة **أم درمان** ثم فروا إلى مصر. ليعودوا فاتحين للمدينة التي سامتهم عذاب الأسر. وصل حبال وده سريعاً مع عدد من القادة وحصل منهم على وعود بالحفاظ على أمواله وأعماله، ما استطاعوا، إلى حين عودته إلى العاصمة. لكنهم نصحوه أن يؤجل تلك العودة حتى تستقر الأوضاع ويُعلم يقيناً الموالي من العدو. ومقابل ذلك تنازل عن بعض جنائنه وقدرٍ من الأموال المخبأة في **أم درمان** لأولئك القادة، مع تقرير عن أموال وأسلحة لعدد من الأمراء الهاربين أو الموتى يعلم أين أخفيت.

استقر به المقام في **المسلمية** منتظراً رسول الأمان أن يأتيه. وشغل نفسه بمد جناح تجارته على أسواق المدينة. فرغم أنه قد جاوز السبعين من العمر لم تخفت لديه شهوة الربح ولا فتر حماس الكسب عنده. كل يوم يبدأه بالأمل في صفقة يربحها، وخبر من ابنه لا يأتي، ورسول يبشره.

في يومه الأخير خرج يقصد السوق مع وكيله. كانا يتحادثان عما يجري في البلاد. الشيخ الماكر كان يقول:

المصريون لن يذهبوا. المهدية راحت. لديهم سلاح كثير. سلاح كثير جداً. والناس لا يحبونهم، لكنهم يكرهون الخليفة. إنها أيام النصارى. أقوياء ومتعلمون. أم درمان مدينة عجيبة. لكنها انتهت. أم درمان راحت. المصريون والنصارى نقلوا الناس إلى الخرطوم مرة أخرى. عمرّوا الحكمدارية القديمة ووضعوا قوانين لكل شيء. يجب أن نعتاد على ذلك.

وكيله، **الحسن الجريفاوي** كان يسمع ويهز رأسه. لو علم انها آخر أحاديثه مع الشيخ لقال له أشياء كثيره. لكنه ما كان يعرف. لذلك هز رأسه موافقاً الشيخ حين قال له:

لو كان لزاماً علينا أن نلبس طربوش النصارى ونغير لون جلودنا فلنفعل. المهدية راحت يا ولدي. هذا أمر الله.

أوجعه القول لكنه تصنع الموافقة. ثم تراجع ليلحق بالبضاعة المنتظرة في مخازنها لتُحمل إلى السوق. لكنه في نهاية الشارع سمع الصراخ.

بخيت كان يجلس محتبياً أسفل جدار، مدارياً وجهه بالعمامة المتسخة، وتحت يده سيفه اليتيم. الوكيل يهز رأسه موافقاً. ثم يترك الشيخ ويمضي. يقترب **ود الشواك** من مجلس **بخيت**. عجوز سبعيني، قصير يرتدي جبة وقميصاً من القطن وسراولاً، وعلى رأسه عمامة تفوح منها رائحة الدهن.

يبتسم كأنما تنتظره الحياة كلها.

عيناه تخترقان خصمه الذي يبحث عنه منذ أشهر. رابع الستة.

ها هو يا حواء.

ها هو لا يمنعه عني نفوذ أو سلطان.

ينهض بخيت على مهل. العالم كله خاوٍ. السماء تصيح به أن يتقدم.

حواء.. أيتها العالم.

ماذا كنتُ قبلك وأين انتهيت. حلمت أن لي قوة. حلمت أن لي من الأمر شيء. إذا لمسحت عن عينيكِ كل الحزن. وجعلت الشمس تشرق من ابتسامتك.

حواء أنتِ لي الدنيا.

" هل ترين تلك النجمة؟ سأصعد إلى السقف ثم أطير نحوها. سأخطفها، وأسرق من القمر خيطاً، وأصنع لك حجلاً تضعينه حول ساقك"

تضحك، ثم تدعي الغضب.

اقترب من خصمه. يجر سيفه خلفه فيخط على التراب أثراً. رفعه وصاح "لا إله إلا الله".

طار سوط الدم، وارتمى خطاً قانياً على الحائط

لم يجد الشيخ **إبراهيم ود الشواك** وقتاً للدهشة. كان يتقدم ممتلئاً جداً بالحياة والأحلام حين تلقاه السيف بغتة.

بخيت رفع السيف ثم هوى به على صدر الشيخ. ثم لوّح بيده مرة أخرى ونزل بالسيف على بطنه. ضربه ثمانية ضربات قبل أن يطعنه في صدره. حين جذب السيف إلى الوراء سقط الشيخ **إبراهيم** متفجراً بالدم.

سمع الصراخ. نظر خلفه فرآهم يأتون. لم يتردد. رفع جلبابه واندفع هارباً.

تاركاً الشيخ يتشحط في موته، و**الحسن الجريفاوي** يقسم أن يثأر منه.

في مرقده قرب أبو حراز، غافلاً عمن يطاردونه، يسمع حصانه يُحَمحِم. يتقلب حذراً.

يتذكر **مريسيلة**.

حين صارحها بخطته لم تعلّق. قامت عنه صامتة. غابت، وعادت تحمل خرقة لفتها على ريالات مجيدية وريالات أبوطيره وقروش مصرية. دلقتها بين يديه. قالت:

- سيعينك هذا على ما تطلب.

قلّب النقود بيده. تأمل رسم النسر على ريالات أبوطيره. تمنى لو يقدر أن يرفض. لكنه بدون مساعدة **مريسيلة** ضائع في الظلام.

إنها مدخراتك!

لمن أدخرها؟ أنا لا احتاجها. أنا فقط لم أعرف فيم انفقها. خذها وأكمل جنونك.

حين أصبحت المدينة جاءته بالعسكري **فرج الله** تقوده من ذراعه. قالت انه سيوفر له بندقية رامنتون وسيفاً بسعر معقول. **فرج الله** كان مذعوراً. يتلفت ويتكلم همساً.

أعرف شخصاً لم يُسلّم السلاح الذي غنمه. يمكن أن أكون واسطتك عنده.

شتمته **مريسيلة**.

دع عنك الكذب يا خصي. أنت من يخفي السلاح.

دارت عينا العسكري رعباً.

أنا لا أغل. فقط صدف أني أعرف شخصاً فعل. هو مسكين لذلك لم أبلغ عنه. هذه جريمة. لكنها ليست مثل إخفاء السلاح. من تعرف الحكومة أنه أخفى سلاحاً نارياً يُعاقب بقسوة.

سأله **بخيت**:

وهذا المسكين بكم يبيعنا البندقية والسيف وما يكفي من البارود؟

ساومه على لسان الآخر المُدّعى. ثم اتفقا على رضا.

حمحمة الحصان تتعالى.

جلب **فرج الله** البندقية والسيف والبارود، ووفرت **مريسيلة**، عن طريق بعض النسوة، ثياباً وقماشاً.

رافقته، رغم اعتراضه، إلى **حواء**، ثم حتى تخوم المدينة. وهما يسريان في الظلام أحسها شهية كمعصية.

رائحتها عطرة. جسدها مشبع بدهن طيب. وبينهما ما لا يقال. صمتهما كان فاضحاً في ثرثرته.

حين نظر إليها قالت:

أعرف.

لم ترفع رأسها نحوه. لكنها عرفت أنه ينظر إليها. أجابها:

ليس بيدي.

لم ترد. ظلا يتبادلان صمتاً حميمياً حتى افترقا.

لماذا يُحَمْحم الحصان؟ رفع جذعه ينظر. لمح الخيال الأبيض جاثماً. هب مهاجماً. جر سيفه وتقدم نحو الشبح الجالس قرب

حصانه. قطاع الطريق اليوم في كل مكان. تقدم حذراً أن يتنبه هدفه. لكن البرد تلقاه إذ اقترب. برد لطيف كالحلم. الظلام حالك لكن الجاثم قرب حصانه مضيئ كالقمر. لما وقف فوقه أحس سكينة. لم يرفع سيفه. وقف مستسلماً للنعيم الذي يغشاه.

أيها الضوء الذي يملأ شراييني.

ماذا يملك ابن آدم من دنياه سوى محبة.

خذيني إليك.

لا تتركيني.

من الكافر الذي زعم أن الحبيبة تموت.

يشم رائحة المسك تملأ الكون.

رفعت رأسها نحوه. لونها الأبيض. عيناها المشاغبتان تحملان حزناً دائماً. أنفها المحبب. وشفتاها كما اشتهاهما دوماً. ما غيّرها الغياب. مربكة تماماً كالحياة. موجعة مثلها. ولا أمان لها كالنهر. يلفها ضوء كقمر.

أنت هنا؟

أنا هنا يا بخيت.

آه يا حواء. اشتقتك.

استقامت واقفة. فارعة كما عهدها. جسدها، دوماً، ريان يعاند أيام بؤسها.

يحب لغتها العربية. تتكلم السودانية بطلاقة تشوبها لكنة طفولية. حرف جيمها معطّش بلطف آسر. وكلماتها سريعة تنطقها بخفة كانما تتكفّأ.

في سنوات سجنه السبع كانت تأتي كثيراً. تعبر فناء السجن ليلاً لتقف عند باب الغرفة التي ينام فيها. تلتصق بشقوق الباب وتنظر إليه. يزحف حتى يلتصق بالضفة الأخرى من الباب. يحادثها حديثاً طويلاً. تداعبه وتتدلل. تغضب وتصمت. تحكي وتهزل. يشم المسك من شعرها البندقي.

من الكافر الذي زعم أن الحبيبة تموت؟

مريسيلة لم تكن تعرف هذه الزيارات. لكنها كانت تقول رجماً بغيب:

بنت النصارى شيطان. لو فتحنا قبرها لوجدناه فارغاً لابد أنها تمشي في الخلاء تحت القمر تفتن المسافرين وتحملهم إلى أرض سقط لقط.

لا شيء يقوله يمكن أن يهز هذه القناعة عند **مريسيلة**.

تقول:

أنا أعلم الناس بهذا. هل نسيت بنت من أنا؟ خالي الذي خطفه الجن. وبسحر كهذا جاءت بي أمي إلى الدنيا. وأنت كأمي. ستودي بك اللوثة ستموت. يجب أن تُقَيّد بالسلاسل إلى قبة المهدي حتى تشفى.

يمشي مع **حواء** فوق رمال ناعمة. لا قمر في السماء لكن ظليهما على الأرض يتعانقان.

يقول لها:

لم أحضر لك هدية تسعدك.

تبتسم في صمت.

يحكي لها ما فعله. يحدثها عما ينوي فعله.

لا تفعل يا بخيت. أرجوك.

لا أقدر ألا أفعل يا حواء. هذا حقك عليّ.

لن تسعدني. ستموت عبثاً.

لا يهتم.

سأموت وأنا احاول أن اسعدك.

لا شيء تفعله سيسعدني. ليس هذا بيدك للأسف.

يقطب جبينه. يرفض ما تقول. هي دوماً تريده آمناً، غير مشغول بها. هي دوماً تحرّضه ألا يسجنها في اهتمامه.

عش حياتك يا بخيت. عشها لأجلي. لأجل خاطري.

أي حياة تلك التي أعيشها وأنا مثقل بدينك؟

لست مديناً لي.

مدين أنا بما عرفته معك من سعادة.

يمشيان قدماً. الكون كله ممتد أمامهما.

تمنيت لو أسعدتك. أنا ما وهبتك إلا حزناً.

يقول في عناد:

كنتُ سعيداً. وساموت وأنا أحاول أن أرد دينك. سأسعدك.

كالعادة متأخر. فات الأوان. لا شيء يسعدني الان

لماذا قدره أن يجئ بعد فوات الأوان.

أحزانها تسبقه دوماً.

كلما مشى إليها رمحت بها الأحزان. إن ركض نحوها فردت أحزانها أجنحة وحلقت بها.

بينهما، طول الوقت، مسافة من حزن ملتهب. فيها كبا فرس عشقه.

سأذهب الان.

لا تذهبي. انتظري.

لابد أن أفعل.

يسمع حَمْحمة حصانه. تركاه خلفهما مسافة عمر كامل. لكن صوته الآن قريب. هل استدارت بهما الأرض حتى رجعا إلى حيث انطلقا؟

وقف مرغماً ومشت هي.

يا حواء!

نظرت إليه. شردت كلماته كسرب قمري أهاجه صائد. صمت محتاراً.

قالت له وهي تغوص في الغياب:

تعرف! لم أحب اسم حواء إلا منك. أحببته أكثر من اسمي الحقيقي.

ثم ذهبت.

2

"من أي بلاد يسكنها ملائكة أنتِ؟"

3

ثيودورا ليست من هنا.

إنها من بلاد بعيدة. وهي في البلاد البعيدة غريبة تنتمي إلى بلاد أبعد.

ولدت **ثيودورا** في مدينة الإسكندرية، أسفل مصر. أما والداها فجاءا من وراء البحر.

لم تر بلاد اليونان التي جاء منها والداها قط. **أندرياس إليفثيريوس** هاجر عبر المتوسط بعد ثورة اليونان، عام 1862، على ملكهم أوتو الأول.

كان رجلاً محافظاً، مؤمناً بقداسة العرش. ساءته الثورة التي أجبرت الملك على التنحي لإبنه. وما فهم قط عواصف السياسة

التي منحت البرلمان سلطات أكثر على حساب الملك. حاول لسنتين أو ثلاث بعد الثورة أن يتعايش مع الحياة الجديدة، ومع ما قيل له إنه الحرية. لكنه فشل. فجرّ زوجته الحسناء **لاسكارينا إليفثيريوس** وابنيه وقصد إلى مصر، عاقداً العزم ألا يعود.

على الشط الآخر من بلاده غرس جذوره. عمل في البوستة الأوروبية، واستقرت أحواله. وولدت له **ثيودورا** وهو من الرضى في غاية المطلب، هانئاً بأسرته الصغيرة وعمله، وكسوة العاملين.

ورثت عنه الفتاة طول القامة ولون شعرها البندقي. سوى ذلك كانت صورة عن أمها، **لاسكارينا** الحسناء. عيناها واسعتان كبحيرة عسل. أنفها به طول محبب. وشفتاها وحشيتان طالما أقلقتاه.

دللها وإبناه وزوجته. ودللتها معهم مدينة البحر. لكن قلقه من شفتيها لم يخب. **لاسكارينا** الحسناء كانت هي من اقترحت أن تُنذر **ثيودورا** للرب. **أندرياس إليفثيريوس** لم يكن أرثوذكسياً متديناً رغم أنه محافظ، لكن الفكرة راقته. لن ينتظر أن يحفظ الرب شفتيّ ابنته وهي في البيت خلف نادي محمد علي، بل سيذهب بها إليه، في بيته. قال لزوجته:

هكذا لن يتجاهلها الرب.

4

يسألها بخيت منديل متعجباً:

ماذا جاء بك إلى هذه البلاد؟

تبسم حُزناً.

الرب يُقدّر.

يتلفت فزعاً ويهتف بها:

لا تتحدثي كالنصارى. كلمة كهذه يمكن أن تعلّقك على مشنقة السوق.

ترسل بصرها إلى المشنقة التي أشار إليها. تسأله شاردة:

لماذا استبدلوا المشنقة بضرب العنق؟

لا يفهم مزاجها. تتسرب بين الحكايات كغزال الخلاء. يهش عن شفتيه الذباب اللحوح. كانا يجلسان في سوق الخضار. قرب نصبة **إدريس النوباوي.**

لا أعرف. سألت سعد الله الجزار الذي كان ينفذ الأحكام فلم يعرف. قال ان الأمر جاء من سيدي خليفة المهدي بذلك.

تهز رأسها. وتقول فجأة:

لكنهم إن أرادوا شنقي ستنقذني يا بخيت. أليس كذلك؟

يقول بحرارة:

سأفعل ما لا يُفعل لأحميك.

لماذا؟

نعم؟

لماذا؟ لماذا ستفعل ما لا يُفعل لتحميني.

يرتج، وتضيع منه الكلمات. تنتظر اجابته وهي مطرقة ترمي نظراتها الحزينة على الأرض.

لأني أهتم.

أنت أخي الأسود.

لا يعرف أن هناك أخاً يحس أخته كما يحسها. لكنه لا يعترض.

تعود فجأة إلى حيث نفرت. ليس من عادتها أن تحكي عن ماضيها. لكنها تقول:

جئت لأخدم الرب وأنشر كلمته.

يتخيلها مثل الجهادية الذين يحملون رايات المهدي لينشروا كلمة الله. ذهب تحت إحدى هذه الرايات الناشرة كلمة الله في الديار المصرية، لكن الراية انكسرت ووقع هو أسيراً.

رشحوني لمرافقة بعثة تبشير لأخدم الجالية اليونانية في الخرطوم. كانت بعثة كاثوليكية أرثوذكسية.

رأت في عينيه عدم الفهم. قالت محاولة الشرح:

الكاثوليك والأرثوذكس مثل المذاهب عندكم. تعرف مذهب أبوحنيفة والمالكي والشافعي وأبوحنبل؟

لا. المهدية هي دين الله.

تميل برأسها ولا تجادله.

ذهب الكاثوليك غرباً إلى مدينة أباضة وبقينا نحن في الخرطوم.

الأُبَيِّض.

ماذا؟

يضحك.

مدينة الأُبَيِّض، لا أباضة.

تقطب كالمغضبة:

لا تضحك على أغلاطي.

أنا لا أضحك على أغلاطك.

بل تفعل.

يبتسم في حنو ويغوص في بحيرتي العسل. بها طفولة فاتنة رغم حزنها.

شعرها البندقي يتحدى خمارها ويسيل كالنهار المشرق. كيف تحبس النهار المشرق داخل ستر قماش؟

عذابها ورقها لم يزيداها إلا فتنة.

كأنها خُلقت للحزن. يكسوها جلالاً وفتنة. وحين تضحك يبدو عليها ندمٌ، كأنما قارفت إثماً. ضحكتها لمعة مسروقة من خلف حوائط حزنها الحجرية.

سأقتل شيدك لتصبحي حرة.

أنت طيب القلب. لو مات الشيخ سيرثني إبنه، أو يأخذني بيت المال.

يقول في تحد.

لا. حين مات سيدي في الخرطوم لم يرثني أحد، ولا أخذوني إلى بيت المال.

هو يعرف أن سيده لم يكن له ورثة. ماتوا جميعاً حين دخل أجناد مهدي الله الخرطوم. وتُرك الرقيق أمثاله هائمين، منبتين. سقطت عليه حريته بين مقتل الباشا غردون على ضفة النيل الشرقية وحكم خليفة مهدي الله على ضفة النيل الغربية. بينما السلطة تنتقل من

خرطوم الترك إلى بقعة مهدي الله أم درمان تساقطت دواب الأرض من شاكلته، وما افتقدهم أحد.

ليسا سواء. يعرف ذلك. لكنه يكذب ليبعث فيها الأمل.

وجد نفسه حراً في بلد جديد. يولد إذ يولد. كلاهما ابن يومه ذاك. فقرر أن يصبح مثل هذا البلد. يصنع نفسه. سيتعلم الحرية.

قذف في الحياة نفسه. جرّب المهن كلها. قطع أم درمان عاملاً، من أدناها إلى أقصاها. كلما كبُرت هي كانت شجرة حريته تزداد رسوخاً. وكالمدينة أصابه الجوع بما لم يحتسب. مات الذين يعمل معهم أولاً. ثم الذين يعمل لديهم بعدهم. ورأى الموت يتبختر حوله. ينتظر منه غفلة. قرر أن يفر. لن ينتظر الموت. سيهرب منه. كان يريد الحياة بقوة. عمره، بحسابه، خمس سنوات. عمر حريته.

لن يموت.

لهذا حمل رمحه وذهب مع الجيش ليغزو الديار المصرية. اختار الحرب.

ليعيش.

5

الأب **بولس** هو من جهد في إقناع **أندرياس إليفثيريوس** أن ترافقه **ثيودورا** إلى بلاد السودان.

موظف البوستة اليوناني كان قلقاً. قال للقسيس:

أنا لم أذهب بها للرب ليأخذها مني، بل ليحميها لي.

قال الأب **بولس**:

الرب يملكنا كلنا يا إليفثيريوس. والبعثة ليست خطيرة. سنبقى في الخرطوم لعامين. اخوانك من اليونان هناك يحتاجون الإرشاد والخدمات. والارسالية تحتاج مدرّسة. ستعمل ثيودورا بالمدرسة. حكمدار السودان محمد رؤوف باشا صديق لي. سنكون في رعايته. والخرطوم بلد جميلة.

لا يأتي من هؤلاء البرابرة خير.

الخرطوم جل سكانها من الأوربيين والمصريين وقليل من أهل البلاد الأصدقاء. الحياة فيها لا تختلف عن أي مدينة أوروبية. بها ذات الفضائل ونفس المعايب. الخرطوم أوروبا صغيرة.

لاسكارينا الحسناء أعانت الأب **بولس** في إقناع **أندرياس** القلق. ذكّرته أن بعض بني عمومتهم يقيمون في الخرطوم منذ أعوام طويلة.

جالية اليونان كانت الأكبر في الخرطوم. يعملون في تجارة البقالة، والملابس الجاهزة، وأدوات المائدة، واللحوم والخضروات، وتسليف النقود والتحويلات المالية.

أندرياس ما كان يجادل ليرفض. ففي نهاية الأمر لا يمكن عصيان رغبة الأب **بولس**. لكنه جادل ليطمئن. قلبه ظل ينطوي على جمرات خوف إلا أنه وافق.

نظر إلى ابنته الجالسة في الركن. يحسد نفسه أن أنجب هذا الملاك. هادئة كأنها ليست هناك. تلفها سكينة قديسين. تشبه أيقونات الكنائس. حتى ملامحها، رغم حسنها المنتمي إلى أمها، بها مسحة من صور الشهيدات.

لابد أن أمها تكلمت بلسان الرب حين اقترحت ارسالها إلى الكنيسة. يليق بها نور خدمة الرب. لا يعرف أية أفكار تعتمل داخل رأسها الجميل، ولا ما لا تقوله الشفتان الساخنتان. لكنه يرتاح إلى البهاء الكنسي الذي يكسوها.

الخرطوم ليست آخر العالم. ستكون قديسته بندقية الشعر بخير. هكذا خادعه الأمل.

- حسناً يا ثيودورا. ستذهبين إلى الخرطوم.

الثالث

1

عبر النيل شرقاً.

المعلومات التي جلبتها **مريسيلة** قبل أشهر دقيقة كتقارير جواسيس النصارى. استطاعت أن تعرف مكان كل صيد يطلبه بدقة. وجد الأربعة حيث أخبرته. وها هو في طريقه إلى الخامس. **الطاهر جبريل**، طريدته، نزل ببلدة **أبوحراز**، شمال ملتقى نهر الرهد ببحر النيل الأزرق، قبل ثمانية أشهر. قفل إليها من **القضارف** ليذوب وسط سكانها.

سينزل به الموت كما نزل بمن سبقه. تردد قليل أصابه قبل أسابيع بعد أن قتل **موسى الكلس**. يومها أحس انه ينتمي إلى هذا العالم. ربما هذا الوجود مكانه. يرق قلبه للبشر. تشعر روحه

بالخوف. يضطرب تفكيره بالناس. لكنه سريعاً عاد إلى عالمه. عالمها. ذلك الوجود الذي ليس فيه سواه و**حواء**. ربما يشم رائحة **مريسيلة** هناك. قد تراها **حواء** في عينيه. ستغار على عرشها في قلبه. لكنها ستقول له انها لا تهتم. من حقه أن يحب أخرى. ستحرضه، كاذبة، أن يحب. أن يتزوج فتاة سوداء مثله، تنتمي إلى عالمه. لكن كيف يقبل الدرويش ترك حلقة الذكر؟ انه فيها يتوحد مع الله. يذوب في المطلق. فيكون وجوده حقيقة. يرتفع من عالم الأشباح والصور إلى مدارج الجوهر الفرد.

لن أنزل من الجنة كأبي آدم.

نظر إلى السماء. رأى جماعات من العقبان تدور. تحلّق على ارتفاع منخفض وهي تصيح نقيضاً ثم تهوي منقضة خلف تبة بعيدة.

فكّر انها قد تكون جيفة. الخلاء هنا ملئ بالنعام. ربما كان صيداً.

ثنى **بخيت** حصانه ناحية التبة. نزل وادياً منخفضاً ثم صعد. وقف أعلى التبة ونظر.

العقبان تنهش أربع جثث ملقاه تحت الشمس. تقدم عجلاً وتناول بندقيته. أطلقها مرة فتشتت جمع الكواسر الجائم على الجثث.

أطلقها مرة ثانية فزعقت الطيور في السماء وهاجت. توتر متوقعاً أن تهاجمه. لكنها صيّحت ثم ولت مبتعدة.

انحدر مسرعاً نحو الجثث.

سمع **حواء** تصرخ به:

ماذا تفعل؟ انهم موتى.

هتف معتذراً:

أبحث عن أسلاب تركها من قتلوهم.

سمع صوتها تقول في اشمئزاز:

لكنهم موتى. ستسرقهم؟

لم يعقب. أنت لا تفهمين هذا العالم القاسي يا **حواء**. وصل إلى أولى الجثث. رجل جففته الشمس تماما. وثقبته العقبان. يرتدي جبة قذرة، مرقعة بشرائط من القطن ذي الألوان المتعددة. ميّز مع أثر العقبان نخر الرصاص. فتشه سريعاً. لم يترك قتلته شيئاً. حتى قدماه حافيتان. انتقل إلى الثاني. لا شئ. هو كسابقه. غير أن العقبان كانت أكثر رحمة به. لم تأكل سوى جزءاً من خده، ونهشت إصبعين. حين حرك الثالث عثر تحته على جراب جلد صغير. لونه كلون الرمال. ربما لهذا أفلت من القتلة. فتحه فوجد بعض ريالات.

فتّش الرابع فما عثر على شيء. لكنه رأى آثار قيود المكية مطبوعة على الجلد اليابس. ابتسم.

هذا رجل آخر نزل ضيفاً على سجن الساير. ربما لولا ما فعلته العقبان والشمس بملامحه لعرفه. قلة محظوظة من الناس من لم تنزل بالساير في السنوات الماضية. لقد عرف داخل السجن أضعاف من عرفهم في حياته خارجه. والتقى داخله بجل من عرفهم خارجه.

تسلق التبة. قرر أن يعسكر قليلاً. أهال شيئاً من رمل على الجثث؛ فكانت كدفن. ثم سحق بعض اللحم المجفف الذي ابتاعه من إحدى القرى. وأوقد النار لطهيه.

بينما يأكل سمعها تسأله:

كيف هو قتل الثأر يا بخيت؟

مسح شفتيه بظهر كفه.

كالحياة.

صمت هنيهة ثم شرح:

تحس القوة. تمتلئ بالحياة، وتطير. يصبح جسدك خفيفاً حتى توشك أن تحلّق. هو كخمر لم يصنعها بشر وما ذاقها لسان. نشوتها تحملني إلى النجوم. تحملني إليك.

أهو أحلى من الحب؟

انتفض **بخيت**.

هو الحب.

حين فرغ من الطعام تناول خنجره وقرّبه من صدره. أغمض عينيه. تشمم رائحة **حواء** المنعشة. قال مستغيثاً:

يا مهدي الله!

ثم غرس الخنجر في صدره.

2

في دفترها قرأ:

لا تحب بعنف لأنك ستتألم بعنف. لا تحب. كي تخرج سالماً لا لك ولا عليك.

3

الطاهر جبريل اسم عرفه كثر في أم درمان.

كان أحد مقاتلي قوات الملازمين التابعة لعثمان شيخ الدين ابن خليفة مهدي الله.. جاء مهاجراً إلى بقعة المهدي الطاهرة، أم درمان، بعد انتقال المهدي إلى السماء. لكنه شق طريقه مظهراً صدق الولاء. ففاق من سبقه إلى الدرب. ما كان غنيًّا، ولا له من الذكاء ما يشهره. لكنه عُرف بالاخلاص. كان إن بلغه أمر عن أميره سار عليه لا يلتفت. شعاره ودثاره قول الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾. وحكت عنه المدينة أنه وهو يتجهّز للخروج إلى جهادٍ قال له صاحب "كَتب الله لك السلامة"، فخاصمه إلى قاضي الإسلام محتجاً عليه أن المهدي ما طلب لأحبابه السلامة، بل أمرهم بالجهاد أو الاستشهاد.

حين وقعت الواقعة، وفر كل مؤمن عن مدينة المهدي بعد أن لوثها الغزاة خرج **الطاهر** إلى مدينة **القضارف** حيث زوجته الثالثة. لجأ إلى أهلها فآووه. بقي بينهم شهراً، ثم ضاقوا بخلافات زوجتيه مع ابنتهم فخيروه بين رحيله أو رحيلهن. غضب وطلقها لهم. ثم خرج بزوجتيه وعياله إلى **ابوحراز**. سكنها متهيئاً لانتقال يؤمن أنه واقع. وبقي يترقب بين بيته والمسجد أن يُحدث الله أمراً. وبعد ثمانية أشهر من الترقب أحدث الله له أمراً.

4

دخل **بخيت منديل** البلدة ملقى على الحصان.

كان يرتدي جبة قذرة، مرقعة بشرائط من القطن ذي الألوان المتعددة، تخرمها ثقوب كثيرة وتغطيها بقع دماء واسعة. على وجهه ورأسه تراب ورمل كمن بُعِث من قبر. تلقاه الناس بذهول لكنه لم يكن ينطق إلا ليردد اسماً واحداً.

أنزله الأهالي عن حصانه تحت شجرة. ثم حملوه مرة أخرى إلى بيت قريب. تداعى الناس من كل مكان وقد شدهم الفضول. لم يستطع أحد فحصه. كلما لمسوه أو ضجّوا قربه هاج وتشنّج جسده وأخذ في النداء بالاسم الأوحد الذي لا ينطق غيره.

الطاهر جبريل.

تذكر بعض أنه يعرف صاحب الاسم. وتطوع غير واحد بالبحث عنه. وجدوه في المسجد يقرأ القرآن. جاء **الطاهر**، الذي لا يعرف انه سيموت بعد يومين، يجري مذهولاً من الجريح الذي يطلبه. وقف على رأسه يغالب دهشته. لمّا فشل، كغيره، في استنطاق العبد أو فحصه أعلن أنه سينقله إلى منزله.

حُمِل **بخيت** وهو يتأوه، وجراح صدره تشكو صِدقاً سوء نقله. ساروا به زماناً قبل أن يضعوه على سرير خشب في بيت **الطاهر جبريل**.

ظلّ يشخر ويردد اسم **الطاهر** مشدوهاً حيناً وصارخاً أحياناً أخرى.

خلص مراقبوه إلى أنه مصاب أذهبت الصدمة عقله. ملّوا مراقبة هذيانه فخرجوا عنه. يسمعهم في فناء البيت يتبادلون الاستنتاجات. أكثرهم حيرة **الطاهر جبريل**.

يهذي ويصيح حتى انقضى اليوم. ثم أقبل الليل و**الطاهر جبريل** يدخل عليه كل حين متلصصاً ليجده على حاله من الصراخ والهمهمة باسمه. ما غفل**بخيت** ولا نام. يحرص أن يتقن دوره، ويخشى غفلة تكشف مكره.

قُرب الفجر أخذ صراخه يهدأ. وحين سمع **الطاهر** يتهيأ لصلاة الصبح بدأ ينادي:

ماء.

دخل عليه **الطاهر جبريل** بعد وقت. فتح **بخيت** عينيه ليراه. لكن الظلام كان بعد هناك. ما ميّز غير هيكله العملاق. كأول مرة رأه فيها. كرر في ذهول ليسمعه:

ماء.

هرع **الطاهر جبريل** يجلب له الماء فعبّ منه كثيراً. كان عطشاً بحق. شرب بشغف ثم تمدد على السرير. أغمض عينيه متماوتاً.

ناداه **الطاهر** أكثر من مرة، ثم حوقل وخرج عنه. سمع صوت مؤذن الفجر يدعو. ابتسم في ظلام الغرفة وقرر أن يحصل على قليل من النوم.

استيقظ ظهراً بيد تلمس صدره. فتح عينيه ليرى **الطاهر جبريل** لأول مرة في ضوء النهار. هو كما تخيله تماماً.

ضخم كبوابات سور أم درمان. في أواخر الثلاثينات، داكن البشرة. بأنفه فطس خفيف. لا لحية له، لكن شاربه يسيل إلى ذقنه. يرتدي جلباباً، تحته سروال واسع، وصندلاً جلدياً. على رأسه الضخم طاقية مطرزة يتدلى منها زر. حيّ كمن لن يموت. لكنه كان سيموت غداً.

حين ابتسم في وجه **بخيت** ضاقت عيناه وبرزت أسنانه المصفوفة.

حمداً لله على سلامتك.

أجابه متغابياً:

أريد الطاهر جبريل.

أنا الطاهر جبريل. أأنت بخير؟

أغمض عينيه في راحة.

وجدتك أخيراً.

سأله **الطاهر** بقلق:

من أنت؟

لكنه لم يجبه. إنه لا يذكره. كأنه ما حمّله ذنباً لا يغتفر. تظاهر بالنوم، انتظمت أنفاسه وخرجت ثقيلة من صدره. الوقت مبكر على جر الطريدة للفخ.

ادعى النوم حتى غلبته سِنة. أفاق منها على ضجة خافتة. نظر، فوجد **الطاهر** يضع قدحاً من طعام جواره. قام بفتور، فأسرع إليه **الطاهر** يعينه. تأوه إذ تحرك جرح صدره. نظر إلى القدح فوجده مليئاً بالعصيدة. شكر **الطاهر**. أكل، وشرب بعدها الكثير من النشا ليسترد عافيته التي يدعي فقدها. ثم أدخل عليه طريده الماء فاغتسل مكانه.

حين أوشك العصر على الذهاب كان مستعداً للحديث. أزال ما عليه من ملامح رهق. بعث من عينيه نظرة تجلّد. جلس **الطاهر** **جبريل** قربه على السرير. ضمتهما الغرفة الصغيرة المبنية بالطوب المحروق. سقفها عالٍ من الخشب.

قال له:

- هل يسمعنا أحد؟

الناس في الخارج ينتظرون خبرك.

اصرفهم، ما أحمله لك سر لا يطلع عليه غيرك.

تردد **الطاهر**. فقال له **بخيت**:

انما جئتك في شان الله.

قام عنه وخرج. سمعه يصرف الناس ويعدهم أن يلتقيهم في المسجد.

مَيّت يضرب موعداً.

ما أغفله.

أنا الموت يا جاهلي. عندي تنتهي المواعيد.

عاد إليه وأحكم غلق الباب.

جئتك رسولاً من الأبيض. أنصار الله يجتمعون. وخليفة مهدي الله ذكرك بالاسم.

شهق **الطاهر** فرحاً.

سيدي خليفة مهدي الله.

مدحك له الأمراء فطلبك.

الطاهر يرجف من فرح البشارة.

أعاقني لصوص أن أقدم عليك مبكراً. الآن ليس لدينا وقت للبقاء. هل تقدر أن تنطلق معي، سراً، بعد الغروب؟

لا شيء يؤخرني عن دعوة سيدي الخليفة.

سأله:

أين حصاني؟

سأجلبه، ومعه حصاني وبعض حاجيات. وننطلق حين تقدر.

أنا مثلك ما كنت لأتأخر عن دعوة سيدي الخليفة. اجلب الحصانين ولننطلق مع غروب الشمس. احمل لنا بعض الدقيق والسمن والتمر والماء. لا تُكثر فإني أخفيت بعض زادي تحت شجرة كاكموت وحيدة شرق البلدة، ولي رفاق سنلتقيهم على مسيرة أيام قليلة معهم كل ما نريد.

هل نحن كثير؟

ما يكفي لدحر الكفرة.

قفز **الطاهر** عجلاً. هرول يحفه فرح المؤمن. الجنة تدعوه. وسيد الخلق، خليفة مهدي الله، يذكره. أحضر **بخيت** ثياباً ظن أنها تناسبه. لكن **بخيت** حين جربها ضاع في ثناياها. تركها وعاد إلى جبته الممزقة. أخذ منها عمامة أحكمها على رأسه وترك طرفها منسدلاً على كتفه الأيسر. انتظر وقتاً قصيراً حتى عاد **الطاهر**

جبريل متهيئاً. قال معتذراً:

أخبرت زوجتيّ أني مسافر. وأوصيتهما أن تقصدا جاراً لي إن أحوجتهما الدنيا إلى شيء. لم أخالف بهذا سر خروجنا أليس كذلك؟

لم تفعل. لكن يحسن بنا المبادرة قبل أن تشيعا سرنا بطبع النساء.

بعد الغروب بدقائق تغطى **بخيت** ورفيقه **الطاهر** بستر الظلام الرقيق خروجاً من البلدة. قاده **الطاهر** عبر شوارع خالية وطرقات جانبية. يعبر **أبوحراز** للمرة الأخيرة. على أسطح البيوت تقف الغربان ترقب خروجه الذي لا عودة منه .لم يصادفهما إلا بعض نسوة يعبرن شارعاً فزعات. **بخيت** أحكم طرف عمامته المرسل على وجهه فلم تبد منه غير عينيه المتوثبتين.

حين تركا البيوت خلفهما سأل:

أين الطريق إلى شجرة الكاكموت التي حدثتك عنها؟

نحن في طريقنا إليها يا بشارة الخير.

سارا ساعتين تحت النجوم وقمر يجاهد السحب. رأى **بخيت** شبح الكاكموت يظهر أمامهما شامخاً. وصلا تحتها. نزل وهو يحكم قبضته على رسن حصانه. مال على الأرض نابشاً بيده الطليقة.

تراجع فزعاً وصاح:

يا مهدي الله!!

جفل **الطاهر** وهتف به:

ماذا هناك.

تراجع متوتراً.

انزل لتراه. ليحفظنا الله.

قفز **الطاهر** عن حصانه وهرع نحو جذع الشجرة الغليظ. مال على البقعة التي نبشها **بخيت**. ما رأى شيئاً. مد يده حذراً يتلمّس. لا شيء.

رفع رأسه عجباً وهتف برفيقه:

لا شيء هناك. مالك؟

سمعه يصرخ فيه:

وقعت أيها الكلب.

هجم عليه. ما ميّز شيئاً من الظلام والذهول. قيده بجسده، وتلقى ضرباته على وجهه ورأسه حتى نزف. أمسك **بخيت** رأسه وخبط به جزع الكاكموت مرات. شخر **الطاهر جبريل**. حاول أن ينهض بخصمه الجاثم فوقه. لكن قدماه ما أطاعتاه. تهاوى وهو يصرخ:

لا تقتلني! لا تقتلني!

وغاص وجهه في الرمل.

5

أنا الموت.

لا راد لي.

هل تنكرونني؟

6

أفاق **الطاهر جبريل** والشمس تلسعه.

حاول أن يعتدل فعرف أنه مقيّد. يداه مكبلتان بعمامته خلف ظهره. وقدماه تحته مثلهما. كان عارياً إلا من سروال قصير. سرّح بصره ما قدر. ملقى في وادٍ رملي بين تبتين. أمامه ما يبدو قبراً رملياً مرتجلاً تبرز منه قدم جافة ككسرة خبز. نادى:

يا أهل الله!!

لم يجبه أحد. عرقه يسيل على وجهه. يرفص بقدميه فيثير غباراً. يحاول عبثاً أن يجلس. يكرر النداء. الشمس تنخره بحرارتها. ينادي خائفاً:

يا أهل الله!!

يحس حركة خلفه. ينتفض خشية أن يهاجمه أحد ثانية. لكن **بخيت** يدور حوله حتى يقف أمامه. لا يرى منه سوى قدميه المفلطحتين، مشققتين كطمي جاف. يرفع بصره فترده الشمس.

من أنت؟

يمسك به **بخيت** من شعره فيقيمه على ركبتيه. يجلس أمامه.

هل عرفتني؟

لا أذكر. من أنت؟

يقطب **بخيت**.

هل تذكر حواء؟

لم يعرف **الطاهر** ما يقصد محدثه. هز رأسه قلقاً. ما كان يعرف الإجابة التي يظن أنها قد تطلق سراحه.

ذكّره **بخيت**:

عبد القيوم بن الشيخ إبراهيم الشواك. النعيم ود الحاج طه الدليل.

بصيص من ذكرى يلمع في عيني العملاق المكبّل.

كانت ليلة السابع والعشرين من رجب. هل تذكر؟

الكافرة.

صرخ **بخيت**:

حواء.

أنشب أظافره في وجهه وهو يصرخ:

قتلتها. أنت قتلتها أيها الكلب.

عوا **الطاهر** من الذعر. **بخيت** يخنقه وهو يصرخ باسمها. لكنه يتدارك نفسه قبل ان تنزف روح خصمه. كان مهتاجاً يسيل الزبد عن شفتيه.

كتلك الليلة. حين حكى له **النعيم** -

كان في بيت **إدريس النوباوي** يشرب المريسة. غاضباً على **حواء** وما قررته. يلعنها ويلعن **يونس ود جابر** عسكري الجهادية. بقي يسكر يوماً وليلتين. يبكي خيانتها. قام مع **الطاهر جبريل** مجبراً. ثم عاد إلى سكره. دخل عليه **النعيم** وهو لا يعي. حين أبلغه، مستخفاً، هاج. ليلتها رجفت المدينة، وصرخت معه النجوم.

أيتها السماء لأدكنّ بروجك.

سألتقط الكواكب وأرجم بها العالم.

سقط **الطاهر جبريل** على وجهه يبكي مذهولاً. وجلس **بخيت** يلهث جواره غضباً.

الطاهر يبكي متمتماً بما لم يتبينه. رفع عن الأرض وجهه. التراب يخرج من فمه إذ يتحدث.

﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾.

كان يرددها بلا توقف. تخرج مختلطة بدموعه. لم يرث له **بخيت**. ماذا تغني آيات الله اليوم.

جذبه من شاربه الضخم فانتبه له **الطاهر جبريل**.

قرّب وجهه منه، قال بوحشية:

أظن القاتل أن لن يقدر عليه أحد؟

الطاهر جبريل كان يتذكر جيداً الآن. كان يعرف انه سيدفع ثمن تلك الليلة.

لا مفر.

الرابع

1

لكمه بعنف. سقط **الطاهر جبريل** على ظهره يرجف. داس **بخيت** على عنقه بقدمه وصاح:

يا قاتل.

يلمع الخوف في عيني **الطاهر جبريل** كبرق عاصف. عيناه رطبتان بالدمع المحتقن.

ليغفر الله لي. ليغفر الله لي.

يوجعه **بخيت** بقدمه ويقول من بين أسنانه:

لا غفر الله لك. أنت قاتل.

لا رأفة بقاتل تخضبه الدماء. الدماء لا يسكنها إلا دم. ليس لقاتل

توبة. من يخرق أمان الله للنفس ليس له إلا العذاب.

ذبحه فارتاحا.

حز أولاً أصابعه بالسيف. واحداً بعد الأخر. يصرخ **الطاهر**:

يا الله!! خذ مني حتى ترضى.

قطع أصابعه واحداً بعد واحد. سال دمه حتى أغرق الأرض. ظل يهذي بلا توقف.. يستغفر متعثراً.. حتى بدأ يغيب عن الوعي حيناً ويفيق. لونه صار شاحباً. جسده يرجف. كلماته مختلطة غير مفهومة.

رماه **بخيت** على الأرض وجلس قربه يلهث. صب على جراحه الرمل الساخن. وحين بدأ يئن كبعير، ذبحه.

ترك الجثة مكانها وسط طوفان دماء لزجة. ملقاة على وجهها فوق الرمال. حولها تتناثر عشرة أصابع. أسرج الحصانين وأوشك على المغادرة حين أحاطوا به. همّ بانتزاع سيفه لكن رماحهم وضعت على عنقه.

وهو يرخي ذراعيه مستسلماً سمع الصوت يقول له:

عاهدت الله ومعلمي أن لا أفلتك. إن كنت هارباً فأنا القدر يا هذا. والقدر لا يُفلت صيده.

2

قيدوا يديه بالجنزير، وحول قدميه ربطوا حبلاً من ليف خشن.

ألقوه تحت شجرة الكاكموت ونزلوا يتفقدون ضحيته. سمع الصراخ المذهول. ما فعله كان وحشياً. حتى هو ما كان ليتحمل ما فعل لو لم يكن في سبيلها. حين كان يرى الإعدام في مشنقة السوق كان يرجع كأرنب صغير. يهرب من وحشية العالم إلى دفء حضورها. لكنه اليوم خلق جديد.

صعدوا إليه مرة أخرى.

وقف **الحسن الجريفاوي** أمامه. ينظر إليه.

قاتل معلمه وكافله. وجهاً لوجه، أمامه.

طار سوط الدم. وارتمى خطاً قانياً على الحائط

*لم يجد الشيخ **إبراهيم ود الشواك** وقتاً للدهشة. كان يتقدم ممتلئاً جداً بالحياة والأحلام حين تلقاه السيف بغتة.*

***بخيت** رفع السيف ثم هوى به على صدر الشيخ. ثم لوّح بيده مرة أخرى ونزل بالسيف على بطنه. ضربه ثمانية ضربات قبل أن يطعنه في صدره. حين جذب السيف إلى الوراء سقط الشيخ **إبراهيم** متفجراً بالدم.*

بلغت المطاردة، أخيراً، نهايتها. الجنزير يحيط باليدين الملوثتين بدم الشيخ **إبراهيم ود الشواك**.

طارد **الحسن الجريفاوي** القاتل لشهور بلا فتور.

من اليوم الذي سقط فيه الشيخ **إبراهيم** عاهد نفسه ألا يرتاح دون الثأر.

لما تصدع **ود الشواك** تحت ضربات **بخيت منديل** فزع **الحسن الجريفاوي**. هرول سريعاً عائداً إلى سيده. احتشد الناس حول الجثة. أما القاتل فامتطى ذهول الجموع وهرب.

أدركوه.

صرخ بعضهم.

جرى أناس خلفه. لكن **بخيت** سبقهم وأفلت.

جزعت المسلمية كأنه الموت الأول في التاريخ.

التاجر العجوز الذي له أفضال على كل شخص هنا. بأخلاقه الدمثه وحرصه على صلاة الجماعة ولين معشره. لماذا يُقتل في الشارع غيلةً. بكاه الرجال والنساء، فقراء ومستورون وعلية الناس، وحيطان المدينة وتضعضعت شوارعها الترابية.

أما **الحسن الجريفاوي** فامتلأ بالحنق. ولما كان الشيخ **ود الشواك**

يدخل قبره ملتفاً بأكفان المحبة وقف **الحسن** يقسم أن ينتقم.

جمع عبيداً واكترى دليلاً يتقفى به الأثر، وخرج يطلب **بخيت منديل**. دخل خلفه مدناً وبات بقرى. لا يهديه إليه سوى الدليل وما يقرأه من أثر على وجه الأرض وفي مر السحب.

وهاهي مسيرة الثأر توقع القاتل بين أيديهم.

شتمه أحدهم. حوّل **بخيت** نظره إليهم. تسعة مسلحون تبدو عليهم الشراسة. في أعينهم تعطش لدمه لا يخفى.

أمسك أحدهم جمته ورفع رأسه إلى أعلى.

ما اسمك يا عبد؟

أجاب بتحدٍ. تقدم **الحسن** إليه. جلس أمامه.

سنسألك بعض أسئلة. من الأفضل لك أن تجيب. رحمة بك.

مزّق أحدهم جلبابه من الخلف. رفع **الحسن** بصره ينظر إلى ماوراءه. دقائق من السكون ثم هوى السوط على ظهره ممزقاً لحمه، ليعلم ما ينتظره إن كابر.

لماذا اعتديت على الشيخ إبراهيم؟

أنا قتلته كما ينبغي له.

أراد **الحسن** أن يخزيه، فقال:

طاشت ضرباتك. واستنقذناه من الموت. سيعيش لينكّل بك.

ابتسم **بخيت** في استخفاف.

لقد ضربته بيقين لو نزل بجبل لنسفه يا ابن العرب.

لم يكابر **الحسن**.

- إلى أين تهرب؟ تقتل أكابر القوم وتظن أنك ستفر؟

أنا لست هارباً يا ابن العرب. أنا الموت. مني يهرب الناس.

تبادل الرجال النظرات. قذفوا لبعضهم ابتسامات متوترة.

قال قائل منهم:

العبد مجنون.

أراح **الحسن** كفه على الأرض ومال ناحيته. لسعته أنفاسه.

من أرسلك؟

ما أرسلني أحد.

فمن حرّضك على فعلتك؟

هل يشي بها؟ هل يقول لهم ما لن يفهموه؟

نظر في عيني **الحسن الجريفاوي** بتحد. قرأ فيهما تفاهماً تاماً. عينا **الحسن** مثله. بهما ذات الحيرة وذات الشوق.

سيخبره حكايته.

قال أحدهم:

فلنقتله هنا.

وافقه أكثر من واحد. لكن **الحسن** نهرهم.

ليس هذا لنا. سنرجع به إلى المسلمية. سنترك أمره للحكومة تقرر ما تفعله به. أو لعبد القيوم ابن الشيخ إن أتى.

كرر **بخيت** اسم **عبد القيوم**-وهو يبتسم. نظر إليه **الحسن** متسائلاً.

ستنتظرونه طويلاً.

لم يكن يشعر بالخوف. كان يشعر بالضيق. بقي له واحد. لم يدرك **يونس** بعد. أضاع فرصة قتله قبل أعوام في السجن. واليوم وقع في أيدي مطارديه قبل أن يدركه.

قال أحدهم:

لا فائدة من نقله. ليس لقاتل رحمة. فلنقتله الان.

ليس لقاتل رحمة. يعرف **الحسن الجريفاوي** ذلك جيداً. يعرفه العامان اللذان قضاهما هائماً في ذنبه. من يوم شهر سيفه في المتمة. النسوة يصرخن. الأطفال تمزقهم حوافر الخيول الرامحة. والرايات

تخفق في سماء المدينة. تطارده أشباحه. فهرب منها بشغل نفسه بالعمل وكيلاً للشيخ **إبراهيم ود الشواك.**

رجع **الحسن** إلى أم درمان من الشرق. يكلله غبار الجهاد. راضٍ كمؤمن يتقلّب في الجنة. لا عبادة تعدل ساعة ثبات في الصف. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾. لكن أم درمان حزينة. كالحة يجللها العناء. تتخبط في مشيها. تنحني في مجلسها. يعصف بها الخوف.

أين تلك المدينة التي أسسها مهدى الله واختارها مدفناً له. ما عاد فيها وهج الإيمان. لم يحبها. كرهها رغماً عنه. وتحرّق للخروج عنها. الظلم كما كرهه في كركوج. لكن قلبه يخشى أن يقول ذلك. إن شك في عدالة ما يرى فقد كفر. ألم يقل مهدي الله عليه السلام عن سيدي الخليفة "واعلموا أن جميع أفعاله وأحكامه محمولة على الصواب لأنه أوتي الحكمة وفصل الخطاب ولو كان حكمه على قتل نفس منكم أو سلب أموالكم. فلا تعترضوا عليه فقد حكمه الله فيكم ليطهركم ويزكيكم من خبائث الدنيا لتصفى قلوبكم وتقبلوا إلى ربكم. ومن تكلم في حقه ولو بالكلام النفسي جزماً فقد خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين، ويُخشى عليه من الموت على سوء الخاتمة والعياذ بالله"

يجهد أن ينكر قلبه ما تراه عيناه، يكذّب ما تسمعه أذناه. وحين

يمر عند مشنقة السوق يقول لحيرته:

العصاة نافذ فيهم أمر سيدي خليفة المهدي.

لكن قلبه، ذلك الذي أوصاه شيخه **سلمان ود حمد الدويحي** أن يتبعه، لا يهدأ. يصيح به أن يفر. يستغفر ربه. يبعث لشيخه المعذرة. ولا يفر.

واليوم بين يديه قاتل. لا يعرف ما يفعل به.

3

" *إنت يا شقي! في شان الله تلقى الدم. تخرج بالذنب فتلقاك يد الله بالراحة* "

4

لما جاءت به أمه للشيخ **سلمان ود حمد الدويحي** لم تطلب منه سوى شيئاً واحداً.

يا سيدي اسألك لوحيدي الحسن عمراً طويلاً كمجاري البحور.

تركته في مسيد الشيخ وذهبت. موهوب لله. ضمه الشيخ بمحبته. في سلك الصبية انخرط ليلقى الجنة.

الشيخ **سلمان** قال لأمه:

كله عند الله مكتوب. ومجرى البحور بقدر مسطور.

يحمل **الحسن الجريفاوي** لوح الكتابة ويجلس بين صبيان الفقرا. يهتز مرتلاً ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾. يبسم الشيخ **سلمان** فترفرف الملائكة على ثغره. يقول لهم:

هذه أشد آيات الله عسراً على قارئ. « قد مكر » الولد الضكر. من أحسنها له عندي قضيب سكر في جراية الأسبوع.

الحسن صبي شديد. له همة لا تفتر. أبكر الحضور إلى ساحة الحفظ. يكتب على لوحه بخط حسن مضلّع. حين ينام يرى نبي

الله الخضر. رجل ربعة وجهه بدر تمام. يشم منه ريحاً مثل ريح المسك الأذفر. يقوده من يده في زفّة خضراء. يوقفه عند بحر النيل. يريه في قبضته تراباً أحمر. يمسحه على ثوب **الحسن**. يصحو منتشياً فرحاً. كلما رآه حكى لشيخه **سلمان**. يبتسم. يمسح على رأسه ويقول:

يرحمك الله يا ولدي.

رفاقه يحنقهم حنوّ الشيخ **سلمان** عليه. حين يجلس لحفظ القرآن يصفعونه من الخلف. يتلفت فلا يعرف فاعلاً. كلهم منشغلون بألواحهم. يكمل القراءة. فيُصفع مرة أخرى. يصرخ ويهجم على كل من خلفه. يُسقط ثلاثة. يوسعهم عضا ولكماً. يتكاثر عليه الصبية في هيئة مفرّقين. لكنهم يضربونه خفية. يشده أحدهم من جلبابه القصير فيمزّق ظهره. يغرس آخر إصبعه في مؤخرته. يركلون ساقه فيسقط. يجرونه على التراب وهم يدعون الحجز بينه ومخاصميه. يهتفون:

صلوا على النبي. لا تضرب. لا تضرب.

لكنهم يسحلونه على الأرض حتى طرف الساحة. يلقونه جوار خرابة الغائط ويرجعون عدواً.

تحتشد عيناه بالدموع. يصمم على الإنتقام. لكن شيخه **سلمان**

ود حمد الدويحي يمسح عنه وسخ الأرض وغضب القلب. يقول له مبتسماً:

من فشّ غبينته يا ولدي خربت مدينته.

يهديه الشيخ **سلمان** جلباباً جديداً. يفرح به **الحسن** ويزهو. ويزيد به حنق صبية الفقرا.

5

يبحث عن لوحه ولا يجده. يهديه سوء الظن لتفتيش حاجيات رفاقه. يعثر به أسفل الفروة التي ينام عليها **حسونه**.

يرفع اللوح ويقول لزميله:

أنت لص.

يجيبه **حسونه** بوقاحه:

لست لصاً. قال خليل في المختصر "اللقطةُ مالٌ معلوم عرض للضياع. وإن كلباً وفرساً وحماراً". أنا لقيت لوحاً فأخذته.

- تعلم أنه لوحي.

يهز **حسونه** كتفيه مستخفاً.

أنت كلب وحمار وابن فرسة. فمالك لقطة كما قال خليل.

يضربه باللوح على رأسه، فيشجه ويحطّم اللوح. يصخب الصبية وتتعالى العركة.

حين خرج مع الصبية إلى بحر الدندر لجلب الماء، سار وحده خلفهم حاملاً جرّة فخّار. يتيحن من **حسونه** غفلةً. لم يخطط لذلك. لكن الغيظ في جوفه تعالى بخاره فجأة. انحنى **حسونه** على الماء. قفز **الحسن** راكباً ظهره ووقع به في جوف النهر. صرخ الغلام.

خصيمك الرسول.

أمسك رأسه وحشره في الموج. يضربه الصبية ويجرونه عبثاً. في جسده عزيمة جعلته كجبل سجدي. كتلة من الغرانيت الأحمر الصلب لا تهتز. يشهق **حسونه** تحت الماء وترتفع فقاعات الهواء. يقرقر الغلام في قبضته. حين أيقن **حسونه** أنه ميّت، وعرف الصبية أن الحسن قاتله فاستيأسوا رأوا الحمامة.

طارت بيضاء من لا مكان حتى نزلت على رأس **الحسن**. وقفت عليه مطمئنة كأنما تسكن إلى عشها. هدلت. ثم طارت إلى حيث أتت. خلفها طار غيظ **الحسن** وعزمه. وجد في قلبه سكينة وطمأنينة. أفلت خصمه وهوى جواره. جلس يغطيه الماء حتى

صدره. يلهث حائراً. رفع **حسونه** رأسه وشهق عميقاً يطلب الهواء. وقف صبيان الفقرا ذاهلين. وحين وجد **حسونه** صوته صاح:

أنت قاتل. أنت مجرم.

ثم قام يتخبط جرياً. تاركاً **الحسن** لحيرته.

يحبسه الشيخ **سلمان** في بيته.

هذا خير لك.

يبكي شاعراً الظلم. يشكو لشيخه. فيقول له:

ليس في الناس خير يا ولدي. وأنت شقي. هنا خير لك من معاشرة الفقرا.

يمسح دموعه ويقول مستبشراً:

ستكرمني بأن أخدمك يا سيدي؟

يضمه الشيخ **سلمان** في حنو ويقول:

أنت خادمي وابني. ولك في سيدي رسول الله وزيد بن حارثة أسوة.

يدخله الشيخ على حريمه. يصفه بالمولود الذكر الذي لم يمنحه . يعلّمه العزلة. يقول له:

قال رب العزة ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ يا ولدي إنما الناس شر فاتقهم ما استطعت.

الشيخ **سلمان ود حمد الدويحي** ياقوتة أهل الله. جمع العلم والعمل. والزهد في الدنيا والإنقباض عن أهلها. من أربعين عاماً ما نام الليل. يصلي ركعتين ركعتين حتى الصبح. ما قصد والياً ولا قبل راتباً. يقول لأتباعه الفقرا:

أبواب الحكام أبواب جهنم. ومال التُرك نقد الشيطان.

له حمار يعمل عليه **الحسن** في سوق **كركوج** لنقل البضاعة للتجار بأجر. وامرأته وبناته يخصفن السعف، يصنعن أطباقاً يبعنها. يرزقه ذلك قروشاً ينفقها على بيته وطلبته. ما له من ثراء الدنيا غير شاة يربطها إلى باب منزله.

شب **الحسن الجريفاوي** مع حمار شيخه. رفيقه كل يوم إلى سوق **كركوج**. يجره خلفه مسافة الميل الفاصل بين المسيد والمدينة. يكرم تجار السوق حمار الشيخ **سلمان** ففضله من فضل صاحبه. يخصون الحمار، ومعه **الحسن**، بالمشاوير الهيّنة ذات الأجر العالي. وإن تبوّل أمام دكان زار السرورُ صاحبه إذ هي بركة.

ينقل الفلفل والشمار والكزبرة للتجار. يمشي راجلاً لأنه من ثلاثة أعوام ينسى أن يسأل شيخه إذن ركوب الحمار. يخشى إن

فعل أن يكون متغولاً على أمانةٍ. يقول لنفسه أنه آخذ الإذن غداً. ثم ينسى في غده ولا يذكر إلا حين ينهكه التعب في الطريق إلى **كركوج**.

يقبض أجرة النقل مضاعفة ويعتذر عن دعوات الطعام. لا يشرب إلا الماء فلا شبهة حرام فيه. هو شركة بين المؤمنين. ويسعد التجار بتقواه فيضاعفون أجر النقل ضعف الضعف.

يسوء الحال كلما اجتاح عسكر الحكومة السوق. يحصّلون الجباية على بضائع التجار. ويقبضون ضريبة الدقنية ستين قرشاً عن كل رجل بالغ. يضطر **الحسن** أن ينقل على حمار شيخه النسوة القاصدات ضريح الشيخ محمد حجازي راجل **كركوج**. يربط إليه عربة ويحملهن على مضض. غاضاً بصره، مقلاً في الرد. ينقبض **الحسن** من نقل النساء ويتحاشاهن ما استطاع. حفظت شبابه وصاة شيخه **سلمان**.

يا جريفاوي النساء نعمة. يا جريفاوي النساء نقمة. أحب امرأتك فهي قرة العين. احذر المرأة فهي ضياع الدين.

امرأته التي يتمنى **فاطمة** بنت الشيخ **سلمان**. صبية ما جاوزت التاسعة من عمرها. فيها من أبيها حنوّه عليه. حفظت كتاب الله حتى جزء ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾. حين تتلو تتنزل الملائكة نُتَف نورٍ. تحمل إليه الطعام وتسأله عن مسائل الفقه وحواشي

خليل. يمنّي النفس خطبتها. ثم يتصبّر شهراً بعد شهر بلذة التمني.

حين أكلمت عامها الحادي عشر جرأ على ذكرها لشيخه. وعده خيراً وأجزله قبولاً، فتكاملت سعادة دنياه وسأل الله سعادة الآخرة.

6

ثالثهما السراج.

شيخه **سلمان ود حمد الدويحي** يضم عليه فركة من صوف يتقي زحف البرد يحكي له.

كنت مجاوراً سيدي الشيخ عبد المحمود. في ليلة سمعت منادياً أسمعه ولا أراه يقرأ ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾. ففتح الله عليّ. من ذلك الوقت ما سُئلت عن مسألة إلا ظهرت لي مثل الشمس.

يقول له:

يا حسن! إن صدق العبد ربه علّمه ورفع عنه الحُجُب. يا حسن كن فرداً منزوعاً عن ذاته تتحقق بجوهر المعرفة.

يسأل **الحسن**:

يا أبوي الشيخ. اسأل الله لي الجنة.

يقول الشيخ **سلمان**:

يا حسن! طريق الجنة التسليم. سيزرع الله في قلبك النور فلا تكذّبه. إن قال الله فلا تقل لا.

يا شيخي! الناس تقول افهم لتطيع.

يا حسن! الفقرا يقولون أطع لتنجو.

يطلب **الحسن** علماً.

يا أبوي الشيخ هل يملك العبد أمر ربه؟

يا حسن إن صدق العبدُ ربه ملّكه أمره وأمر غيره.

يحكي له:

شيخنا عووضة شكّال القارح قال لرجل من دنقلة اعطني مئة قرش للفقرا أعطك عمراً مئة عام. فقال الرجل، بُخلاً، "كُتب العلم وجفت الصحف. أنا أحفظ قروشي وأعطيك للفقرا إحد عشر قرشاً" فقال شيخنا "وأنا أعطيتك إحدى عشرة سنة" فمات ببخله في تمامها.

حين هجم عسكر الحكومة قبضوا **الحسن** في السوق. قالوا له:

ادفع جبايتك.

قال لهم:

هذه حمار سيدي الشيخ سلمان الدويحي.

يهيجهم الطمع، يفتشون الدكاكين ويتتبعون البيوت. جره التركي من قفاه. ضربه بسوطه.

بربري ابن كلب. حق الحكومة واجب على كل شخص.

أخذوا حصيلة يومه. رجع حزيناً وشفته تسيل دماً. شكى الظلمَ لشيخه. واساه:

فرجٌ من الله قريب.

تربّع على التراب. حانقاً يكاد يبكي.

أذّلوا عباد الله.

يا ولدي ينصر الله من ينصره.

ثم يخبره:

يقول شيخ العارفين ابن عربي "فاذا ظهر الأمر بمجمع البحرين ولاح السر لذي عينين قام سمي النبي وعن يمينه سمي الولي وذلك عند انعدام الخا من حروف الهجا".

يرسله إلى الغابة يحتطب. يفرغ حنقه في الشجر. يضرب الفأس مرات. يرجع وقد انفثأ غضبه. لا يفكر إلا في الظلم. إن ذل المؤمن وضل الإيمان فله عذر. أين عدلك يا رب؟ الترك جبابرة. نصرك الذي وعدت. ليس أهون من الإسلام اليوم. أليس من فرج؟

يستعيذ بالله. يدرأ بالإيمان شيطانه. يضع حمله عند باب الدار. يتوضأ ثم يحمل حطبه ويدخل. تلتقيه **فاطمة** في الفناء تنسج. يغض بصره وروحه تتذوّق حلاوة القرب. باتت تغطي شعرها. قَرُب استواؤها. وعد شيخه نافذ والزيجة محتومة. هي قرة العين وحصانة الدين. يجد لذعة الهوى في قلبه. ثم يحسها في كتفه. يفزع ويُسقط حمله. ألم ممض ينتزع صرخته. تفزع **فاطمة**. يكشف ثوبه عن كتفه فتسقط العقرب.

يهوي بقدمه عليها فيخطئها. تصرخ **فاطمة** فيهرع الشيخ **سلمان** إليهما.

عقرب يا أبوي الشيخ. عقرب.

يستعيذ الشيخ **سلمان** بالله من غضبه ويقوده إلى غرفة. يخلع جلبابه ويأمر **فاطمة** أن تأتيه بحجر السم. يضعه على اللدغ. يقرأ عليه عزيمة العقرب.

ليلاً لما أوجعته الحمى قال لشيخه إنه موصٍ. بسم الشيخ **سلمان**. قال له:

لا تجزع.

قال مسلّماً:

أنا هالك يا شيخي فدعني أوصي.

لا يروعك الضر يا ولدي. لا تموت هنا.

بعد أيام ثلاثة لم يمت. قهر الحمى واجتاز الهلاوس. فارق السم جسده وأكل عصيدة أعدتها **فاطمة**. قال لشيخه:

أنقذتني من الموت يا شيخي.

قال الشيخ:

ما أعجلك على الموت يا ولدي. كلما نزلت بك نازلة ظننتها الموت.

يستعيد عافيته. يهنأ بأيام تطبيب **فاطمة**. ويوم مولد النبي بشره شيخه:

يا ولدي زوجناك فاطمة فهيئ أمرك.

7

يا فاطمة يا فاطمة!!

قرة العين امرأة صالحة.

كأنه ما عاش قبلها. هل يعرف لذة الحياة إلا من تزوج؟

أين من حصيره الخشن وحيداً دفء أحضان حبيبته؟ عشرون عاماً ما عرف أن في الدنيا مثل هذا.

فردت شعرها على كتفيها. تتغطى بقرمصيص لامع. تفوح منها رائحة الجَلاد وماء الصندل.

يا حبيبة الروح يا **فاطمة**. نزلت به سكينة القلب وأوى إلى مودة ورحمة.

أمهرها مصحفاً خطه بيده وعشرة قروش ادخرها على عينه. واحتفل الفقرا بزيجته بالذكر والمدائح.

لما دخل عليها كان صوتهم يلحق به ينشدون:

يا ليلى ست الجنّة

من الجحيم الجُنّة

مشغوفك حَنَّ وجَنَّ

عوديه *ليلك* جَنَّ

قالت له:

الصلاة يا سيدي.

فأجاب فرحاً:

الصلاة يا حبيبتي.

صلّيا لله ركعتين هما آخر صلاة لهما لأربعين يوما تالية. ليس على العروس صلاة. فوقه الملائكة تظلله لأربعين يوماً وليلة. حين مد يده إليها قالت:

يا سيدي العهد.

أصغى إليها.

أخذتني بحق الله. والمرأة إن أطاعت زوجها فهي في الجنة. وخير الطاعة معونة على طاعة. فيا سيدي لا تجعلني حجزاً بينك ورضى ربك. ولا تنشغل بي عن أمر الله. إن رأيت مني فتنة لك عن دينك فأنا طالق.

عاهدها على ذلك. قام وأطفأ السراج. تحسس طريقه حتى وقع على جسدها الحار. ضمها إلى صدره. قبّل خدها. ثم ذاق منها هناءه.

8

"يا عبد قلبك في يدي قرب، قلبك بين يدي بعد.

يا عبد اقصد واطلب وإلا لم تثبت، فاذا قصدت وطلبت فقل يا رب بك قصدت وبك طلبت وبك ثبت.

يا عبد قد رأيتني في كل قلب فدل كل قلب عليّ ولا على ذكري لأخاطبه أنا فيهتدي، ولا تدله إلا عليّ فإنك إن لم تدله عليّ دللته على التيه فتاه عني وطلبتك به"

(أبو عبد الله النِّفَّري في مخاطباته)

9

الظلم عنوان الحياة.

كلما عاد من سوق **كركوج** كان أشد حزناً. يبث همه لزوجه فتطيب خاطره. يسأل شيخه فيعده نصر الله القريب. لكن قلبه لا يهدأ.

فجر التُرك في حكمهم. ينهبون مال المسلمين عياناً. يجلدون كرام الناس ويهينون الأعزة. في الإسبوع الماضي استوقفوا

حمارته وأخذوا قروش النسوة القاصدات ضريح الشيخ حجازي. وقف ذليلاً حتى فرغ عساكر الحكومة من نهبهم. ربت أحدهم على خده مداعباً وضحك. رجولته ناحت في صمت. عرف من النسوة أن كبير التجار جلدوه في السوق ثلاثمئة جلدة لأنه لم يقف حين مر العساكر. يسأل شيخه:

هل الترك مسلمون؟

منهم خليفة الله سلطان المسلمين. لكن المسلم بعمله لا صفته.

يعملون عمل الكفار يا أبوي الشيخ.

يقول الشيخ **سلمان**:

لله الأمر من قبل ومن بعد. فإن جاء أمره لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون.

جاء الشيخ **دفع الله المجذوب** يزور شيخه. فرح مسيد الشيخ **سلمان ود حمد الدويحي** بزيارة الوليّ الصالح. الأهالي جاءوا من كل شقوق الأرض يطلبون البركة. ضاق المسيد بالمئات، وزغردت النساء حين وقف الشيخ **دفع الله** يرش ماء وضوءه على الناس.

يسأل الشيخ **دفع الله**:

يا سيدي أظلمت بالجور الحياة.

لله الأمر من قبل ومن بعد يا ولدي. فإن جاء أمر الله لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون.

يقول حزيناً:

فمتى يقطع الله دابر القوم الظالمين؟

يبتسم الشيخ **دفع الله**.

وما يدريك لعله قريب؟ كيف بك إن كنت من جيش ينصر الله غداً؟

ما من شيء أحب إليّ من الشهادة.

اصبر يا ولدي. فلعلك تمشي تحت راية الله ثم تُحدث أمراً.

يحتج **الحسن**:

ما كنت لأحدث أمراً فيه غضب ربي.

إحذر الإيمان يا ولدي فمنه ما يهلك كالكفر.

يبتسم الشيخ **دفع الله**. يأخذه الحديث مع الشيخ **سلمان**. يقول له مداعباً:

اذبح لنا الشاة وأنا أهبك بها ولداً ذكراً من صلبك بدلاً عن ولادة البنات.

ينفض الشيخ **سلمان** يده.

ولد ما خصني به ربي لا آخذه منك بشاة. لو عزمت على ربي الذكر ما ردني. لكني أتأدب معه بأدب العبد وأقبل ما رزقني. وقد عوضني الحسن ابناً لي.

فاذبح لنا الشاة ضيافة.

الشاة لا أذبحها إلا بأمر ربي يا دفع الله. وضيافتك طعام الفقرا.

يأمر الشيخ **سلمان** بإطعام الناس. يقول **الحسن** ذاهلاً:

من أين لنا بما يكفي كل هؤلاء؟

يقول الشيخ **سلمان** في انبساط:

إنما نقول كما قال شيخنا الهميم:

أمسيت ضيف الله في قبر منزلي

فعلى الكريم كرامة الضيفان

يبتسم الشيخ **دفع الله** ويسأله:

ما مقدار ما عندك من طعام؟

شيء من الذرة إن كفى خمسة لم يكف ستة.

يقول الشيخ **دفع الله المجذوب**:

اطبخه و هاته.

يدخل **الحسن** إلى النساء ويأمرهن بإعداد الطعام. ينتظر متعجباً لكنه يقول لنفسه إن أولياء الله لا ينطقون عن هوى. بعد ساعة يحمل قدر الطعام ويدخل على الشيخين. يغمس الشيخ **دفع الله** يده في الطعام الحار. يكاد **الحسن** يحذره لكن نظرة الشيخ **سلمان** تمنعه. يراه يطمئنه. كأنما يقول له راقب. يتمتم الشيخ **دفع الله** بما لا يسمع. ثم يأمره أن يوزع من القدر على الناس. بعد أن أكل الجميع بقي في القدر نصفها أو أكثر. ما بقي أحد ما طعم. شبعوا جميعاً. فعاد بباقي الأكل إلى الشيخين.

قال الشيخ **دفع الله**:

يا ولدي الإيمان في قلبك لكنك تنكره.

تعلم **الحسن**، يومها،أن يطيع قلبه. بلغ الإيمان أن النور هناك إلا لمن تحاشاه.

يمسك الشيخ **دفع الله** يده في كفه الكريمة. ينظر في عينيه. بدت عليه حيرة. نظر إلى الشيخ **سلمان**. هز الشيخ رأسه موافقاً. سأله الشيخ **دفع الله المجذوب**:

- أنت تعرف؟

قال الشيخ **سلمان**:

أعرف.

ليكن ما أراد الله.

يهم **الحسن** بالسؤال. ثم يمسك. أهل الله لا يفصحون إلا عما يأذن الله لهم به. يعرف الشيخان عن غيبه ما يجهل. يكتفي بالسعادة التي يعيشها. قُرب الشيخ **سلمان الدويحي** ومودة **فاطمة** الحبيبة. يوجعه ظلم الترك لكن الله لن يترك عبيده هملاً.

يتقلب ليلاً. يصغي لحفيف أجنحة الملائكة من غرفة شيخه البعيدة. يهبطون بخبر السماء ويصعدون بدعاء الأرض طوال الليل. يمد يده يحتضن **فاطمة**. تستكين على صدره. يقبل شعرها المدهون. يسأل الله العدل. ثم ينام ليحلم بنبي الله الخضر.

10

مر عام على زيارة الشيخ **دفع الله المجذوب** وليّ الله الصالح.

فاطمة لا تحبل لكن **الحسن** لا يقلق. يرى في وجهها الحزن فيطمئنها.

لعله خير. ماذا يفعل طفل في عالم قبّحه الظلم؟ الصبر خير.

لكنها لا تهدأ. تسأل أباها الدعاء. فيهز رأسه ولا ينطق.

11

ينوب عن شيخه في تدريس الطلبة.

يجلسون أمامه يكتبون القرآن على ألواحهم بنوى التمر. كلما حفظوا رُبعاً محوه وكتبوا غيره. يبدأ الدرس عقب صلاة الصبح. فإذا صلوا الظهر أرسلهم إلى البحر لجلب الماء. ويخرج هو بحمار الشيخ وما خصفته النسوة إلى السوق. يرجع بعد المغيب مكدوداً وفي قلبه من الحزن طبقات.

قابل **حسونه** خصمه القديم. هش له وعانقه. غيره الزمن. صار بديناً كثير الدهن. يسأله عن حاله فيخبره ما صار إليه. يقول له:

من كان يظنك تصير شيخاً.

يقسّم الله الأرزاق.

بل هي بركة أبينا الشيخ سلمان اختصتك دوننا.

يسأله **الحسن** عن حال السوق والتجار. الكساد ظاهر والضيق بيّن.

يقول **حسونه**:

ما بقي في صندوق قرش. التُرك يأخذون كل شيء. والناس في ضيق.

أليس من فرج في الأفق؟

يوم الجمعة ضج الناس بعد الصلاة في مسجد السوق. خرجوا للطريق يصرخون: يا لطيف لم تزل، ألطف بنا فيما نزل.

لا الفقرا بيدهم شيء، ولا أهل الدنيا، التجار، يجدون نصرة.

يسأله **حسونه** عن زوجه.

هل أنجبت لك؟

ليس بعد.

تزوّج عليها.

فاطمة حبيبة الروح. لن يؤذيها بذلك. والولد، إن رُزقه، سيجلده التُرك، ففيم الحرص عليه؟

أمر الله نافذ يا حسونه.

ينظر في وجهه. يبتسم له:

عجيب أمرك يا رفيقي القديم. روحك تريد شيئاً وقلبك يستكين لشيء.

ما أصدق رفيقه المشاغب. علم ما يعتمل بجوفه من نظرة. لكنه لا يتعجل.

يسلّم لله أمره ويترقب.

12

ليلة لا ينام فيها.

كلما طلب النوم نزل بقلبه برد يهزه. قام يصلي عساه يطمئن. يستشعر السماء تدبر أمراً. حين يفرغ من صلاته يسمع أنفاس زوجه مضطربة. يناديها في الظلام:

فاطمة!!

نعم يا سيدي.

قلقة مثله لا تجد نوماً. يقول لها:

يا لها من ليلة!

الوقت صيف. والهواء خافت. يسمع الحمار ينهق. يستعيذ بالله. يقوم إلى النافذة. ينظر إلى السماء. يراها مصطفة بشهب هاوية. يشهق.

لا إله إلا الله.

تقوم **فاطمة** إلى جواره تنظر. النجوم تسقط في كل مكان. ترجم الشياطين. يردد قول الله ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾. يمد بصره ناحية حجرة شيخه. يرى النور الأبيض يكسوها. يرجع إلى فراشه. يخنقه الظلام.

أوقدي السراج يا فاطمة.

يسمع حركتها في الظلام. بعد برهة لمع اللهب. على الضوء الراقص شاهد جبين **فاطمة** يسيل عرقاً. مد يده فجذبها إليه. مسح عرقها بكفه. قبّلها ليطمئن بها. مسح بيده على ظهرها العاري. جسدها يرتعش. يسألها:

هل هي الحمى؟

تقول بصوت مضطرب:

في قلبي يا سيدي لا في جسدي.

لما سمع الأذان خُيّل له أن الكون كله يؤذّن. انتفض حين سمع تكبير الله. خرج إلى الصلاة. يقف في الصف الأول خلف شيخه. الفقرا خاشعون يجدون ما يجد. بعد أن سلّم جلس الشيخ **سلمان** صامتاً مولياً ظهره طلبته. غادر بعضهم وبقي بعض. لما أشرقت الشمس قام الشيخ **سلمان**. أمسكه من يده وسار به. قال له:

اذبح الشاة يا حسن.

انزعج **الحسن**.

لماذا يا أبوي الشيخ؟

اذبح الشاة يا حسن.

تركه في الفناء ودخل غرفته. انقلب **الحسن** إلى باب الدار. أطلق الشاة من قيدها وقادها إلى ركن قريب من المطبخ. أحضر سكيناً، وضعها على عنقها وتمتم مولياً القبلة:

بسم الله. الله أكبر.

ذبحها صامتة. لم تثغ ولم تهتز. كسر العنق. تركها تخر دمها. ثم جرّها إلى عارضة خشبية. علّقها وأحدث ثقباً بساقها. ألصق فمه ونفخ حتى صارت قربة ضخمة. شق بالسكين جلدها عند البطن. سلخها وقطّع لحمها مزعاً. جاء النسوة فحملن اللحم إلى المطبخ. ساعة الإفطار كان اللحم ناضجاً والمرق كثير. دخل يسأل شيخه،

فأمره أن يقسّم المرق واللحم على الفقرا.

وأنت يا أبوي الشيخ؟

هات لي كراعاً وبعض الخبز فقط.

انتقى أطيب كراع وحملها إلى شيخه. أمره أن يدعو من يجده خارجاً. وقف في الباب فرأى خمسة من الفقرا. ناداهم فدخلوا. جلسوا مع الشيخ يأكلون. أشار له بيده.

اجلس يا حسن وكل.

يطيع أمر شيخه. يجلس بين الآكلين ويتناول قطعة لحم. قبل أن يدخلها فمه قال الشيخ:

أتى أمر الله. ويل للظالمين. طوبى للفقرا المؤمنين.

توقف الآكلون. نظروا للشيخ في دهشة. رفع الشيخ **سلمان ود حمد الدويحي** الكراع المشوية وقال:

هذه الشاة تخبرني أن مهدي الله خرج.

الخامس

1

"عِنْدِي عَلَيْكَ: أَنَّكَ تَرَكْتَ مَحَبَّتَكَ الأُولَى"

(سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي 2: 4)

2

غادرت **ثيودورا إليفثيريوس** مدينة السويس في اليوم الأول من عام 1881.

كانت رفقة الأب **بولس**، ومعية راهبة أخرى، وبعثة كاثوليكية ضخمة. سفينتهم سارت في البحر الأحمر ثلاثة أيام. **ثيودورا**

سعيدة برحلتها. تحس أنها تبحر نحو رضا الرب. تشعر بحريتها لأول مرة. حين يرضى الرب عنك يمنحك حريةً. لا تخضع اليوم لمخاوف والدها، وقلقه من شفتيها الوحشيتين. شفتان حين تبجّل بهما الرب يعربد الشيطانُ في شرايين المؤمنين.

لما منحها للدير كان يُحكم قيداً فوق قيد محبته لها. وهناك أحسنت الأخوات وسم روحها بالخطيئة.

"الإنسان، يا **ثيودورا**، ابن الرب. لكنه أحزن أباه أنه صنعه. ما تحبه نفوسنا شر كله. لأن الإنسان جُبِل على محبة الخطيئة"

في السفينة، في ذات القمرة، شاركتها الأخت **دروتا** أشواقها لخدمة الرب في بلاد البرابرة، السودان.

في السفينة، في ذات القمرة، شاركتها الأخت **دروتا** الحزن على خطيئة الإنسان، ابن الرب.

في السفينة، في ذات القمرة، أخفت عن الأخت **دروتا** ذكرى **غيورغيوس** الذي احتضن بشفتيه شفتيها وهي بعد في الثالثة عشرة من عمرها فأورثها رعشة لم تفارقها حتى ساعة المناولة.

الأسر كانت فرحة تحتفل بالعام الجديد في نادي محمد علي حين غافلها **غيورغيوس** بذكورته ونال من شفتيها الشهيتين. أمها، **لاسكارينا** الحسناء، رأت على شفتيها خطوات شفتي ابن بائع

الزيتون المخلل. حدثتها ذلك اليوم عن الرجال. ألاعيبهم، أكاذيبهم، ومفاتيح الشيطان التي يخفونها في سراويلهم.

عرفت **ثيودورا** أن ما تحسه من رعشة إنما هو فعل الشيطان. ثم، بعد عامين، آمنت في بيت الرب أنها تلوثت.

ناءت بالذنب روحها. لكن قلبها ظل يرقص لذكرى الخطيئة.

ما أضيع الإنسان بين الرب وشفتي غيورغيوس القاسيتين.

أخفت ذكرى نشوتها تحت المسوح. قضت عامين، في بيت الرب، أسيرة خطيئتها.

اليوم، وهي تشق البحر من السويس جنوبا إلى بلاد السودان، تهفو إلى الحرية. في بلاد ليس فيها **غيورغيوس**، ولا شفتاه.

قال لها وهو يدخل بها درب الرعشة:

أيتها الطفلة النارية، شفتاك من نبيذ الشياطين.

لكن **بخيت منديل** سيسألها يوماً في ظلام مقارب:

من أي مرمر نحتتك الملائكة؟

وفي قلبها كلمات القديسة تريزا في مذكرات نشوتها:

"الألم كانَ عظيماً جداً، إلى درجةٍ جعلتني أبدأ بالأنين، ورغم ذلك كانت اللذة التي أجدها في الألم فوقَ الوصف، إلى درجةٍ

جعلتني أتمنى ألا أتخلصَ منه. الروح الآن لا يشبعها إلا الله"

تفر من كل هذا إلى خدمة الرب في الخرطوم. حيث يحتاجها الخاطئون الأرثوذكس من تجار البقالة، والملابس الجاهزة، وأدوات المائدة، واللحوم والخضروات إلى خدماتها. فقط بين هؤلاء، في بلاد بربرية، تصبح قديسة.

في الإسكندرية كانت أسيرة الرب لخطيئتها، لكنها تنعتق لتصبح خادمة الرب، في الخرطوم.

فالروح الآن لا يشبعها إلا الله.

3

تقاربت، في الأيام الثلاثة، من الأخت **دروتا**.

عرفتها أول مرة في السويس حين قدمها الأب **بولس**. جاءت من القاهرة الصاخبة. مدينة الخديو. تماثلها في العمر. سبعة عشر عاماً. وتقاربها في البياض المشرق كأنها دفقة هاربة من نور الصباح. لكن **دروتا**، على عكسها، ملمة بأحوال السياسة. تعرف ما يعصف بمصر، وأخبار ما يحاك في السرايا، وصراعات الساسة. وعكسها مرحة كهرة. مثلها تعتبر نفسها مصرية، تمجد الرب أن

خلقها بيضاء. تشفق على من شوههم بالسواد. لم تكن منعزلة عن أهل مصر كثيودورا. لم يحطها أهلها بشرنقة ناعمة تعيش داخلها، وما كان أنيسها البحر وحده. تُكثر **دروتا** الثناء على المصريين فتعجب **ثيودورا**. تحكي عن قصصهم وطرائفهم فتدهش **ثيودورا**. تضحك من قلبها لا تكبلها خطيئة فتحار **ثيودورا**. ثم تنتهيان إلى التفكر في بلاد السودان التي يقصدانها، فيصمتان. بقعة من ظلام لا يعرفان عنها شيئاً يذكر.

تلجآن إلى الأب **بولس**. يجالس القساوسة الكاثوليك. معه الأسقف كمبوني والأب أوفالدر والأب فرانز والأب جوهانس. يلبسون، في كل أوقاتهم، أردية بيضاء ناصعة وعلى صدورهم صلبان ضخمة. يسألانه عن الخرطوم.

يحكي لهما عن المدينة التي أنشأها خورشيد باشا قبل خمسين عاماً لتصبح عاصمة بديلة لمدينة مدني. منها يبدأ النيل. ذلك الذي ذكره الرب في سفر إشعياء "اجتازي أرضك كالنيل يا بنت ترشيش. ليس حصر فيما بعد"

ثيودورا تعرف النيل. لكن الأب **بولس** يخبرها إن النيل في الخرطوم يختلف عن ذلك الذي تعهد.

إنه نيل وحشي. بكر كما صنعته يد الرب. متحمس، ذو عنفوان، لم تهزمه المشاوير كنيل مصر.

ثيودورا تسأل باهتمام:

هل رائحة السود قبيحة كلون بشرتهم؟

يذكّرها الأب **بولس** خبر أبناء نوح.

حام دعاه أبوه عبداً لاخوته، وأبناءه عبيداً لأبنائهم. لكن نحن نحمل كلمة الرب لهم. فكلما أحببناهم أحبنا الرب.

دروتا أخبرتها ليلاً في القمرة:

رائحتهم قبيحة عطنة. رائحة ثقيلة كفاكهة عفنة. أمّا عرقهم فسام.

ثم تضيف حالمة:

ليس فيهم سحر المصريين ولطفهم.

دروتا رأت بعضهم عسكراً في القاهرة.

أمها، **لاسكارينا** الحسناء، قالت لها وهي تقرأ خطابات الأقارب والمعارف من الخرطوم لتعلّمها منها ما ستقدم عليه:

طبعهم الغدر. متوحشون، لكنهم كحيوانات المزرعة. فكوني أنت الراعي لخراف الرب السوداء.

أين يكون الرب إن لم يكن في تلك البلاد المخيفة؟

الأب **بولس** يطمئنها كلما أبدت خشية:

الخرطوم، حيث نقصد، أوروبا صغيرة.

4

نزلوا بميناء سواكن في يومهم الرابع.

أعظم مدن الساحل الغربي للبحر وأقدمها. تمشي **ثيودورا** وسط رفاقها وهي دَهِشة. مدينة عربية عتيقة، مبانيها أشبه بخيالاتها عن الليالي العربية، ألف ليلة وليلة. بيوت من طابقين أو ثلاثة، من حجر مرجان كلسي، مستخرج من قعر البحر. وعلى الشوارع الضيقة تطل الشرفات الخشبية. ربما خلفها تنام شهرزاد تحلم.

يمشون في الشوارع الضيقة بين أخلاط من البشر. فيهم أتراك، مصريون كثر، وأوروبيون يبدون كأفاقين.

أما الأهالي فسود، جلودهم غليظة.

الهواء رطب مشبّع بالملح. ينضح ببرودة خفيفة. والسماء مثقلة بالسحب توشك أن تسقط على البيوت.

استضافهم حاكم المدينة وأكرمهم. أنزلهم باستراحة الضيوف

قرب الديوان. واحتفى بهم علية القوم في المدينة من الأتراك والأوروبيين. اعتبروهم إضافة إلى رسالة الحضارة التي تنحت في صمّ بربرية البلاد.

ثيودورا أحبت الوقوف، في الطابق الثاني، خلف النوافذ الخشبية المنحوتة تراقب المارة السود كخنافس نشطة يجوبون الشوارع.

رجال يرتدون شقة من الدمور بلا سراويل، يسيرون حفاة، تفوح من شعورهم الخشنة الثائرة رائحة زيت الخروع. أمّا النساء فرأتهم في مطبخ الاستراحة بشعور مجدولة، متحليات بالأساور والحجول والخلاخل والعقود. الشمس ساطعة في المدينة الأسطورية،رغم السحب الثقيلة، لكن **ثيودورا** تحس الظلام يشع من سواد البشر.

صلّت للرب ألا يمتحن قلبها بالكبر.

مؤمنة أنهم خراف الرب السوداء الضالة، لكن الراعي عليه أن يتواضع. فشغلت نفسها بمغالبة الوحشة التي أحستها. وأعجبها أن النسوة السود تحلقن حولها و**دروتا** ومن معهن من الأخوات يختبرن شعورهن الصهباء وثيابهن السابغة النظيفة في إعجاب.

تفكر **ثيودورا** أن رائحتهن ليست سيئة، لكنها غريبة.

قبلت دعوة النسوة إلى المطبخ فرأتهن يسكبن، على الأرض، ثلث ما يطبخن وجلات. سألت عن ذلك فأخبرنها أنهن يقدمن الطعام

للجن قرباناً ألا يُفسده على الآكلين. قال لها الأب **بولس**:

سواكن بناها نبي الله سليمان. حسبما يدعي أهلها.

أرهق عصاة الجن سليمان بن داوود؛ فأرسلهم مكبلين إلى ذلك المكان. وأمر جنده من الجن المطيع فشادوا مدينة حصينة، أسوارها مرصودة. حبس النبي العصاة في المدينة وأسماها "سواجن"

يقول الأب **بولس**:

حين غلب البشر الجان على سكناها غيّروا اسمها إلى سواكن.

يحكي لها أن سليمان بن داوود ولد من بلقيس ابناً خاف عليه الأعداء. اسمه سبأ كمُلك أمه. بعثه إلى بلاد السودان. فبنى بها مدينة بإسمه. ثم جعل الناس اسمها "سوبا"

يرهب أهالي سواكن القطط، فهي جن عندهم. لا يريقون الماء المغلي خوفاً أن يصيب المخلوقات التي لا يرونها. وعند المغرب يرفضون التحرك حتى يستقر الظلام في كل ركن من الدنيا، كي لا يزاحموا الجن في خروجه.

تحفظ **ثيودورا** كل ذلك وتكتبه في خطابها الأول لأمها. تسألها عن حالها بعيدة عنها في الأيام الفائته. ترسل سلامها لأخويها، وقبلات التوقير ليد والدها الغليظة الممتلئة. تبثها الشوق والفرح أنها اقتربت من الوصول إلى الخرطوم حيث ستخدم الرب.

ترفع **دروتا** رأسها وتنظر إليها تكتب بشغف. تقول متعجبة:

متى اشتقتهم حتى تبعثي بخطاب؟

أوصتني أمي أن أكتب كلما وجدت سبيلاً.

تضحك **دروتا**:

طبعاً! فأنت الابنة الوحيدة المدللة. قرة عين أمها. أما أنا فثالثة ست أخوات، مع أربعة إخوة.

تنهض جالسة على فراشها وقد قررت تأجيل النوم لتثرثر مع **ثيودورا**:

أخي الأوسط يحب فتاة مصرية، أبوها يخدم في السرايا. حلوة كخبر مفرح. لكنها مسلمة. هي لا تهتم بذلك كثيراً. لكن المسلمين، تعرفين، يغضبون لهذه الأشياء. أمها تركية متعالية. لكنها سعيدة بعلاقة ابنتها بأخي. تراه خير من المصريين. أمي تقول إن أخي سيصبح مسلماً لأجل أن يتزوجها.

سيترك دين المسيح لأجل فتاة؟

إنه الحب يا ثيودورا. لكن ليست تلك هي المشكلة. أبي هو المشكلة.

والد **دروتا** طبيب متواضع الشهرة في قاهرة الخديو. لكنه معتد بمكانته ودينه.

أبي لن يوافق ما لم يؤمن أن في تلك الزيجة مصلحة لمكانته.

تسمع **ثيودورا** الحكاية وتضيفها، دون وعي، إلى حصيلة أخبار الخطاب الذي تكتبه.

تُنزل **دروتا** قدميها عن الفراش. تنهض. تمشي في الحجرة الواسعة. تتأمل السقف الخشبي. تتجه إلى الشباك ترقب المدينة النائمة.

هل تظنين هذه البلاد تحتاجنا؟

ترمق **ثيودورا** ظهر صاحبتها، تمشي بأناملها على الصليب الفضي الصغير الراقد على صدرها:

كل الناس تحتاج كلمة الرب.

إن كانت الخرطوم تشبه هذه المدينة فسأموت قبل أن ينتفع بكلمة الرب أحد.

الأب بولس يقول إن الخرطوم مختلفة.

تمد **دروتا** بصرها إلى الأفق الأسود. لا تكاد تميز شيئاً. لكن

رائحة الملح تصلها في مكانها محملة بالرؤى. تحاول مد بصرها شمالاً لعلها ترى مقام الشيخ برغوت، الذي يحييه البحارة اذا مروا به، لكنها لا تراه.

عامان في هذه البلاد ليس وقتاً قليلاً.

تقول **ثيودورا** في ثقة:

سيمران بسرعة. وحين نرجع إلى مصر سيكون لنا ذكريات كثيرة وقصص نرويها للجميع.

تحلم **دروتا**:

لقد اشتقت مصر من الآن.

تضحك **ثيودورا** ضحكة خافتة مقتضبة:

متى فارقتها حتى تشتاقي لها؟

تلتفت **دروتا** لترد على عبث صاحبتها:

ربما هي عدوى منك.

تنظر إلى خطاب **ثيودورا** المبسوط بين يديها. تهتف:

عندي فكرة. اكتبي لأهلك دائماً. وحين ترجعين اجمعي رسائلك في كتاب.

كتاب عن ماذا؟

- كتاب فيه رسائلك من بلاد السودان. تخيلي معي هذا. رسائل معلّمة في بلاد السودان. يا للروعة.

تقطب **ثيودورا**.

هذا فعل لا يليق ببنات الأسر. ثم من سيقرأ كتاباً كهذا في مصر؟

تقفز **دروتا** عبر الحجرة سعيدة بفكرتها.

لا تكتبيه لمصر. أنت تجيدين الانجليزية؟ اكتبيه بالإنجليزية وانشريه في لندن. سيكون كتاباً عظيماً.

أنت مجنونة. النساء لا يكتبن الكتب.

ترجع **دروتا** إلى فراشها.

أنا لست مجنونة. المجنونة هي أنت. لو كان لي صبر على كتابة الرسائل لفعلتها أنا.

تفكر لبرهة ثم تضيف في حسرة:

لكن لعل فكرتي حقاً لا تصلح. فهذه البلاد الساكنة لا يبدو فيها ما يشد القارئ. ربما لو كنا ذهبنا إلى الحبشة.

- الحبشة؟ دروتا!!

نعم.

ربما من الأفضل أن تنامي. ستتحرك قافلتنا باكراً. وخيالك سيبعدنا عن الخرطوم كثيراً.

تغمغم **دروتا** محتجة، لكن **ثيودورا** تطوي خطابها وتنهض إلى المصباح فتطفئ شعلته. ينفجر الظلام في الحجرة كصرخة عالية. تتحرك نحو فراشها حذرةً في الظلام. تسمع صاحبتها تتلو صلاة فتحمد لها أنها استسلمت وقررت أن تنام. لكنها وهي تسحب الغطاء عليها سمعت **دروتا** تقول لها:

صليت للرب أن يحدث في عامينا هذين ما يثير حتّى يصبح كتابك مشوقاً.

5

"فِي الْعَالَمِ سَيَكُون لَكُمْ ضِيقٌ، وَلكِنْ ثِقوا: أَنَا قَدْ غَلَبْتُ الْعَالَمَ"

(إنجيل يوحنا 16: 33)

6

ثيودورا تعيش حلماً.

تخرج فجراً، تحفها أصوات الآذان من مسجدي سواكن، في قافلة من الإبل.

كأنها شهرزاد تسافر من بغداد الليالي العربية. يتمايل بها جمل بشاريّ، خفيف الحركة، لين الظهر، له خزام في أنفه كشكيمة الفرس. يهتز صليبها الفضي الصغير على صدرها المكتنز. الصحراء تنظر إليهم. النهار يطلع من قلب الأرض ليتسلّق السماء.

قافلة من واحد وعشرين جملاً، يركبها المبشرون وثلاثة خدم وقائد القافلة **عيسى** ودليلان، وخمسة جياد للحرس تفارق غباش البحر أمام سواكن لتنغرس في عروق الصحراء خلفها.

قائد القافله والدليلان حاسرو الرؤوس، لهم شعر طويل مدهون، يلف كل واحد منهم على جسده قطعة واحدة من القماش حائل اللون. أحد الدليلين يحمل رمحاً ودرقة. الحرس الخمسة شديدو السواد يرتدي قائدهم جلباباً أزرق وصندلاً وعلى رأسه طربوش تركي بزر طويل. أما بقيتهم فيرتدون القمصان القصيرة التي تنتهي أسفل الركبة ويتمنطقون بسيوفهم الحادة.

تنظر إليهم **ثيودورا** من مكانها أعلى الجمل فتفكر إنها كأميرة

عباسية تسافر بين بغداد والكرخ.ربما هي ابنة خليفة مسلم، يسافرون بها عروساً إلى ملك عظيم يتزوجها. ما رأت صحراء كهذه. إنما قرأت عنها في الكتب. وهي أعظم من كل خيالاتها.

يسيرون لساعات. يحاذيها أحد الحرس بجواده. تلقي عليه نظرة سريعة. شاب قوي البنية. مشدود الجسد. أسود ككحل العين. رأسه مستدير وشعره أكرت خفيف. تلمح تحت عينيه ندوباً صغيرة. ربما كان أكبر منها بسنتين أو ثلاث. لكنه واثق من نفسه ممتلئ حزماً، فهو في أرضه. على عكسها هي اليونانية المصرية البيضاء. حضرية لم تر هذا البراح إلا في البحر المتوسط عند حافة الإسكندرية. تلتفت إلى **دروتا** التي تتشبث على جملها قريباً منها فتراها تعيش ذات انبهارها. وربما ذات الحلم.

يفزع من تحت جملها أرنب مكتنز. تلمحه وهلة يتعثر مثيراً الغبار قبل أن يختفي فجاة. يناديها الحارس من أسفل قائلاً:

هذا أرنب بري. كثير هو في هذه الصحراء وسنلقاه في طريقنا دوماً.

تحني رأسها وتتشبث بقربوس سرجها.

هل هناك حيوانات كثيرة هنا؟

يضحك الحارس. لهجته ليست عسيرة كبقية من سمعتهم يتحدثون

من أهل البلاد. ينطق العربية بكثير كلمات مصرية وبعض نطق تركي.

هذه صحراء. ستجدين بها كثيراً من الحيوانات. سترين الضباع، البقر الوحشي، والغزلان

تستشعر إثارة عظيمة. ما أبدع خلق الرب.

حين خيموا أمر قائد الحرس اثنين منهما فانطلقا مبتعدين. اقترب القائد من المبشرين المتهالكين من رحلة اليوم الأول. ابتسم عن فم خالٍ من الاسنان. تكلم بفخر وهو يضرب بكفه على صدره. **ثيودورا** لم تفهم ما قاله. سألت الأب **بولس** الذي هز كتفيه محتاراً. قال الأب **جوهانس**.

يقول إن الحارسين الذين ذهبا هما ابناه.

يقول الأب **بولس**:

يفخرون هنا بكثرة الذرية. كلما كثر أولادك وكانوا عوناً لك كان ذلك مدعاة للفخر.

تهمس **دروتا**:

أبي كان سيصبح ديكاً فخوراً في بلاد كهذه.

تسير النساء متماسكات مبتعدات عن القافلة. يستترن بشجيرات

العُشَر ليقضين حاجتهن. **ثيودورا** خائفة من الظلام الوشيك. وبرد الصحراء يشمشم ساقيها متشوقاً لعضها. تناديها **دروتا**:

هل تصدقين؟ نحن نتغوط في الصحراء.

تصلها غمغمة معترضة من إحدى الأخوات الكاثوليك. لكن **دروتا** لا تهتم:

هل تعتقدين أن هناك فرصة ليرانا جن هنا ويعشقنا؟ يحكون عن هذه البلاد أن في كل ظل جاناً مختبئ.

الرب يحفظنا يا دروتا.

ينتهين واحدة بعد الأخرى ويجتمعن عائدات. الأخوات الكاثوليكيات سبع. ثلاث منهن شمطاوات يعشن منذ الأزل. واحدة تماثل **ثيودورا** و**دروتا** العمر. وثلاث نساء نصف خمسٌ منهن لم تكن تلك زيارتهن الأولى لبلاد السودان. لذلك كان كل ما يمرون به سخيفاً معاداً ليس فيه ما يبهر.

جسد **ثيودورا** يرجف كله بالوجع. فخذاها ينبضان ولا تكاد تقوى على الوقوف. حين بلغن المخيم وجدن الحراس قد نصبوا خياماً تسع. الحارسان، اللذان ذهبا، عادا يحملان غزالاً ينزف دماً، لكنه بعد حيّ. أحدهما كان الحارس الذي تحدث إليها. توجهت نحوه مستفسرة. أخبرها فخوراً أنهم اصطادوه لطعامهم. بُهتت. تفاخر

يحكي لها كيف يصطادون الغزلان:

نهيج أسرابه، ثم نطارد واحداً منها. نظل ندور حوله حتى نجهده جرياً. وحين يكبو نصيبه بالسيف في فخذه كي لا يجري مرة أخرى.

تنظر إلى الغزال الراجف. عيناه جاحظتان رعباً. حنجرته تضطرب. وخفقان قلبه الصغير بادٍ رغم الظلام الباهت.

ترجع جزعة، تترنح تعباً، إلى رفيقاتها. يدلها الأب **بولس** إلى خيمتها. يقول لها:

ستكون معك دروتا وهورتنسيا.

هورتنسيا الأخت الكاثوليكية التي تماثلهما عمراً. من النمسا. طوال رحلة الباخرة أحست **ثيودورا** أنها متعالية سمجة.

تدخل إلى الخيمة السوداء المصنوعة من الشعر. تجدها فارغة. تزيح غطاء رأسها فيندلق شعرها البندقي. يسيل على عنقها وكتفيها. تخلع حذاءها الجلدي ذا الرقبة، تلقي جوربها بعيداً، وتنبض أصابع قدمها ببهجة. ترتمي على الأرض بلا اهتمام. فالجهد قد فتت قواها.

تغمض عينيها. ما أحلى التعب في سبيل الرب.

ابنة موظف البوستة، **أندرياس إليفثيريوس** اليوناني، التي ولدت

وعاشت مدللة جارة للمتوسط تقضي حاجتها في صحراء بلاد السودان ثم تنام على الأرض. أبانا الذي في السماء امنحها القوة. بندقية الشعر التي كانت إحدى المرتلات في جوقة الكنيسة مرهقة من ركوب جمل بشاري في الطريق من سواكن إلى بربر.

مرتلات الكنيسة كلهن عذراوات صغيرات. لكن لا واحدة منهن كانت مثل **ثيودورا** في الجمال.

كانت تخرج من بيتهم، خلف نادي محمد علي، تسير إلى بداية الطريق ثم تنحرف موازية البحر شرقاً. تمشي مسافة دقائق قبل أن تصل إلى الكنيسة. تدخلها فتحس بأمان بيتها. هنا ينتظرها الرب لتنال في عينه نعمة. يحبها الأب **بولس** ويرعاها كابنة من صلبه. لا تخبره، ولا تخبر أباها، أنها في مسيرها كل يوم يتعرّض لها أصحاب المحلات وسائقو العربات وباعة الفاكهة السرّيحة والأفندية والصيادون ونسيم البحر. تسمع كلمات الغزل وعبارات المديح دون أن ترفع عن الأرض عينيها. لا تنظر إلا إلى موطئ قدمها. أما حين توشك على مفارقة طريق البحر فإنها ترسل نظرة عشق إلى موج المتوسط الذي تهوى. تلمح، سريعاً، زبد الموج يتطاول إليها. تسمع بوح البحر ينادي اسمها. تبسم في دلال ثم توليه ظهرها. الحياة حلوة شهية، لولا أن الشيطان لوثها بالخطيئة.

تدخل عليها **دروتا** هائجة كريح.

تعالي بسرعة سيذبحون الغزال.

تهب مذعورة. تلتقط خمارها، تلفه على رأسها كيفما اتفق. تجري حافية خلف **دروتا**. الرمل بارد. تحسه تحت قدميها ككتل ماء. الظلام طلى العالم. لكن المعسكرين أوقدوا عدة نيران قتلته وهي تتلألأ في محيط المخيم. وجدت الأب **بولس** والأب **جوهانس** وإحدى الأخوات الكاثوليك يتابعون ذبح الغزال. الحارس، مرافقها الفخور بنفسه، يضع قدمه عارية على قوائم الغزال ليثبتها إلى الأرض. قوائم الغزال الأربع متشابكة تحت قدمه. بيسراه يمسك حنك الحيوان الخائف ويشده إلى أعلى؛ ليبرز عنقه. النار تلمع في العينين الواسعتين.

إنها تبكي.

تصرخ **ثيودورا**.

الدموع تحتشد في عيني الغزال. يصدر صوتاً كأنين أم احترق قلبها. يرفص بقوائمه عبثاً، فقاتله يدوسه بغلظة. يئن. يهتز رأسه. عبثاً. مشت السكين على العنق الجميل الطويل. انفجرت نافورة قانية من الدم. شهقت **ثيودورا**، توجّعت. استدارت تجري مبتعدة والدموع تخنقها.

دروتا لحقت بها وهي تقول جذلة:

غيّرت رأيي. هذه البلاد فيها الكثير المثير الذي يستحق الكتابة والنشر. تخيلي ما رأيناه. إنه مبهر.

ثيودورا كانت تبكي.

هذه بلاد شريرة. إنهم يذبحون الغزلان.

7

صحراء تسكن الروح.

أبدٌ من الرمل والحجر.

حكيمة رأت كل شيء. فماذا يدهشها.

مشى عليها مثلهم كثر. إذا عبروا مدت يدها فمسحت عن وجهها أثر خطوهم.

تحسها **ثيودورا** تغزو روحها.

لا شيء إلا الصمت. تبدو أصوات قافلتهم وأغاني **عيسى** قائدهم هزيلة شاحبة وسط صمت الصحراء الشامخ.

الرب يسكن هذا الخلاء.

8

تسير القافلة أياماً.

الطريق من سواكن إلى بربر طويل. قالوا لهم إنه يستغرق عشرين يوماً.

يمرون بخيران ومجاري مياه. مرة رأوا من بعيد سرباً من البقر الوحشي يجري نحو الأفق.

طعامهم اللبن واللحم والخبز. لكن **ثيودورا** رفضت أن تأكل اللحم بعد أن ترك ذبح الغزال في قلبها ندبة لا تبرأ.

يعبرون مراعي عشبية في الخلاء. فالأرض الأسطورية التي يمشون فيها لا حال لها. صحراء رملية هي، ثم تنسى رملها وتتغير إلى دلجة صخرية قاسية، فإن ملّت اكتست عشباً كمرج ربيعي. جبال صخرية تلوح في الأفق. تختفي فجأة كأنها تعبت من البقاء هناك فذهبت. ثم يبدو غيرها.

قائد القافلة **عيسى** لا يكف عن الغناء. لا يتكلم إلا لغة الصحراء. فاذا تكلم العربية تكلمها بلهجة غائمة ملتبسة لم تفهمها **ثيودورا**. رأسه ضخم وأطرافه نحيلة هزيلة كأنه استعارها من طفل. عيناه مجنونتان لا تكفان عن الطرف. له زغب خفيف أعلى شفته. كلما نظرت إليه **ثيودورا** وجدته يدخن غليوناً عتيقاً. يضحك كلما نظرت

إليه ويرفع الغليون ويقول فخوراً:

باشا.. باشا.

لم تفهم ما يقصد. لكنها قدرت أن باشا ما أهداه الغليون. يدخن كثيراً، وربما تناول التبغ فجأة ومضغه.

أخبرها الأب **جوهانس**، وهو من اتفق معه على الرحلة مقابل خمسمائة قرش، أنه أبرع جمّال في شرق البلاد. جماله لا يضاهيها جمل. وبينه وبينها علاقة ود. يحدثها ويغنيها. بعضٌ يزعم أنها تفهمه وترد عليه. رأته **ثيودورا** مرة يحني رأسه ويهمس في أذن جمله ضاحكاً. أقسمت **لدروتا** أن الجمل ابتسم وبربر بشفتيه الغليظتين.

دروتا أصّرت أنها مجنونة، وأن **عيسى** ذاته مجنون.

لكنه كان ذا فائدة حين أصابت الحمى الأب **بولس** في يومهم الخامس. فحين اجتمع على رأسه القساوسة وجلين يصلّون للرب ويحاولون البحث في أمتعتهم عن دواء للحمى، تفقد **عيسى** الأرض وانتزع بعض أعشاب قام بسحقها وخلطها باللبن المغلي وأصرّ أن يشربها الأب المنتفض. بعد أقل من ساعة كان الأب **بولس** قد نزف عرقاً غزيراً ثم هب من حماه جائعاً بوحشية.

أفراد البعثة سألوا **عيسى** عن العشب الذي جلبه لكنه ضحك ومضغ تبغ غليونه دون أن يجيب.

نزلوا عند بئر أعلن الدليل أنه لا يمكن الشرب منها.

حدثهم قائد الحرس عن السبب، ابنه يترجم عن لهجته الملتبسة، قال:

هذه البئر مرة. لا تصلح للشرب. كانت قديماً حلوة يقصدها السكان.

تسأل **دروتا** متعجبة:

أي سكان في هذه الصحراء؟

يشير الرجل إلى الجبال البعيدة. جبال يبدو الواحد منها كحصاة ضخمة.

هناك. كل جبل تسكنه قبائل. هذه أرضهم التي نسير فيها.

يقول الأب **بولس** محتاراً:

هذه صحراء. أليست هذه أرض الحكومة؟

يضحك الرجل بفمه الأجوف.

لا حكومة. الأرض والجبال والسماء ملك للسكان.

حتى السماء؟

يتدخل الدليل قائلاً:

قبائلنا تملك حتى السماء. وحين تهرب سحابة في الخريف فتمطر على أرض أخرى نطاردها حتى نعلم أين صبت. ويلزم أهل الأرض أن يدفعوا لنا عوضاً.

يعلّق الأب **بولس**:

حتى أفندينا الخديو لا يملك السحاب.

يواصل قائد الحرس خبر البئر:

تقاتلت القبائل هنا مع بدو العرب الغزاة. يأتون كل صيف ببهائمهم إلى هذه الأراضي طلباً للماء. يعتدون على الآبار والحشائش، ويمنعهم السكان. في عام كثر الموت، وكانت مقتلة عظيمة. وحين انتهت كانت الأرض قد شربت دماء كثيرة. فأصبحت ماء الآبار مرة.

كل شيء في هذه البلاد لا يشبه ما عرفته **ثيودورا** من قبل.

في خيمتهم ليلاً تحكي لها **هورتنسيا** الأخت الكاثوليكية عن شرق البلاد التي يغادرونها إلى وسطها. **هورتنسيا** زارت بلاد السودان قبل عام. عمّها أسقف في الخرطوم. تعرف الكثير. وتحب تلك البلاد العجيبة السوداء. بلاد رتيبة ما حدث فيها ما يزلزل منذ ضمها الباشا محمد علي. لكن مجتمعها عجيب أسطوري. حكاياته لا تنقضي. تسمع **ثيودورا** في اهتمام وتسجل في دفترها، استعداداً

لتنتقي من الحكايات ما تكتبه لأمها في خطابها القادم. وتنصت **دورتا** باهتمام مفكرة في الكتاب الذي ستنشره **ثيودورا** حين يرجعون إلى مصر.

هذه البلاد حلم جميل. حلم جميل خامل. لذلك لا تكف **دروتا** عن الصلاة للرب كي تقع أحداث مثيرة بها.

9

قابلوا في طريقهم جماعة من قبائل الجبال. سود يملكون الجبل والسهل والسماء بسحابها.

عشيرة صغيرة. رجالها عراة إلا من شقة دبلان بلا سراويل. حفاة. على رؤوسهم الصلعاء كتلة وحيدة من الشعر الأكرت مدهونة شحماً. أصابعهم مزدحمة بخواتم فضية لم تر **ثيودورا** مثلها. معهم امرأتان. نحليتان، لونهما كنحاس متسخ. ما كانتا سوداً كالرجال. شعورهن جدائل دقيقة. على سيقانهن خلاخل فضية.

حاولوا الحديث معهم لكنهم لم يفهموا لغتهم. طلبت **هورتنسيا** أن ترسم إحدى النساء. رطن معهم **عيسى** قائد القافلة. ضحك وهش. ثم أخبرهم أنهم رفضوا.

لم يخبرهم عنهم أكثر. تبادلوا معهم جهلاً بجهل ثم فارقوهم بسرهم.

10

على مسيرة يومين من بربر أهداها الحارس عصفور دوري. أحبت **ثيودورا** الهدية جدا. الطائر صغير ضئيل لا يملأ كفها النحيل حين تضمه عليه. جناحاه في لون البن، له ذيل رشيق، وصدر أبيض. زقزقته لطيفة أشجت **ثيودورا**، وأزعجت **هورتنسيا** في الخيمة. لكنه مات قبل دخول بربر بساعات. وجدت **ثيودورا** في صدره ثقباً ينسال منه خيط من النمل وهو بعد حي يرجف صدره، عاجزاً عن الحركة.

حاولت الاستغاثة بالحارس أو أحد الأدلة. لكن حارسها الأليف كان قد ترك معسكرهم وذهب يتفقد الطريق الباقي إلى المدينة مع اثنين من الحراس الآخرين. أما قائد القافلة **عيسى** الذي لجأت إليه فكان يبتسم في وجهها ويكرر بسعادة:

زرزور نعم هذا زرزور.

لم يفهم حزنها ولا طلبها حتى مات الطائر الحلو في يدها.

11

حلّت القافلة بمدينة بربر ليوم واحد قبل أن تتحرك جنوباً نحو الخرطوم.

أكثر ما أسعد **ثيودورا** أنها تمكنت من الاستحمام في حجرة مغلقة. الاغتسال في الصحراء كان يقتلها حياءاً. أما في بربر فقد وهبها الرب أخيراً حجرة من طين اللبن تحس فيها الأمان. غسلت شعرها الذي كان نحاسيا من ذر الصحراء واستعانت **بهورتنسيا** لتجفيفه.

لم تحب بربر كثيراً. مدينة كالحة فقيرة، تحيط بها مزارع من أشجار الدوم. أخبرها الأب **بولس** أن الدعارة منتشرة بها لكنها تناولت فيها حب الرمان. أعجبها وسألت عن مصدره فعرفت إن التجار يأتون به من مصر إلى سوقي بربر وشندي.

وهم يغادرون المدينة أشار جارسها الصديق إلى بيت بعيد وقال:

في ذلك البيت رجل عمره مئة وستون عاماً. في يوم ما

سأدعوك لزيارته. يحب أن يأتيه الأضياف.

مئة وستون عاماً؟ كيف هذا؟

هو ما أقول لك. وهو في صحة جيدة. تزوج ثماني مرات. وله سبعة وثلاثون ابناً وقبيلة من الأحفاد وأبناء الأحفاد. يأتي لزيارته الأوروبيون ويحبهم. سأدعوك إليه يوماً ما.

ابتسمت **ثيودورا** وقالت:

سأعتبر هذا وعداً.

ضحك وهز كتفيه.

الصحراء هنا أكثر قسوة من تلك التي ساروا فيها في طريقهم من الشرق. رغم قرب مسيرهم من النيل. تمنت **ثيودورا** لو يقتربوا منه لترى اختلافه عن نيل مصر. لكن مسارهم ظل على مبعدة منه. تلمح لمعان مائه دون قرب. كان لهم خيار أن يصعدوا النيل على قارب لكن إحدى شمطاوات الكاثوليك قالت إنها تخاف النهر. فكرت **ثيودورا**:

أي معتوه ذاك الذي يخاف النهر؟

لكنها لم تبد اعتراضاً فالقرار ما كان لها. قررت البعثة أن تستمر براً ودفعوا **لعيسى** مئة قرش أخرى.

رأت أسراب الجراد. قالت **هورتنسيا**، التي صارت تحاذيها و**دروتا** في السير مفارقة رفيقاتها الكاثوليك، إن النوبيين سكان شمال السودان يأكلونه. تذكرت **ثيودورا** القديس يوحنا المعمدان الذي كان يأكل الجراد في صحراء الجود. فكرّت في حارسها الصديق هل تراه يأكل الجراد أيضاً؟

سألته بعد مغادرة بربر بنصف يوم عن لهجته. يتكلم بشكل تفهمه يخالف لهجة بقية أهل البلاد.

ضحك كما يفعل كلما سألته عن شيء.

أحاول أن اتحدث لهجة تفهمينها. لقد عرفت كثيراً من التجار المصريين والموظفين الأتراك، أعرف كيف أحدثهم بلهجة هجين ليست عسيرة عليهم.

أعجبها ذكاؤه. قالت **لدروتا**:

لديه حس اجتماعي لا يناسب البرابرة.

قطعوا الطريق إلى الخرطوم في سبعة أيام. في ليلتهم الأخيرة قبل أن يصبحوا داخلين المدينة سمروا في وليمة. أحضر الحراس غزالاً آخر. توسلت **ثيودورا** حارسها أن لا يذبحه فترك المهمة لأخيه إكراماً لها. **دروتا** أصّرت أن تراقب الذبح وتقطيع اللحم. بينما بقيت **ثيودورا** في الخيمة تتألم حيناً وتشكر، سراً، حارسها أن نزه نفسه عن تلك الجريمة.

دعوها خارج الخيمة حين اكتمل الطبخ وتوارت آثار الغزال. قائد القافلة **عيسى** استأثر برأسه وأخفاه في خرقٍ. الأب **بولس** قال إنه سيبيعه في الخرطوم. غنى لهم الحراس وهم يأكلون. أحدهم كان عذب الصوت. يغني ويرد عليه البقية بصوت جماعي أجش.

يقول المغني:

يوباني هي يوبانين

الليل بوبي يا المتقال

ويرد الجمع:

أنا راسي إندار

اللحن خفيف راقص. أعجب الكل. يصفقون وهم يهزون رؤوسهم مبتسمين. تنظر **ثيودورا** إلى الآباء فتجدهم فرحين كأطفال. حتى الأخوات الكاثوليك تخلين عن جمودهن وتصدعت وجوههن بابتسامات مشرقة.

عيسى قائد القافلة رقص على إيقاع تصفيقهم وحنّجل. كان يهز رأسه الضخم أماماً وخلفاً وينفض يده أعلى رأسه بتناغم.

سألت **هورتنسيا** حين انتهى الحفل عن معنى الأغنية فلم تعرف. وقفت عند خيمتها ونادت حارسها الصديق. جاء يتبختر. عيناه كفخ. قال لها:

الأغنية تقول يا حبيبي الغالي انقضى الليل وثقل رأسي بالنعاس تعال لتنام معي.

ضحكت **ثيودورا** وظنته يعبث. لكنه أكد لها أنه صادق. قالت لرفيقتيها وهن يوشكن على النوم:

من يتخيل أن هذه البلاد الموحشة يغني أهلها هذا الكلام.

قالت لها **هورتنسيا** بصوت عابس في الظلام:

لا يعجبني هذا الحارس وتقربه منك.

اندفعت **دروتا** مدافعة:

لا تكوني جدة عجوز. هو مجرد حارس أجير لطيف.

قالت **ثيودورا**:

صدقيني إنه صديق جيد لولا ما به.

ما به؟

قالت **ثيودورا** ببساطة:

إنه مجرد بربري أسود يا هورتنسيا.

12

بعد أسبوع قضته في الخرطوم كتبت **ثيودورا** لأمها، **لاسكارينا** الحسناء، تقول:

فدخلنا الخرطوم بعد رحلة استغرقت ثمانية وعشرين يوماً. هي مدينة جميلة تحوطها الحدائق وأشجار النخيل الظليلة. استقبلنا أعضاء بعثة الكنيسة الكاثوليكية على شاطئ النيل ومعهم عدد من القناصل.

مشينا معهم ونحن فرحين بنهاية الرحلة المرهقة بين حدائق مزهرة حتى مباني البعثة الكاثوليكية. وجدنا في الردهة الرئيسية جماعة من الأتراك والأوروبيين العاملين هنا. لطاف يحبون الحياة. أحدهم حكى لي عن حروبه ضد تجار الرقيق. هناك طبيب ألماني كثير التدخين، كثير الكلام. لا يبدو مؤمناً بالرب.

في العصر ذهبنا إلى مباني بعثتنا. ووجدنا هناك حشداً من اليونان والمصريين في انتظارنا. احتفلوا بمقدمنا وهتفوا لنا. إنهم أشخاص ظرفاء حقاً.

أسكن في بيت جميل له حديقة. أمام نافذتي الآن شجرة برتقال. كل بيت في المنطقة له حديقة لذلك فان رائحة المدينة تعبق بالأريج الذي يغطي على رائحة الأهالي الغريبة.

حزنت لمفارقة **هورتنسيا** لكنها وعدتني بالزيارة. ولم تفعل حتى هذا اليوم. ستسافر بعثتهم غرباً إلى مدينة اسمها أباضة.

الخرطوم جميلة يا أمي. مبانيها فسيحة، أغلبها من الحجارة والآجر. وقليل من الطين. بها ما لا يقل عن ثلاثة آلاف منزل. الإرسالية الكاثوليكية ضخمة جداً، رغم أن اليونان الأرثذوكس هم أغلب الأوروبيين.وقد زارني أمس العم **بابونياس** والعمة **ماري**. يرسلون سلامهم إليكم جميعاً. سأذهب معهم إلى حدائق الخرطوم بعد غد، وسنزور المقبرة المسيحية في حيّ سلامة الباشا سأحب الحياة هنا.

صل لأجلي يا أمي كي ينظر الرب إليّ بعين الرضا"

السادس

1

لكن الحزن يشحب ويصير إلى ذبول.

يخترمها المصاب أشهراً حتى كادت تذوي. **دروتا** أشرفت على تمريضها ومواساتها ما أستطاعت. هزلت فصارت شبحاً أو نحوه. تبكي ليلاً طويلاً.

ما عرفت أن الأحزان تكون سامةً كحزني هذا.

الخطاب الذي أرسلته أمها لم يكن به كثير تفاصيل.

وقائع ما، هوجة وجنون في الإسكندرية، قتل المصريون المسلمون الناس في الشوارع. **دروتا** تقصت الأمر وعرفت أن مقتلة عظيمة وقعت في المدينة. والدها **أندرياس إليفثيريوس** ذبحوه على

مدخل البيت. لم يعد قلقاً من شفتيها الوحشيتين. مات.

ثيودورا قالت مذهولة حين حاول الأب **بولس** مواساتها

لقد ذبحوه على سلم البيت. من سينظف مع أمي كل ذلك الدم؟

فضل العزيز، الخادم، اقتربت من الأب **بولس** و همست له

الصبية ستفقد عقلها. اقرأوا عليها سورة الرحمن.

لم يهتم الأب **بولس**. لكن حين احتضنت **فضل العزيز** **ثيودورا** وقالت لها بحزن

استغفري الله يا ابنتي وقولي لا إله إلا الله.

فزع.

نهر الخادم العجوز وطردها خارج الغرفة. مرّت وهي تستعيذ وتحوقل.

رقدت **ثيودورا** بالحمى لأسبوعين. ثم اندلق جوفها بالقيء والإسهال لأيام. زارها الطبيب الأرمني حين لم تفلح عقاقير الكنيسة في علاجها. قال إنها مريضة بالدوسنطاريا. وحين أخبره الأب **بولس** أن بها الحزن هز كتفيه مستخفاً وقال:

الحزن والدوسنطاريا.

الخرطوم ما بها وسيلة لتصريف مياه الأمطار. وفي ذاك الخريف تجمعت البرك في كل ركن وكثر البعوض وانتشر التيفوس والجدري والكوليرا والدوسنطاريا.

دروتا تقف خلف النافذة ترقب الشوارع الخانقة المبللة وتخبّط البعوض خلف السلك المشدود على النافذة وتقول مشمئزة

إنها ليست مدينة. هذه قرحة عفنة.

في أغسطس ذاك، حين أتى خطاب الأم، **لاسكارينا** الحسناء التي صارت أرملة، كان قد مرّ على البعثة ثمانية عشر شهراً في الخرطوم.

دورتا فقدت بمرور الأيام إعجابها بالمدينة المملة. بينما ازدادت **ثيودورا** ولعاً بها.

العم **بابونياس** والعمة **ماري** كانا أسرة للراهبة بندقية الشعر، وفيها وجدا عوضاً عن ابنتهما، **سارا**، التي ماتت قبل أربعة أعوام. العم **بابونياس** يعد نفسه من أهل البلاد الأصليين. مازح **ثيودورا** وهي تشرب معهما الشاي في صالة بيتهم الفسيحة

بعد تسعة عشر عام هنا أصبحت بربرياً تماماً. حتى لوني

أوشك أن يتحول إلى اللون الأسود.

وكان هذا ما احتج به بعد عامين حين قرر الأوربيون الهرب من المدينة بعد اقتراب ثورة الدراويش. قال:

إلى أين أذهب؟ هذه بلادي. لقد نسيت أي لغة الا العربية التي يتحدثها الناس هنا. أما لوني فصار أسود لا يناسب إلا هذه الأرض.

العمة **ماري** دعمت قراره بالبقاء دامعة وهي تقول

لن أترك قبر **سارا**، العزيزة، وأفر.

حزنهما الشفاف على فقدهما كان دافعاً لتبني **ثيودورا** وغمرها بكل ما يختزنان من أبوة ما وجدا من يحملها عنهما.

كل صباح كانت العمة **ماري** تخرج من بيتها لتقطع شوارع المدينة إلى حي الجامع حيث مسكن البعثة الأرثوذكسية لتزور **ثيودورا**. تشرف على حمامها بنفسها. وتعينها على لبس ثيابها. تتأملها فخورة وهي تلمع كأيقونة في ثوبها الأبيض. وحين تخرج **ثيودورا** لزيارة المدرسة أو عظة الأسبوع تسير معها حتى باب الحديقة وتعيذها بكثير من آيات الانجيل ودعوات الأمهات. ونازعت **فضل العزيز** على مهمة غسل ثياب **ثيودورا** لكن الخادم

السوداء انتصرت لمهمتها بعنف.

أنا خادم هذا البيت وهذا واجبي. أنت ضيفة تأتي مكرمة وتذهب مكرمة. لو سمحت لك بغسل ثياب الصبية فماذا أكون أنا؟

بكت العمة **ماري** لوصفها بالضيفة لكن **ثيودورا** طيّبت خاطرها، وأرضتها بأن صارت تدعوها أمي الطيبة. ولم تغفر **فضل العزيز** محاولة التغول هذه للعمة **ماري** حتى آخر يوم في عمرها. وظلت تتخذ منها موقفاً عدائيا متحفزاً على الدوام. **دروتا** كانت تسمعها، كثيراً، تحادث نفسها في المطبخ وهي غضبى:

ياللهوان!! الضيفة الخواجية تطمع أن تغسل ثياب الصبية. هنت يا **فضل العزيز**. حقاً هو آخر الزمان!

ثم تصرخ مخاطبة السماء:

يا رب!! عجل بخروج المهدي فإن العالم أصابه الجنون.

2

ما أمرّ الموت يا أبي.

لماذا تموت بعيداً.

تتركني وتذهب.

أهكذا العبور للضفة الأخرى سهل هين؟

تتركني هنا وتصعد إلى الرب.

لماذا يموت الأحباء ونحن عنهم بعيد.

لماذا، حين نفارقهم، لا يخبروننا أن هذا آخر لقاء فنتزود منهم.

يعدوننا اللقاء القريب. نشغل أنفسنا بتخيل لقية قادمة وتفاصيل نعيشها. ثم يغدرون.

يموتون فجأة ونحن نحملهم داخلنا. فيصيب أرواحنا التسمم.

لن أسامحك يا أبي على هذا الحزن. لن أسامحك أبداً.

3

"أَنْتُمُ الَّذِينَ لاَ تَعْرِفونَ أَمْر الْغَدِ! لأَنَّهُ مَا هِي حَيَاتُكُمْ؟ إِنَّهَا بُخَارٌ، يَظْهَرُ قَلِيلاً ثُمَّ يَضْمَحِلُّ"

(رسالة يعقوب 4: 14)

4

وفت **هورتنسيا** بوعد الزيارة بعد عشرة أيام.

جاءت إلى منزل الأرثوذكس في معية خصيّ أسود انتظرها أمام الباب وقوفاً وهو يرسل نظرات الحذر على كل مار.

أوت الفتيات الثلاث إلى بعضهن واستعدن ذكريات الرحلة القريبة. حكت لهن **ثيودورا** حكاية النعام التي أخبرها بها حارسها الصديق:

قال إن الله حين خلق الطير قال كل جنس "سأطير بإذن الله"، خلا النعامة التي قالت "لي جناحان وسأطير لم تقل "بإذن الله" فعاقبها الله أن حرمها الطيران وظلت مخلدة إلى الأرض على حين طارت كل أجناس الطيور الأخرى.

ضحكت الفتاتان. قالت **هورتنسيا:**

بعد وقت قليل في هذه البلاد ستعرفين إن لهم في كل حدث غريب تفسيراً يرتبط بالسماء. دينهم غريب. لكن الأب جوهانس نصحني ألا أتدخل في معتقدات السكان.

لكنها لم تنس أن تغمزها في ذكر الحارس الأسود.

دخلت عليهن **فضل العزيز** فعابثتها ومرحن كثيراً بأجوبتها وآرائها.

دعتهما **هورتنسيا** للخروج إلى شاطئ النيل للفسحة فوافقتا. ذهبت **دروتا** تخبر الأب **بولس** فما وجدته. عرفت من العاملين انه ذهب إلى الحكمدارية. خرجت الثلاث وتبعهن الخصيّ حارساً أمانته الثمينة. يعبرن طرقات واسعة نظيفة. فالحكومة تحرص على كنسها ورشها بالماء كل صباح. مشين في شوارع المدينة تحت ظل أشجار اللبخ الضخمة على أرض ترابية حمراء، يتأملن غريب خليط أهلها. حياهن أكثر من أوروبي. ولفتت **دروتا** صاحبتيها إلى شاب أنيق حياهن بود زائد كمتحين فرصة.

جماعات من المصريين مروا بهن. الطرابيش على رؤوسهم أثارت أشجان **ثيودورا** وذكرتها أفندية الإسكندرية. لكن لا أحد منهم أرسل كلمة غزل كما اعتادت. سألت نفسها لائمة عن خيبة الأمل تلك التي دغدغتها. ما كانت تحب ما يلقيه عليها المارة.

كانت تتجاهله وتستعيذ بالرب منه. لكنها تفتقد الآن الشيطان الذي تتجاهله.

المدينة مهرجان من البشر والأزياء. ملابس أوروبية أنيقة مع الطربوش. ملابس تركية قديمة من سراويل وشيكن. عمائم مصرية وهندية.

عبر بهما سوداني وحيد عند القنصلية المجرية المطلة على النيل وهن يدخلن الحدائق. كان يركب على حمار، فلما حاذاهن قفز عن ظهره في نشاط ومشى راجلاً حتى جاوزهن. نظرن إليه فرأينه يعاود الركوب. مضى دون كلمة أو نظرة.

سألت **هورتنسيا** الخصيّ، فأجاب باقتضاب:

احتراماً يا سيدتي.

الحدائق جنات مبهرة. مشين تحت أشجار المانجو والبرتقال والليمون والجوافة. تقافزن فوق ثمار البطيخ المرتمي على الأرض. أحبت **ثيودورا** أشجار الموز المنتفخة. أمّا الطيور فكانت من كل جنس ولون.

قالت **ثيودورا**:

لو كان هناك بحر لكانت هذه أجمل مدن العالم.

أشارت **دروتا** إلى بحر النيل الأزرق الرائق أمامهن:

لهذا النيل سحره.

راقبن ميل الشمس ناحية الغرب. لوّنت العالم بضوء أحمر فاقع. سبحّن الرب ثم قفلن عائدات.

ثيودورا كانت تفكر.

هذه المدينة درّة الدنيا. سأحزن يوم أفارقها.

فهمت محبة العم **بابونياس** والعمة **ماري** لها. في كل مرة وهي ترجع من بيتهما في حي الحكمدارية، قرب الشونة، ماشية إلى دار البعثة كانت تفكر أنهما ينتميان حقاً لهذه المدينة. ما عادا يونانيان ولا مصريان. الخرطوم هي بلدهما الحقيقي.

تشعر بفضول لرؤية بقية البلاد. وتحسد **هورتنسيا** التي سافرت غرباً لترى أماكن أخرى ومدن مختلفة، يسكنها البرابرة السود، غير الخرطوم الأوروبية.

هورتنسيا سافرت في مارس.. بعد شهر من دخولهم الخرطوم. أبحرت عن طريق النيل. وعدتها بالمراسلة. لكنها ما وفت بوعدها قط. حين التقتا مرة أخرى في حزنيهما أخبرتها **هورتنسيا** أنها ما تجاهلت الوعد، لكن الوفاء كان مستحيلاً.

ثيودورا أحبت الخرطوم. وصلّت للرب أن تنتمي لهذه المدينة المبهرة. واستجاب الرب لها. فحين ماتت على الضفة الغربية

للنيل، بعد أعوام، عبروا بها شرقاً ودفنوها في المدينة التي أحبتها حيناً من الدهر.

5

تقع دار البعثة الأرثوذكسية في حي الجامع.

الحي الذي قام حول المسجد الجامع الذي بناه خورشيد باشا حين تأسيس المدينة عام 1830. أكبر أحياء المدينة وأصخبها. به أربعة شوارع رئيسية. وبه عدة قصور شامخة، أشهرها قصر الخواجة جورج تشيادي وقصر علي خلوصي، والعديد من القنصليات الأوروبية. وفيه كنيسة البعثة الكاثوليكية، ومعبد إرسالية بروسيا البروتستنتية، ودار البعثة الأرثوذكسية.

دار البعثة مبنية من الطوب المحروق. مقسمة إلى جناحين، شمالي وجنوبي. تحيط بها حديقة واسعة على مساحة أكبر من مساحة المبنى. بالحديقة أشجار كثيفة حتى تبدو كغابة صغيرة. تلهو فيها أنواع من الطيور والعصافير. ويشق الحديقة درب مفروش بالحصى يصل إلى مدخل الدار، تظلله على الجانبين شجرات لبخ أربع.

للدار مدخل رئيسي على الحديقة الأمامية. مزيّن بالآجر، وأعلاه صليب من الحجر الأبيض. ومدخل جانبي يطل على شارع ضيّق يقود إلى شارع الترسانة. يستخدم المدخل الجانبي، عادة، المرضى والفقراء الذين يتلقون إعانات من البعثة، وباعة الجبن واللبن. ولسبب ما تعتبر **فضل العزيز** نفسها حارس هذا المدخل. فتحتفظ بنسخة من مفتاح بابه الحديدي الأسود تعلقها على معصمها.

أما المدخل الرئيسي فهو لرواد الدار من أسر اليونان التي يتجاوز عددها المئة وخمس أسرة، وغيرهم من الزوار المهمين.

خلف المدخل الرئيسي رواق طويل ينتهي إلى صالة واسعة. تدخلها الشمس صباحاً عبر نوافذ واسعة مكسوة بالزجاج الملوّن. وعلى جدرانها صور ليسوع والعذراء وحشد من القديسين ورماح افريقية جُلبت من بحر الغزال جنوب البلاد. على يمين الصالة درجات منخفضة تنزل إلى مطبخ الدار حيث تشرف **فضل العزيز**، بصورة دائمة، على أربع من الخادمات السود، صرن بعد ذلك ثلاثة. وعلى يسارها صالة الطعام وحجرتان إحداهما مكتبة ضخمة بها كتب باللاتينية واليونانية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية. وعلى الجدار الشرقي للمكتبة جدارية ضخمة للعائلة المقدسة. أما الثانية فهي غرفة الأسقف **أنطونيوس** المسئول عن الدار، ولا يدخلها سوى معاون الأسقف والأب **بولس**، وأحياناً **فضل العزيز**.

على يسار الصالة ممر ضيق يقود إلى الجناح الشمالي للدار، حيث غرف الرجال، وعددهم خمسة، إضافة إلى الأسقف **أنطونيوس** ومعاونه والأب **بولس**، أربعة من اليونان والخامس هجين حبشي.

في نهاية الصالة درج من خشب الكاكموت يقود إلى الطابق الثاني حيث حجرات الراهبات والعاملات في الدار. غرفة **ثيودورا**، في الطابق الثاني، تطل على الحديقة الشمالية للدار. أمام النافذة شجرة برتقال تحجب عنها بعض الرؤية. لكنها تهبها فوحاً لطيفاً كل مساء.

على جدار الحجرة صورة للقديس مارمرقس جالساً في كهف، تحيط به هالة نور، يكتب بريشة على لوح وجواره أسد رابض، كتب أسفلها بحروف بارزة "المسيح الذي أؤمن به ينجينا من كل شدة" أهدتها إياها العمة **ماري**. فرحت بها **ثيودورا**كثيرا.

في صالة الدار الواسعة صادفت **ثيودورا**، بعد نحو أربعة أشهر من وصولها، الأب **جوهانس** جالساً ينتظر. كانت معها العمة **ماري** مغادرة. سعدت **ثيودورا** برؤية رفيق الرحلة اللطيف. سألته عن **عيسى** قائد القافلة، وقائد الحرس ذي الفم الخالي من الأسنان، وابنه الصديق. قال إنه قابل **عيسى** مرة واحدة. أما البقية فهم بلا شك في الصحراء يكسبون رزقهم كما اعتادوا. عرّفته إلى العمة **ماري**. الفرح الذي أضاء وجهها أشعر العمة **ماري** بمحبة **ثيودورا** له،

فدعته للغداء في منزلها يوم السبت المقبل. حاول الأب **جوهانس** أن يعتذر، لكن العمة **ماري** لم تمكنه من ذلك.

في يوم السبت أبكرت **ثيودورا** و**دروتا** بالذهاب إلى منزل العمة **ماري**، يساعدنها في الإعداد. وحملت **ثيودورا** لذلك اليوم ذكرى طيبة إذ لم تنته الزيارة إلا وكان العم **بابونياس** والأب **جوهانس** قد صارا صديقين مقربين. وعلمت **ثيودورا**، من العمة **ماري**، فيما بعد أنهما صارا يقضيان كثيراً من الوقت سوياً في مقهى اليوناني جورج تنسياري، بشارع البحر، يلعبان الشطرنج.

حين تصلي **ثيودورا**، قبل النوم، تشكر الرب على نعمة الأحبة التي منحها إياها في الخرطوم.

أبانا الذي في السماء. لتدم عليّ نعم المحبة.

وفي دفترها وخطاباتها إلى أمها كانت تسجل كل لحظات سعادتها في البلاد الأوروبية السوداء.

6

الأحد 6 فبراير 1881

"حكمدار الخرطوم يعيش في ترف عظيم. يقيم مع أسرته في سراي فخم به حشد كبير من الخدم والعبيد، ولديه حيوانات مفترسة في حديقة السراي.

أمام السراي من ناحية النيل فضاء تظلله شجرة جميز كبيرة يمضي تحتها الحكمدار الأمسيات مع ضيوفه في الحديث والتدخين وشرب القهوة. دعانا الحكمدار رؤوف باشا وقضينا وقتاً لطيفاً.

ثم حضرنا حفل الاستقبال الذي أقامه لنا في ساحة جوار السراي تزينت بالمصابيح الملونة. رقص جنود الحامية رقصات حربية. كلهم من الزنج. ثم قدمت فرقة موسيقى الجيش استعراضاً موسيقياً أعجب الأب جوهانس كثيراً. عرفت من الأب بولس أنه كان موسيقياً في شبابه.

بعدها دخلنا إلى غرفة الطعام. غرفة مربعة كبيرة تزينها صورة كبيرة بالحجم الطبيعي لمحمد علي باشا. أدوات المائدة من البلور والفضة.

جلس بقربي مهندس بريطاني. لاحظت أنه رغم تهذيبه لم يتل الصلاة قبل الأكل".

الخميس 10 فبراير 1881

"سكان الخرطوم أخلاط. يميزون بين أصناف السكان باللون. لكل جنس لونه الذي ينفرد به. إبتداء من اللون الأبيض ومتدرجين نحو السواد بدرجاته المختلفة، حتى تنتهي إلى أحلك ألوانه.

وهم يقسمون السواد إلى ألوان عجيبة. فيقولون رجل أزرق للحالك السواد. ورجل أخضر لمن كانت سمرته غامقة. والأبيض عندهم مضحك. يعدون المصريين السمر بيضاً مثل الأوروبيين سواء بسواء. لكنهم يعتبرون الترك لونهم أحمر"

الجمعة 11 فبراير 1881

"سكان السودان شعوب مختلفة وقبائل عدة.

أكثرهم عدداً السود، وهم زنج من سكان افريقيا الأصليون. هؤلاء أدنى سلالات البشرية. لا يوجد منهم في الخرطوم إلا عبيد. هم على الفطرة، لا مدنية لهم ولا حضارة، ولا صناعة. يمتهنون في بلادهم الزراعة على قدر كفايتهم وصيد السمك.

والنوبة الذين نراهم في مصر، ونسميهم البرابرة.

والعرب، وهم أكثر كرماً وعقلاً وأقرب للمدنية. فيهم بقية من وحشية يسهل أن نخلصهم منها. أغلبهم في الخرطوم تجار

ويعملون مع الحكومة ويشربون الدخان ويلبسون الأزياء التركية"

7

تخرج **ثيودورا** كل يوم إلى مدرسة الإرسالية عبر طريق مشرع القاضي. نصيبها في التدريس يوما الجمعة والثلاثاء. بينما حصلت **دروتا** على يومي الأربعاء والخميس.

المدرسة منزل متواضع من طين اللبن تستأجره البعثة من تاجر تركي للتدريس والتمريض. أحبت **ثيودورا** الأطفال. أغلبهم من اليونانيين والمصريين، وبعضهم من الأحباش، وآحاد من الزنج أهل البلاد.

الأطفال الزنج كان أكثرهم أيتام تربيهم البعثة. من أسر مسلمة أو وثنية. مات عنهم أهلوهم فكفلتهم الإرسالية. يسكنون أحياء شعبية فقيرة لم تزرها **ثيودورا** طوال السنوات الأربع التي عاشتها في المدينة. لكنها سمعت عنها. حدثتها **فضل العزيز** عنها وعجائبها. حي الطوبجية، حي الترس، حي هبوب ضارباني، حي النوبة، حي الكارة. **ثيودورا** لم تكن تصدق تلك الأحاديث. قدرت أنها تصدر عن عقل العجوز المختل.

تدخل عليهم **ثيودورا** فيهش لها الأطفال ويفرحون كعصافير ملونة. أحبت براءتهم.

تعلمهم سفر التكوين وقصص القديسين.

اكتشفت في نفسها موهبة القص حين رأت الأعين الطفلة تتسع انبهاراً وهي تسمع منها الحكايات. يصمتون وتنقطع أنفاسهم وهي تروي. ربما دمعت أعينهم. لكنهم دوما يهتفون سعادة حين تنتهي قصة قديس بنصر الرب له.

بقية أيام الأسبوع تتطوع في المدرسة للعمل في قسم التمريض. تمسح على أوجاع المرضى. أكثر الإصابات بالحمى أو تسمم الخمور. اليونان لا يمرضون بالحمى كثيراً فهم يألفون جو البلاد. أما المصريون والسوريون والبروسيون فيعانون دوماً من الحمى والتيفوس.

وحين ترجع عصراً إلى دار البعثة تكتب في دفتر مذكراتها، الذي امتلأ، خواطرها السعيدة. تسجّل بعض ملاحظات، وتخط إشارات لذكريات عاودتها على غرة. لم تهمل الإشارة للذكريات لأنها باتت، بعد نحو عام في الخرطوم، مراوغة باهتة كأنها لم تحدث لها. كانت تنزل عليها فجأة فتدهشها وتنشغل بتذكر تفاصيلها ومراجعة نفسها هل حدث هذا لها أم هي حكايات سمعتها عن شخص آخر.

أحبت حفلات البعثة الكاثوليكية التي تقيمها في كنيستها الضخمة الجديدة القريبة. تذهب في معية بعثة الدار. القساوسة يرتدون القفاطين والجبب، والراهبات يرفلن في عباءات بيضاء وأغطية رأس سابغة.

زارت أكثر من دار في مناسبات عديدة. يقيم الأوروبيون في المدينة حفلات لمناسبات متنوعة. بعضهم يحتفل برأس السنة، بعضهم يحتفل بعيد الجلوس لملوك بلادهم، وأكبر الحفلات تقيمها القنصليات لمناسبات قومية.

ثيودورا أدركت في يوم احتفال البعثة الأرثوذكسية بتمام عامهم الأول أن أغلب ذكرياتها الواضحة لا تتجاوز مدتها ذلك العام. وستمتد لتشمل كل جديد لها في هذه المدينة. جذورها تمتد هنا. وكلما انغرست كلما بدت حياتها السابقة باهتة بعيدة.

8

رائق جو المدينة كبحر النيل في الصيف.

لكنه يتعكّر دونما إنذار. **ثيودورا** حين رأت، لأول مرة، عواصف الخريف أصابها الرعب.

السماء أظلمت نهاراً وأكتست سحاباً أحمر كجهنم. أمطرت السماء رملاً. تصرخ الريح حاملة في صخبها ثيابا وأواني من الفخار وفروع أشجار. من نافذتها راقبت **ثيودورا** شجرة البرتقال تميل حتى توشك أن تنكسر.

وحين ينزل المطر الخانق تصبح المدينة مستنقعاً ضخماً يفوح برائحة الفاكهة المتعفنة. يُحبس كل شخص حيث أدركه المطر. وربما اضطر للبقاء أياماً حتى تمسك السماء. حين يكف المطر تبدو المدينة مغسولة رطبة.

هال **ثيودورا**ما رأت. لكن العمة **ماري** طمأنتها أنها ستعتاد الأمر.

9

حين شرعت في الاستعداد للخروج اكتشفت اختفاء الصليب الفضي الصغير. بحثت عنه بين حاجياتها لكنها لم تعثر عليه. سألت **دروتا** فأجابتها بالدهشة لضياعه. عادتا للبحث سوياً دون جدوى.

سألتها **دروتا** متى رأته آخر مرة. تذكرت أنها كانت تضعه مساء البارحة قبل النوم. ثم خلعته، بعد أن صلّت، ووضعته على المنضدة. صباح اليوم اغتسلت ومشّطت شعرها البندقي بمشطها

الموضوع على ذات المنضدة. لكنها لم تنتبه لرؤيته عليها.

قالت **دروتا** بحسم:

لقد سُرق. أحدهم دخل حجرتك وأنت نائمة.

أفزعتها الفكرة. أن يدخل عليها أحد وهي نائمة لا تعلم ما يجري حولها. ضعيفة لا حول لها. وغريب ما يجوّل في حجرتها ويعبث باشيائها. أخبرتا الأب **بولس**. قال لهما:

قبل أن نثير ضجة لابد أن نفكر في من نتهم.

استبعدوا سريعاً **فضل العزيز**. فدارت شبهاتهم حول الخادمات الصغيرات الأربعة. نادى الأب **بولس فضل العزيز** وسألها. لم يخبرها عن السرقة لكنه استفسرها عن واحدة من الخادمات خرجت ليلاً من غرفتها بعد موعد النوم. **فضل العزيز** قالت ببساطة:

أنجيلا لا تنام. إنها تتحرك دوماً في الدار بعد نوم الجميع. أمسكت بها أكثر من مرة تحوم في الصالة أو تصعد السلم إلى غرف الأخوات.

هل أخبرت أحداً بذلك؟

لن أشكو فتياتي لأحد. أنا أعرف كيف أعاقبهن.

أخبرها الأب **بولس** عن اختفاء الصليب الفضي. انتصبت قامة

العجوز. برقت عيناها بالحزم. قادتهم إلى المطبخ. نزلوا إليه واجتازوه داخلين الغرفة الصغيرة الملحقة به. غرفة لا يزيد عرضها عن أربعة أقدام تنام فيها **فضل العزيز** مع الخادمات. فتشت **فضل العزيز** حاجيات **أنجيلا** القليلة. عثرت على كتاب صلوات فقده الأب **أنطونيوس** قبل شهور، وأربعة أمشاط خشبية ثمينة، وحقيبة قماش فقدتها راهبة انتهت إرساليتها قبل عامين، ومرآة نحاسية عليها نقوش قوطية، وريالات مجيدية، وقطعة مزخرفة من عساكر لعبة الشطرنج، وساعة جيب لم يعرف أحد مصدرها لكنها تبدو ثمينة، وسبع سلاسل فضية. لم يجدوا الصليب ففتشت **فضل العزيز** حاجيات بقية الخادمات لكنها لم تعثر على شيء. ما وجدوه في حاجيات **أنجيلا** كان كافياً لاتهامها. حمل الأب **بولس** الأشياء وصعد إلى مكتب الأسقف **أنطونيوس**.

بعث الأسقف **أنطونيوس** يخبر الحكمدارية. وبعد ساعات جاء العسكر فأمسكوا بالخادم المذعورة.

أنجيلا فتاة سوداء نحيلة من قبيلة الشلك المستوطنة جنوب البلاد. ملامحها دقيقة كمنحوتة أبنوسية. حين أمسكوها صرخت وسال اللعاب من فمها. كانت ترفص وتقاوم وتقسم أنها ليست لصة. قالت إنها عثرت على كل تلك الأشياء في مناسبات متفرقة داخل الدار بعد سفر أصحابها، أو وجدتها في الطريق. أقسمت أن كتاب الصلوات أهداها إياه الأسقف **أنطونيوس**. لكن الأسقف أكد

أنه لا يذكر ذلك. حملوها إلى حديقة الدار. قيدوها إلى شجرة لبخ كبيرة. العصافير صاخبة في السماء.عرّوا ظهرها. جلدوها مئتي سوط حتي كادت تهلك.

ينزل السوط، ذو الرؤوس الخمسة وكرات صغيرة من الحديد على أطرافه، على ظهر الفتاة الأسود فيمزقه. تنغرس كرات الحديد في لحمها فيشد العسكري يديه بقوة لينتزع السوط من جسد **أنجيلا**. تصرخ. تستغيث. تتوسل أحد أن يرحمها. ينزل السوط مرة أخرى. حين يقع على ظهرها ينقطع نَفَسُها فتنحبس صرخاتها لوهلة. توحش بها الوجع فأخذت تدق جبينها بجذع الشجرة بجنون. لكن العسكر أمسكوا رأسها خشية أن تفر بالموت فلا تعترف.

أغشي عليها، من الضرب والصراخ، أكثر من مرة. حينها كان قائد العسكر، التركي المزركش بشرائط وريش كثيف، يأمر جنوده بوقف الجلد حتى تفيق. لم تتراجع **أنجيلا** عن حكاياتها. لم تعترف بالسرقة. توسلت الأب **أنطونيوس** أن يتذكر يوم منحها كتاب الصلوات. قالت إنه باركها وقبّلت يده شاكرة.

عيانها مليئتان بالدموع وأنفها يسيل على شفتيها غزيراً. العرق يغطي جبينها. ظهرها الأسود كساه الدم، ومن شقوق الجروح بدا شحمها أبيض.

أفراد البعثة، وبعض المارة الذين تجمعوا، كانوا يراقبون إنكارها

غير مصدقين. سأل القائد التركي الأسقف **أنطونيوس** ان كان يريد أن يكتفي بعقابها ويعيدها للخدمة. لكن الأسقف أعلن أنه لا مكان للصة في الدار. قال القائد التركي:

سنأخذها إذن إلى الحكمدارية. سنسمها ونبيعها بالعيب. أرجو أن تمر بالكاتب غداً ليدفع لك تعويضاً عنها.

ثيودورا سألت عن الوسم الذي ذكره. نظر إليها بعينيه الملونتين وقال:

سنكويها بعلامة على خدها.

أوجعت الفكرة **ثيودورا**. سألت الأب **بولس** إن لم يكن ممكناً الاكتفاء بطردها. لكن الأسقف **أنطونيوس** قال لها:

ستكون تلك إشارة سيئة لبقية الخدم. لابد من عقاب المخطئ.

لكنه عقاب قاس.

في نهاية الأمر ليس عقابنا. هذه قوانين الأتراك. ليس لنا دخل بها يا ابنتي. لكني أعدك بالصلاة ليخلّص الرب روحها ويهديها.

وخفف الأب **بولس** عنها قائلاً:

هذا حكم هيّن. تذكري أن المسلمين يقطعون الأيدي في شيء كهذا.

أخذ العساكر **أنجيلا**. لم يرها أحد بعد ذلك. اعتذرت الحكمدارية للأسقف عن جريمة مواطنتها في حق البعثة. أبدى الأسقف تفهماً. ففي حقيقة الأمر لا يمكن للحكمدارية أن تمنع المفسدين عن فسادهم.

ثيودورا لم تعثر قط على صليبها الفضي. لكنها ظلت تصلي دوماً لأ**نجيلا** ليخلص الرب روحها ويهديها.

في دفترها ذي الغلاف الجلدي كتبت دهشتها:

"الإنسان متوحش ناكر للجميل. كلما أجهد الراعي نفسه لهداية خراف الرب الضالة كلما اجتهدت في أذيته. سرقت اليوم خادمة سوداء صليبي الفضي"

10

كانت تتعافى من حزنها حين جاء الخطاب الثاني من والدتها.

الحزن ككل شيء يذبل. يبدو في فورانه جامحاً لا نهاية له. يعربد في النفس ويصيب كل الحياة بالمرارة. لكنه يخفت رويداً رويداً حتى لا يبقى منه إلا دبيب خافت في الجوف.

كان أكتوبر من عام 1882 قد انتصف، وتبقى **لثيودورا** نحو شهرين لتكمل عاميّ بعثتها. وصل الخطاب مع بوستة الدار. **دروتا** أخذته لتصعد به إلى غرفة صاحبتها. طلبت منها **ثيودورا** أن تقرأه. كانت أخباراً مشوشة. حكت لها أمها، **لاسكارينا** الحسناء التي صارت أرملة، تفاصيل المذبحة التي حدثت في الإسكندرية وكيف قتل العامة الغاضبون أباها وعدداً من معارفهم الأوروبيين. بلايا ما بعد هوجة الفلاحين معية عرابي باشا. كره المصريون الأوروبيين الذين ما حملوا لهم إلا كل خير. تنكروا لجميلهم. كتبت لها معتذرة أن المدينة ما عادت كما كانت وأن حياتهم في خطر. أخواها اتفقا على العودة إلى اليونان. سترجع الأسرة إلى أرضها التي منها نبتت. ويتوقعون أن تلحق **ثيودورا** بهم إلى هناك حين تنتهي مدتها في إرسالية الخرطوم.

سالت دموعها صمتاً و**دروتا** تتلو المكتوب. ها هو عالمها ينهار. الأب الصاخب المكتنز ذبحوه هناك بعيداً وأمست يتيمة فجأة. عرفت بعد شهر. شهر كانت تضحك فيه وتمرح وتذهب إلى مدرسة الإرسالية تحدث الأطفال عن الرب والمحبة وتعاليم بولس الرسول دون أن تدري أن أباها ذبحوه على مدخل البيت. واليوم تعرف أنها لن ترجع أبداً إلى مدينتها. لن يغازلها بحر الإسكندرية مرة أخرى. لن تسمع موجه يهمس باسمها حذراً أن تسمعه طيور النورس. ستذهب غريبة إلى بلاد اليونان التي لم ترها من قبل.

لماذا كتب الرب على الإنسان الغربة؟

فضل العزيز تحمل إليها كل يوم منقوع التمر هندي الذي أوصى به الطبيب الأرمني. وفجراً توقظها **دروتا** لتشرب رطل الزبد على معدة خاوية. تطيع التعليمات الصحية، وتسلّم جبينها للأب **بولس** يقرأ عليها آيات الإنجيل طلباً للشفاء والسلوى. وعصراً،كل يوم، تزورها العمة **ماري** لتبكي معها. وتفكر وحدها، دون الأخرين، في مستقبلها.

حين أصبحت قادرة على المشي وحدها دون أن تترنح طلبت من **دروتا** أن تزور معها منزل العمة **ماري**.

فرحت المرأة حين رأتهما داخلتين عليها صباحاً. احتضنتها وسالت دموعها. قبلتها على وجنتيها. وحين أخبرتها **ثيودورا** ما تفكر به وافقتها دون تحفظ.

الخرطوم ليست محطة. كل من نزل بها أصابه حبها. حتى من يزعجه جوّها المتقلب وأمطارها وعواصفها الترابية. القساوسة الذين يحاربون الفجور يحبونها رغم فسق أهلها وبيوت دعارتها وحفلات اللواط الدائمة والأوروبيين المخادعين الذين يمتهنون الاحتيال. **ثيودورا** قررت أن ليس لها مكان تذهب إليه. لن تلقي بنفسها في غربة جديدة. ما عاد لها، بعد سفر اسرتها، في الإسكندرية أسرة. لكنها هنا، في هذه المدينة التركية المنشأ الأوروبية الطابع،

لها ذكريات وأسرة وأصدقاء. إلى أين تذهب وتترك كل هذا؟ قالت للعمة **ماري**:

سأكون غريبة في أي مكان آخر يا أمي الطيبة. لكني هنا سعيدة معكم. لماذا أسافر؟

لا تسافري. هذه بلدنا. عرفنا، أنا وبابونياس، هذا منذ زمن.

تاهت نظرات **ثيودورا** وهي تقول في تردد:

إذن سأبقى معكم هنا يا أمي.

احتضنتها العمة **ماري** بقوة. ولم تجد **دروتا**، المتشوقة للسفر، ما تقوله. هي تحب هذه المدينة **كثيودورا**، وتكرهها في ذات الوقت. يخيفها ما يحدث من أعاصير السياسة. قبل خمسة أشهر وصل حكمدار البلاد الجديد، الذي كان حاكماً لسواكن حين نزلوا بها، لمواجهة تمرد ناشئ. والأب **بولس** كلما رجع من مبنى الحكمدراية عاد أكثر قلقاً. هناك مصيبة تتكوّن. لكن أحداً لا يعرف ما هي. أمطار ذلك العام كانت كنذر الموت. قلب **دروتا**، الفرح كهرة، كان يرجف فزعاً من الغد. لكنها لم تعرف كيف تثني **ثيودورا** عن قرارها المضطرب.

سأبقى يا دروتا.

ما في يدها شيء. تسافر **دروتا** وحدها في مارس. تاركة صاحبتها

في المدينة التي تغزوها الشائعات. الإضطرابات تتزايد. أخبار عن ثورات تجتاح مدناً بعيدة. متعصب مسلم يدعي أنه مبعوث من الله لحرب الكفار. يقال إن **هورتنسيا** وقعت في الأسر. لا شيء مؤكد. لكن **ثيودورا** تصمم أن هذه بلدها الوحيدة التي لديها فلماذا تتركها وتذهب.

تودع، متجلدة، صديقتها والأسقف **أنطونيوس** الذي ترك مسئولية الدار للأب **بولس** واثنتين من الأخوات.

وتبدأ، بعد عامين وشهر، في الخرطوم حياتها الجديدة. هي مواطنة لا عابرة.

هنا ستعيش وتخدم الرب وتلقى سعادتها. لا تريد غير ذلك.

وحين عادت مع العمة **ماري** من وداع المسافرين نذرت أن تصبح قديسة هذه المدينة.

أما نفسها فراودتها أنها واجدة في موج النهر ما ينسيها غزل بحر الإسكندرية. لكنها ردعت وساوسها بقوة.

لا شيء غير خدمة الرب. من هنا سأدخل ملكوت السماء.

11

"الْمَزْرُوعُ عَلَى الأَمَاكِنِ الْمُحْجِرَةِ هُوَ الَّذِي يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، وَحَالاً يَقْبَلُهَا بِفَرَحٍ"

(إنجيل متى 13: 20)

12

فضل العزيز عجوز خفيفة العقل. مضغتها أسنان الزمن فتركتها كتلةً سوداء متغضنة. ليس في جسدها موضع مشدود. كلها تجاعيد مصفوفة. خدمت في دار البعثة من أول يومٍ أُنشئت فيه. وقبلها خدمت في عدة بيوت تركية وأوروبية ومصرية. وعملت، حسبما تدعي، مع فرقة الغوازي المصرية لكن **ثيودورا** لم تصدق قط أن هذه العجوز كان لها ملاحة تؤهلها لذلك.

أغلب ما تفعله في الدار خاطئ. والخادمات الأربع اللائي تشرف عليهن يقمن، في الحقيقة، بتدارك أخطائها وتصحيحها طوال الوقت.

لكنها، من الشهر الأول، كانت معلمة **ثيودورا**. في ذات أمسية نظرت إلي الفتيات الجالسات في الصالة الواسعة واختارت **ثيودورا** من بينهن لتقول لها:

أنت أيتها الصبية!! أنت لا تحسنين الكلام.

كانت مفاجأة **لثيودورا** ولكل الأخوات.

ما هذا الكلام الذي تتكلمينه؟ سأعلمك الكلام. أنت جميلة فلا يحسن أن يكون بك عيب كهذا.

تقلدها ساخرة:

هائولك الحنيئة يا قميل!

بعد جهد فهمن أن **فضل العزيز** تحتج على لهجة **ثيودورا** المصرية. حاولت **ثيودورا** أن تشرح **لفضل العزيز** أنها لا ترغب في تغيير لهجتها، وأن التفاهم تام بينها وبين من تتعامل معهم بلهجتها هذه. لكن **فضل العزيز** كانت مصممة كخفاش أعمى. طاردت **ثيودورا** في كل مكان. وحين كانت تتحدث عنها أو تشير إليها في كلام كانت تصفها بـ "الصبية التي لا تعرف الكلام"

اضطرت **ثيودورا**، بعد وصية الأسقف **أنطونيوس** الذي يقدّر **فضل العزيز** ونصيحة الأب **بولس**، أن تستسلم للعجوز. صارت تجالسها كل يوم ساعة أو نحوها تقبل منها تصويبات نطقها وتعلمها الكلمات والأمثال.

كوكره يعني ألقاه في مأزق. قوليها ورائي هيا. عمل الكسرة هذا اسمه عواسة. لا تنطقيها هكذا أيتها الصبية. قولي عواسة.

تشير إلى ساعدها المجروح:

هذه اسمها عوّارة. الجرح عوّارة.

حين تحكي لها الأمثال وأسبابها تنصحها:

صلي معي على النبي. الصلاة على النبي تفتح العقل للحفظ.

تضحك **ثيودورا** ولا تعرف كيف تذكر العجوز حقيقتها.

كرعيه في البحر وفاتح خشمو للمطر. هو الطامع الذي يغطس في البحر لكنه يريد أن يستزيد من ماء المطر. هل فهمتِ؟ لن تفهمي وأنت لا تصلين على النبي. الرجل اسمها كراع. لا تقولي "رقل"

تعلمت **ثيودورا** الكثير. كانت العجوز مفيدة رغم خبلها. **دروتا** كانت تتعجب:

لماذا اختارتك دوننا جميعاً؟

لم يعرف أحد الإجابة، و**فضل العزيز** لم تقل. لكنها نذرت نفسها لتتقن **ثيودورا** اللهجة المحلية. صارت تتكلم السودانية بطلاقة تشوبها لكنة طفولية. حرف جيمها معطَّش بلطف آسر. كلماتها سريعة تنطقها بخفة كأنما تتكفأ.

تحكي لها **فضل العزيز** أساطير البلاد، تعلمها العادات، وتنقل

لها خبايا الأحياء الشعبية الفقيرة. حدثتها عن مهدي الله الذي اقترب زمن خروجه. وأن الناس يجدون اسمه مكتوباً على بيض الدجاج وأوراق الشجر. تضحك **ثيودورا** وتقول:

لكن شجر حديقتنا لم يُكتب عليه شيء.

تقول **فضل العزيز** في شمم:

أنتم كفار لذلك أشجاركم نجسة. الملائكة لا تكتب هذا إلا على شجر المؤمنين.

تسألها **ثيودورا** إن كان مهدي الله هو المتمرد الذي يزعج الحكومة في أطراف البلاد. تجيبها:

السر يعرفه الله. لو كان هو مهدي الله فسيدخل هذه المدينة ويذبح الكفار ويقيم العدل.

الكفار يعني نحن يا فضل العزيز؟

طبعاً أيتها الصبية. سيذبحكم ويوم القيامة تدخلون النار.

وأنت يا فضل العزيز ستتركينه يقتلنا؟ ألا تحبيننا؟

تقطب العجوز وتقول:

أنا أحبكم وأحبك أنت بشدة أيتها الصبية. لكن من يقول لمهدي الله لا؟ هذا أمر الله. علينا أن نقبله.

تقول **دروتا**:

هذه عجوز مخبولة.

حين ودعت **ثيودورا** قالت لها بين دموع الفراق:

خذي حذرك. هراء فضل العزيز ربما كان قريباً. المتمردون المسلمون يتقدمون.

سينتهي كل هذا قريباً يا دروتا. الحكومة قوية ولن يهزم بعض البرابرة السود الحكومة.

الأسقف **أنطونيوس** أهداها مسبحة حباتها من الخرز الأسود. أوصاها بالصلاة والإشراف على مدرسة الإرسالية مهما حدث. قال لها:

أنا أثق بك.

قبّلت يده وطمأنته:

لا تقلق. ستهدأ الأمور.

حين ذهبوا بعثت **ثيودورا** معهم رسائل لأسرتها في اليونان. فكرّت أن تبعث **لغيورغيوس**، ابن بائع الزيتون المخلل، تخبره أنها مازالت تذكر خطيئته لكنها سامحته وتدعو الرب ليغفر له وينير قلبه. لكنها لم تجد مبرراً لهذا. لم تخيفها الغيوم الكثيفة التي تحتشد

في أفق البلاد. والعم **بابونيوس** والعمة **ماري** كانا معها في الرأي. لن يحدث شيء.

لكن مع دخول عام 1884، بعد نحو عام على سفر الأسقف **أنطونيوس ودروتا**، بدا أن هراء **فضل العزيز** يمكن أن يصبح نبوءة مخيفة.

حاكم انجليزي جديد نزل بالخرطوم في بداية العام. البطل الإنجليزي الشهير غردون. فرح الأوروبيون بمقدمه. هذا بطل من أبطال الإمبراطورية. لم يهزم قط. له سابق خبرة بالخرطوم؛ والسودانيون يحبونه. حاول إخلاء البلاد من الجند المصريين والجاليات الأوروبية لكنه فشل. المتمردون احتلوا أغلب البلاد. أرسل قواته القليلة للقتال لكنها أينما ذهبت عادت بالهزيمة، أو لم تعد.

ذات ليلة سمعت **ثيودورا** العويل يمزق المدينة. هرعت حافية إلى الطابق الأسفل تستطلع الخبر. وجدت العاملين في الدار يقفون وجلين. الذعر على كل الوجوه. أخبرها الأب **بولس** أن قوة من خمسة آلاف مقاتل خرجت للقاء المتمردين فذُبحوا جميعاً. لم يرجع منهم أحد.

فضل العزيز كانت فرحة بالخبر. قالت لهم:

هذا جيش مهدي الله. لا يمكن هزيمته. سيذبحكم جميعاً باذن الله. ادعوا الله أن ينصره على الكفرة.

وحين انتصف شهر أبريل من ذلك العام كانت المدينة محاصرة تماما بالآلاف من المتمردين الدراويش، ومعزولة كليةً عن العالم.

وقفت **ثيودورا** في غرفتها تنظر إلى نيران القوات المحاصرة التي تضيء في الظلام. سجادة من النيران الملتهبة. وفكرت قلقة أن **فضل العزيز** كانت تتكلم بصوت الرب. سيدخل جيش المتمردين المدينة ويذبحهم جميعاً.

السابع

1

ينتظر أن يتذكره أحد ليُطلق سراحه. حين عرضوه على القاضي حكم عليه بالسجن دون تحديد مدةٍ.

خادعه أمل أن حبسه لن يطول. شهر أو شهران. جريمته التي حاسبوه عليها لا تُذكر.

أمسكوا به مترعاً بالخمر في شوارع المدينة التي أصبح كل من فيها سكير ليل مجاهد نهار. كان يصرخ باسمها. في قبضته سيف لا يذكر من أين جاء به. كان يتخبط في الطرقات ويصيح. يستغيث مهدي الله العالي في جنات الخالق أن يطفئ نار جوفه. لكن النار ما انطفأت، والكابوس أطبق على روحه فلم يبرح.

ضربه العسس وجرّوه على الأرض إلى بيت القاضي. استيقظ

من النوم ضجراً متعكر المزاج. استمع للعسس، نظر إلى حاله ثم أمر بقذفه إلى السجن وعاد للنوم.

قال **بخيت** للأب **جوهانس**.

أعرف أني لن أظل هنا طويلاً.

قال الأب **جوهانس** بحنو:

يا بني! لا ترهق بالأمل نفسك.

لمّا أنزله حراس السجن عن عموده وحشروه في غرفة العجائب كان ينزف غزيراً. ما كان يبالي أن دمه تسرّب كثيراً. كان يفكر جزعاً:

هل أفقد حبي لها مع دمي؟

أحاط به، في غرفة العجائب، المساجين القلة. كلهم بيض لوثتهم قاذورات السجن، وسواده بينهم كضحكة فجّة.

ضمدوا بخرق جراحه. وعندهم وجد منقوع شعير بارد سقوه منه. قال له **رفعت أفندي السلاموني** إن **التومة** هي من تعده لهم. مقابل ثلاثة ريالات أسبوعية تزود **التومة** الغرفة بكل ما يحتاجونه. تحضر الويكة والكسرة والشعير واللبن والقهوة وبعض اللحم إن تيسر. بالغرفة ثلاثة مصريين ونمساوي ومغربي مخبول.

يرتدون، جميعهم، جلابيب مهدوية مرقعة. الأب **جوهانس** كان من رآه على عموده وسأل عن خبره. أحزنه حاله ونوى أن يحسن إليه. رشا الحرس فأنزلوه إلى معيتهم. زنزانة لستة أشخاص هي جنة في سجن الساير. لما فتحت البيبان صباحاً دخل عليه **جوهر** قلقاً. لكنه وجده في خير رعاية. طمأنه الأب **جوهانس**:

يا بني كلنا أبناء الرب. سنعتني بصاحبك فلا تقلق.

آواه الأب **جوهانس** إلى كنفه. أشفق على تلك الروح المعذبة التي يراها في عينيه الصافيتين. حين تحضر **التومة** الطعام يخصه بنصيب وافر ويتأمله بمودة وهو يأكل. المغربي يأكل وحيداً في أقصى الغرفة. **جوهر** إن زارهم يخافه ويتحاشاه. قال **لبخيت**:

هو لا يتكلم كثيراً. لكنه إن تكلم زعم أنه نبي الله عيسى. سيأمر القاضي بقتله في أي لحظة فلا تقربه. ربما ظنوك مؤمناً به فتجد نفسك معه معلقاً على مشنقة السوق.

يسمع نصيحة **جوهر**، يجهد أن يستمسك بها. لكن ماذا يفعل مع الفضول؟

يقترب ليلاً من المغربي تحت أنظار رفاق الغرفة الباسمة. يجلس جواره ويسأله عن اسمه.

المغربي لا يجيب. يناوره بذكر مغاربة عرفهم، قديماً، في

الخرطوم. أصدقاء لسيده التركي. لكن المغربي شارد كأنه ليس هناك. ينظر محتاراً إلى الأب **جوهانس**. يضحك ويقول له:

لا تحاول. لا يتحدث إلا حين يرغب. وإن فعل سمعت عجباً.

يزحف مبتعداً عنه. يقول له **رفعت أفندي السلاموني**.

قد عرفت سيدك عبد اللطيف أفندي مظهر. كان رجلاً طيباً رحمه الله.

ما كان **بخيت منديل** يجرؤ على وصف سيده القديم بطيبة القلب. الندوب على ظهره ما كانت تسمح له أن يصفه بذلك. لكنه لا يعترض.

يقول **رفعت** أفندي:

آخر مرة رأيته حين أقام دعوة كريمة لنا، استقدم فيها فرقة الغوازي التي قدمت فصولاً تمثيلية وأدواراً مضحكة.

يتذكر معه **مصطفى شاكر**، الذي كان مدير الحمام العمومي، تلك الدعوة:

كانت فصولاً جميلة. مازلت أحفظ منها أشياء. وحضر معنا الدعوة المغفور له غردون باشا. كان يضحك بمرح رغم الهم الذي يحيط بالمدينة.

ترى أين ذهبت الغوازي؟

يقول **مصطفى شاكر**:

رحلن قبل سقوط الخرطوم كما عرفت.

محمود الجرجاوي صامت. فهو ما دخل الخرطوم ولا رآها. دخل بلاد السودان قبل عامين وبضعة أشهر فأمسكوا به في بربر وحبسوه بتهمة التجسس.

يهمس الأب **جوهانس** لـ**بخيت**:

هؤلاء المصريون. لا يكفون عن التحسر وذكر الماضي.

يتنبه **بخيت** أنه ما سمع الأب **جوهانس** يتحدث عن ماضيه. يسأل **جوهر** إذ لا تخفى عنه في السجن خافية. يقول له:

كان أبونا الخواجة أحد المبشرين في الخرطوم. أمسكهم أنصار مهدي الله هناك وجلَبوهم إلى أم درمان. رفاقه مات بعضهم وفر بعضهم وهدى الله إلى الإسلام بعضهم. أما هو فبقي على كفره رغم طيبة قلبه.

هو بقية من أحبة إذن.

لا عجب أن رق له.

هل أنت من أرسله إليّ؟

هل عرفك في عذابي فأولاني عطفاً؟

يقول بخيت متعجباً:

ما أغربهم هؤلاء النصارى. طيبون لكن مثواهم النار.

وبياضهم القبيح. حرمهم الله جمال اللون ومنحهم طيبة القلب.

بخيت منديل ما عاد يذم البياض. قبل أن تغزوه كان يتعجب كيف شوه الله هؤلاء الناس. أجسادهم مسلوخة تكسوها حُمرة. أعينهم كقطط خبيثة. ورائحتهم نحاس صدئ. يوم داهمته بثينة كاد يقئ عليها. رائحة التركية، ابنة سيده الغليظ، ثقيلة عطنة. عيناها طالما طاردتاه بنظرات لم يعرف لها تفسيراً. حين يقف في فناء البيت لا يستره إلا سروال قصير كانت تمسح صدره بابتسامتها. ينتابه القلق. يوم قررت الصبية ذات الأربعة عشر عاماً أن تهجم كان ينقل أثاث الغرفة الشرقية في سرايا سيده إلى غرفة أخرى. دخلت عليه وأغلقت خلفها الباب. تحفز متوتراً. قاربته وتحسست صدره العاري. قالت وهي تلهث:

يا للجمال.

تراجع خائفاً. لكنها تقدمت نحوه وعيناها تلمعان بالرغبة:

- أنت قبيح. قبيح لدرجة أنك جميل. يا الله!!

ماذا تأمرين يا سيدتي؟

حشرت أصابعها بين سرواله وجسده. قالت:

أنت لست إنساناً. أنت وحش. خذني.

ضمته إلى صدرها فاخترقته. جسدها فاجر البياض. رائحتها صدئة. يكره لون البيض ورائحتهم.

مدت يدها تبحث عن رمح ذكورته. قبضت عليه فشهقت. قالت:

أقسم أن ماءك به دود. أريده.

أحس أمعاءه تضطرب. لما أسقطت رداءها اقشعر من مرأى حلمتي صدرها. حمراوان كبثرتين.

يقول **لجوهر** وهو يتذكر ما تعلمه بعد ابنة سيده:

ليس كل البياض قبيحاً.

ينظر إليه **جوهر** متعجباً. يقول:

ياللنصرانية التي أفسدت دماغك. كيف تجد في لونهم ما يُعجِب؟

يجيبه ساهماً:

يا جوهر كلنا أبناء الرب.

يفزع صاحبه ويهتف:

يا مهدي الله!! أنت تتكلم كالنصارى.

يلتفت إلى صاحبه الوجل. يقول:

لا عجب يا صاحبي. فهي في دمي. لكني أخشى أن أكون نزفت بعضها معه.

2

عرفاناً بالجميل نذر **بخيت** نفسه رسولا لرفاق زنزانته إلى **التومة**.

إن طلبوا شيئاً هب مسرعاً يبحث عنها لتوفره لهم. يمر بين الغرف المبعثرة. يرسل التحايا للسجناء، يمازح بعضهم ويتجنب بعضهم. يخشى انتقام الجهادية رفاق **يونس ود جابر**. يحذرهم رغم أن **يونس** غادر السجن بعد أسبوع من نزوله عن عمود عذابه.

قال له الأب **جوهانس**:

أنا أعرف يونس منذ سنوات. إنه فتى طيّب.

لكن **بخيت** ما اهتم بشهادة الخواجة النمساوي. قال في نفسه:

ماذا يعرف أبونا الخواجة عن ابن الكلب؟

ما وخز قلبه أن معرفة الأب **جوهانس** به ذكرته معرفتها به.

ما بال يونس يحاصرني؟

ملعون إن لم أفك حصاره بدم.

التومة امرأة حنطية اللون، ضخمة البنيان، جسدها لين كأنما حشوها سمن. مؤخرتها رجراجة لعوب. يدخل عليها سقيفتها ويمليها طلبات رفاقه. تهش له وتوده. كلما جاءها سألته مراودة:

ألن تزورني يوماً لغير طلبات النصارى؟

يعبس ولا يجيب. وهي لا تفتر عن السؤال.

يستغفر ملاكه. يشكو إليها ما يلاقي. وهي تواسيه حزينة حين تزوره ليلاً في الزنزانة يحفها ضباب.

لا أريد امرأة سواك يا حواء.

لا تحزن يا بخيت. بحقي عليك لا تحزن.

يمد أصابعه عبر شقوق الباب. يهمس لها:

أريد أن ألمس شعرك.

تقطب. يسمع أنفاسها تحتشد خلف الباب. يتوسلها:

أرجوك.

تنزل خصلها البندقية على أنامله. يتحسسها ولِهاً. ينتشي. حين يسترد أصابعه تفوح منها رائحة المسك فيخشى أن توقظ رفاق غرفته.

رأيت يونس هنا.

أعرف.

سامحيني. سأقتله.

كان قديماً يقول لها ذات القول حانقاً. يرجف غيرةً ويصرخ أنه قاتله. تنقبض عنه. تقول في شراسة:

لماذا؟ ليس من حقك. ماذا تريد مني؟

يبهت. يقول متوتراً:

تعرفين.

لا أعرف. كل ما أعرفه أنك تزعجني. لماذا تحاصرني؟ لماذا يزعجك يونس؟ ما دخلك بي.

يحاول أن يعتذر لكنها لا تقبل.

اذهب. لا أريد أن أراك. لا تتعرض لي بعد هذا.

تدفعه خارجاً وتغلق الباب دونه. مرات لا يذهب. يبقى جالساً خلف باب الحوش منتظراً حتى يستيقظ الفجر. فيذهب مرغماً خشية الفضيحة. تغيب عنه أياماً. ربما قابلته أمام نصبة **إدريس النوباوي** في سوق الخضار فلا تكلمه. يفور وجهها بالغضب. لكنها بعد أيام تهمس له حين تمر جواره:

أليس لهذا العذاب من نهاية؟

يرجف، يكاد يفضح أمرهما. يتماسك بعناء ويسأل:

أي عذاب؟

تتنهد قائلة:

هذا الذي نحياه. ألن يموت خليفتكم هذا أو يخسف الرب بالمدينة فنرتاح؟

يزغرد قلبه بالسماح. يعاهد نفسه ألا يغضبها مرة أخرى. لكنه كلما عاهد نكث. وهي لا تفتر من الغضب والسماح.

جرؤ يوماً أن يسأل الأب **جوهانس** عن بعثته.

أجابه باقتضاب:

كنت في إرسالية الكاثوليك في حي الجامع.

يرجف قلبه ويشم فيه رائحة المسك. سكن حي الجامع جوارها. لو يأذن له أن يُقبّل يده.

لكنه، لتعاسته، يعرف **يونس ود جابر** مثلها.

لا بأس. فسيقتل **يونس**.

لن تغضب منه هذه المرة.

3

يمتص القلق الخرطوم وينفثها دخاناً. نزل الهم بكل بيت. الأوروبيون الذين بقوا، بنحسهم، لا يعرفون ما يخبئ لهم الغيب. لكنهم موقنون إنه شر واقع.

يسري الأب **جوهانس** في دار الإرسالية يتفقد المؤن القليلة التي بقيت. يراجع أرادب الذرة والبسكويت المخزّن في قبو الدار. طال حصار المدينة. الجوع يمشي في شوارعها، ويتبعه الخطف والإعتداء. خرج البرابرة السودانيون من جحور أحيائهم البعيدة ليغزوا حي الحكمدارية وحي الجامع. يهاجمون المنازل بحثاً عن

طعام. الإرسالية تحكم غلق أبوابها خشية المداهمة. لكن أخبار السطو على البيوت القريبة تخيف من بها. نهب البرابرة قصر علي خلوصي. أخذوا حتى الأثاث. القنصليات استعانت بجند لحمايتها. نصحه قنصل بريطانيا أن يفعل مثلهم لحماية دار البعثة. الأب **بولس** قلّد القنصليات لحماية دار الأرثوذكس. لكن الأب **جوهانس** فضل توفير الأموال القليلة التي بقيت واكتفى بحكم إغلاق الأبواب الحديدية الضخمة.

يخرج كل يوم لزيارة الحكمدارية والاجتماع بالباشا. يجد القناصل وكبار الأوروبيين وعلية القوم من أهل البلاد هناك. يرجعون حاملين وعوداً بقرب انقشاع الغمة. حملة الانقاذ قادمة من القاهرة. يمشي الأب **جوهانس** رفقة الأب **بولس**. يسأله:

هل تصدق؟

ربما هو صِدق.

يزفر الأب **جوهانس** حانقاً.

أظنه وهماً يا بولس. لا يبدو في الأفق أمل. الخرطوم تختنق بحصارها.

لا تقلق. لن يضيعنا الرب.

عصراً يقابل العم **بابونياس** في مقهى اليوناني جورج تنسياري.

يجلسان على كراسي القش واجمين. الجميع لا يفكر إلا في الموت. كلما التقى الناس نظروا إلى بعضهم كموتى. يطلب العم **بابونياس** قهوة مرّة. يسأل الأب **جوهانس** عن طلبه. أمعاؤه لا تتحمل. يتبادلان القلق. لكن العم **بابونياس**، رغم احتراقه بالهم مثله، يتشبث بثدي أملٍ لا يدر حليباً.

هذه بلادي يا أبونا. لن تؤذيني.

هي بلادك يا بابونياس.. لكن هؤلاء الدراويش خطرون.

لا يا أبونا. لن يفزعني حفنة من البرابرة. لقد رفضت أن أفر مع من فروا من المدينة. لن اترك بلدي لهؤلاء السود الهمج.

يقول الأب **جوهانس** متحسراً:

ما عاد لنا خيار هرب يا بابونياس. كلنا باقون هنا حتى لو لم تكن بلادنا مثلك.

يصدر الأب **جوهانس** تعليماته للعاملين في دار البعثة ألا يفتحوا الأبواب بعد المغرب مهما حدث. لا يمشي في شوارع المدينة ليلاً إلا الموت. توقفت فصول التدريس، وأعلن تأجيل العظات الأسبوعية حتى يطلع صبح الخلاص. لكن الليل استطال وتكاثف.

زاره العم **بابونياس** غاضباً مهتاجاً.

هل سمعت الخبر؟ هؤلاء المصريون الملاعين.

لم يكن الأب **جوهانس** يعرف شيئاً. كان مغتماً بأخبار سقوط مدينة الأبيض وأسر من بها. مشغول بالصلاة للرب لينقذ أرواح أفراد البعثة هناك.

كشفت الحكمدارية جمعية سرية لمعاونة الدراويش. جماعة من المصريين. اسمها الجمعية الوطنية. بها بعض المخابيل أتباع عرابي خرا.

أتباع عرابي باشا هنا؟ في الخرطوم؟ بعد كل هذه السنوات؟

شتم العم **بابونياس** وقال حانقاً:

تصور!! يتجسسون على دفاعات المدينة ويراسلون الدراويش.

فزع الأب **بولس** إلى الحكمدارية ليقف على الخبر. قابل في البهو الخارجي مستر باور مراسل التايمز البريطانية. كان مذعوراً مثله وأكثر. أخبره أن بعض المصريين المنفيين إلى الخرطوم بتهمة تأييد هوجة عرابي أنشأوا تنظيماً سرياً لدعم المتمردين السودانيين. عرف منه أن الجمعية السرية حاولت الاتصال بجماعة من علية القوم من أهل البلاد. لكن أحدهم وشى بها.

لابد أن يكرمه غردون باشا. هذا ليس واشياً. إنه بطل.

سأل عنه. فقيل له إن اسمه الشيخ **إبراهيم ود الشوّاك**.

خرج يبحث عنه. قيل له إن دكانه في السوق الإفرنجي. طاف يسأل حتى عثر به. شيخ في أواخر الخمسينيات من عمره. قصير يرتدي جبة قطن فاخرة. عيناه حادتان كموس برّاقة. عرّفه نفسه. قال الشيخ **إبراهيم**:

أعرفك يا أبونا فأنت غني عن تعريف.

يدخل دكانه. محل أعلاف واسع. تصطف على جنباته الجوالات. به دكتان من الخشب وكرسي.

جئتك مواطناً أوروبياً أشكرك على الخدمة الجليلة التي قدمتها للبلاد. ما جئتك بصفتي قسيساً يا أخي.

ابتسم الشيخ **إبراهيم**.

لم أفعل شيئاً. إنهم الناس يقولون.

رجل متواضع. عرفت من الحكمدارية إنك من أبلغ عن الخونة.

اربدت عينا الشيخ **إبراهيم** لو هلة قبل أن يشرق وجهه بالابتسام ثانية.

يا أبونا لا تصدق كل قول. في هذا الحال السيء تكثر الأقاويل ويُنسب للناس كل حسن وقبيح مما لم يفعلوه.

احتار الأب **جوهانس**. لكن الشيخ **إبراهيم** لم يمهله ليسأل أكثر.

زيارتك، بغض النظر عن سببها، تستحق إكراماً يا أبونا.

نادى على أحد العاملين لديه. أمره:

اذهب للبحث عن عبد القيوم ولدي. قل له أن يسبقني إلى البيت لتجهيز الغداء. سيكون أبونا جوهانس ضيفي اليوم.

تمتم الأب **جوهانس** شاكراً. حاول الاعتذار. لكن الشيخ **إبراهيم** قال له باسماً:

لا مفر يا أبونا. كما أني أريد ان أسمع منك بعض الأخبار التي لابد أنك تعرفها خيراً مني. رجل مطلع مثلك سيبعث بعض الطمأنينة لدى عامة الناس مثلي.

ابتهج قلب الأب **جوهانس**. لم يحبس عن الشيخ **إبراهيم** معلومة يعرفها وهو يؤاكله في بيته. معلوماته ما كانت تبعث الطمأنينة لكن الشيخ **إبراهيم ود الشوّاك** تلقاها باحتفاء.

المدينة تموت. الباشا الإنجليزي مجنون. القاهرة تعد ببعث حملة إنقاذ لا تأتي. المؤن تتناقص والمجاعة تحتشد لتغرقهم. دفاعات المدينة مقلقة، وبوابات السور لن تصمد طويلاً. البرابرة السودانيون يتذمرون ويتكلمون عن الكفرة الأوروبيين ويصفون الدراويش ومهديهم بأنصار الله.

في طريق عودته كان الأب **جوهانس** راضياً عن نفسه. فرغم إنكار الشيخ **إبراهيم** بطولته لكنه واثق أنه شَرُف بلقاء رجل مخلص قدّم للمدينة خدمة بإبلاغه الحكمدارية عن جمعية الخونة.

أما الشيخ **إبراهيم ود الشوّاك** فكان سعيداً أن عرف ما يكسب به رضا الدراويش المُحاصِرين في ذات اليوم الذي كسب فيه رضى الحكمدارية المُحاصرة.

4

المدينة عارية من الطمأنينة. ليلاً تترقب. حتى الهواء يتخبأ حذِراً.

سمع الجميع الألحان. آلات النحاس تعزف من سرايا الحكمدارية. ألحان حزينة كأنها النُذُر.

حين سمعها تدق على نافذته هرع الأب **جوهانس** ليفتحها. تدخل الأصوات إلى الغرفة. أطرق خاشعاً. ألحان أسكتلندية نائحة. قبضت الكآبة روحه. اعتصرت قلبه فدمعت عيناه. عرف أنها رثاء المدينة.

تطير الألحان لتمس قمم الأشجار. تسري في البيوت التي فُتحت

نوافذها لاستقبالها. تتلوى مع النهر. تلسع القلوب. لماذا اختار الباشا هذه الألحان لهذه الليلة؟

المدينة ترجف. يكسوها يأس حزين.

وحين صمتت آلات النحاس اندلق صمت كثيف. صمت موجع.

الكون كله أصابه الخرس.

ثم انفجرت صواريخ المهاجمين في سماء المدينة.

5

يحكي **بخيت** لرفاق الزنزانة المصريين أخبار أسره في ريف مصر. يسرد عليهم أشعار المجنون التي حفظها عن سيده. يضحكون من الساذج الذي كانه. يهونون عنه ما لقي من ذلِ هناك. يسألهم عن **يوسف أفندي سعيد**. لا يعرفونه. ينشدهم أشعار مجنون ليلى التي حفظها منه. يحدثهم عن ذهوله من مدينة القاهرة.

واسعة. نظيفة. الناس فيها يلبسون ثياباً غريبة ويتكلمون بطريقة أغرب.

يحدثونه عن تاريخ ما يذكر من معالم. يمدحون الخديو. يذكرون مصر بحنين فائض.

يقول **بخيت** للأب **جوهانس**.

عرفت فتاة من الكنيسة.

يرفع الأب **جوهانس** عينيه إليه.

عرفتها في مصر؟

عرفتها هنا في أم درمان. كانت تعمل في إرسالية الأرثوذكس قبل فتح الخرطوم.

يقول الأب **جوهانس** مهتماً:

أعرف كل اللائي عملن في إرسالية الأرثوذكس قبل سقوط الخرطوم. هل تذكر اسمها؟

وهل يذكر غيره اسماً؟

قلبه متوضئ بحبها. طاهر بشوقه. وإلا ما نطقه.

وجم الأب **جوهانس** وغشيت وجهه كآبة.

ليرحم الرب روحها. أعرفها. كانت كابنة لي.

ليرحم الرب روحها. كيف لو عرفت؟

يترقرق في عينيه الهوى. يقرأ الأب **جوهانس** حزنه. تعابثه الدهشة. هل من الممكن؟ للرب تصاريف يعلمها. رعايته قد تكون عبداً أسوداً. يتذكر قول الرب "عنايتك أيها الآب هي التي تدبره، لأنك أنت الذي فتحت في البحر طريقاً، وفي الأمواج مسلكاً آمِناً، وبَيَّنت أنك قادِرٌ أن تُخَلِّصَ مِنْ كل خطرِ لعله كان مسلكها، معينها على ما لقيت. ربما هو نسمة رطّبت عنها حر عذابها. ينظر إلى سواده. يتذكرها بيضاء مشرقة كصباح عيد الميلاد. يقول لنفسه:

كلنا أبناء الرب.

عينا الأب **جوهانس** تحتشدان بالدمع. لكن **بخيت** لا يضعف. يجتمع حزنه داخله عزماً. الثأر.

وهو ينظر مذنباً إلى الأب **جوهانس** يتأكد تصميمه. تتجمع في رأسه الأسماء. لن يُفلت منهم أحداً. صغُر ذنبه أو عظم.

يزحف **محمود الجرجاوي** إلى جواره. يحكي له عن أسره. يزعم أنه تاجر. يريه إصبعيه المقطوعين عقاباً.

أمسكوا بي في بربر. صادروا بضاعتي جميعها. ولم يسمحوا لي بإرسال خطابات لأهلي. يقولون إني جاسوس.

يقول الأب **جوهانس**:

أحسن ما فعلوه لك أنهم منعوك من إرسال الخطابات.

خطاباتنا التي نبعثها تتم قراءتها ونُستجوب عن كل حرف فيها.

لي زوجة لا تعرف إن كنت حياً أم ميتاً. لا أطلب إلا أن يرحموها.

يهم **بخيت** أن يحكي له قصة زوجة **يوسف أفندي سعيد** التي أحبت جارها. لكنه يُمسك. لن يواسي الرجل بهذه الحكاية.

يلطم **محمود الجرجاوي** رأسه وخديه ويبكي. يجهدون في سلوانه. لكنه يتكّور على نفسه كرضيع في الركن وينشج.

يقول الأب **جوهانس لبخيت**:

هذا حاله. كلما ذكر زوجته وعياله بكى. سيقتله الحزن يوماً.

يسأل **بخيت** همساً:

هل هو برئ حقاً؟

لا أدري يا ولدي. لا يوجد عاقل يخترق الحدود حتى بربر لمجرد التجارة. هو إما جشع أو غبي أو جاسوس.

ينبهه **مصطفى شاكر** لموعد الصلاة. يخرج معه إلى حوش السجن. يجتمع السجناء، الذين لم يخرجوا للخدمة، للصلاة عند الحائط الشرقي. يصطف **بخيت** جوار **مصطفى شاكر**. يبحث

عن **جوهر** فلا يراه. يُغرق همه في الصلاة. يسأل الله عن وقت خروجه. كاد شهره الرابع ينقضي.

فرغوا من صلاتهم. التفت فرأى الحراس يقفون بعيداً يراقبون متحفزين. أمسكه **مصطفى شاكر** من يده وساره معه ناحية سقيفة **التومة**. كان يتبسط معه في الحديث ويسأله عن مصر ومقاهيها. كلما حكى **بخيت** ضحك **مصطفى شاكر** وصفّق. يهتف:

انت مش معقول يا بخيت. يخرب عقلك يا راجل.

ليس فيما يحكيه ما يضحك. يفكر أن المصري سعيد بذكر الوطن لا غير. هكذا الأشواق تعبث بالمشتاقين. تحيلهم أطفالاً.

لم أر مصر منذ أربعة عشر عاماً. لكني لا أملّ الحلم أن أراها مرة أخرى.

يصلان سقيفة **التومة**. تلقاهم مرحبة. يفارقه **مصطفى شاكر** ويقترب منها هامساً. تطقطق لسانها معترضة وتقول:

زوجي في إجازة اليوم.

تدبري أمرك.

يضع في يدها أربعة ريالات مجيدية، فتصمت مفكرة.

تهتف **ببخيت**:

هل لك في مصلحة؟

ماذا تريدين؟

تقترب منه.

أعطيك خمسة قروش إن وقفت على باب السقيفة لتؤمّن الطريق.

يفزع **مصطفى شاكر**.

يا شيخه. هنا؟

كل ظل جيّد يا مصري.

يرفض **بخيت** بلطف. لكنها تتشبث بذراعه قبل أن يذهب.

لا تجبن. فقط إن سمعت أحداً يقترب عليك أن تتنحنح. سأعطيك خمسة قروش لهذه المهمة الهينة.

ينظر إلى **مصطفى شاكر** فيرى التردد على وجهه. تقول **التومة**:

خمسة قروش وقدح مريسة.

يبدو العرض جيداً. يفكر. تغمزه بعينها قائلة:

- خمسة قروش وقدح مريسة وما تُحب.

خمسة قروش وقدح مريسة.

تضحك ويشاركها **مصطفى شاكر** بتوتر.

يقف على بعد أقدام من السقيفة مولياً ظهره لها. يرقب الممر المنتهي عند حوش السجن الواسع. خلفه يسمع **التومة** تنخر وصاحبه يلهث. والمكية تصلصل. يسترق النظر فيراهما متشابكين.

يلعّب القروش الخمسة في كفه وينتظر.

6

تسلل إلى بيت الخدم حذراً.

تجاوز حجرات النوم. إن أمسك به أحد سيزعم أنه يبحث عن صاحبه **صباح الخير**. لكنه لم يقابل أحداً في طريقه. لم يكن يطمع في أكثر من نظرة.

استبدت به الأشواق والرغبات. لم يستطع كبحها فجاء مغامراً. انتظر خلو الشوارع ساعة صلاة المغرب ثم تسلل. دخل البيت من بابه الخلفي ومرق إلى حوش الخدم. لا يطمع أن تحادثه. هي غضبى كعادتها. يريد فقط نظرة من بعد لعلها تروي أشواقه.

ترطّب يباس روحه. حين يرى وجهها لا يسكن الشوق لكن ينتظم عالمه وتسري في عروقه القوة. فإذا غابت أحس انسحاب الحياة من جسده. هي كالروح.

اقترب من غرفتها. وقف عند فجوة النافذة. مد عنقه ونظر. الغرفة خالية. خاطر مرعب نزل به أنها خلفه. فزع والتفت. لا أحد هناك. لكنها ربما تداهمه على غرة. قرر الانسحاب خائباً.

ثم... سمع صوت الماء. الخطر عظيم. إلا أن رؤياها تستحق المخاطرة. إن أمسكوا به فهو ميت. سيعتذر عن نفسه بالبحث عن صاحبه. لكنهم لن يصدقوا. لا يهتم. يتبع صوت الماء. حاجز من القش في ركن الحوش. مشى على رؤوس أصابعه مقترباً. نظر من فجوات القش.

اجتاحته رائحة المسك.

يا مهدي الله للمساكين!!

طارت روحه.

الماء يسيل على جسدها. عارية كبهجة متوحشة. بيضاء كحليب البلابل. شعرها البندقي مبلل يلتصق بعنقها ويتشبث بوجنتيها. عنقها طويل كغزال. ونهداها ثمرتي تبلدي.

تراجع فاقداً الصواب. تعثر وسقط على الأرض محدثاً صوتاً. سمعها تشهق خلف سترها.

لم يفكرِ. اندفع يجري.

7

أنتِ حلوة جداً.

أنتَ أخي الأسود.

8

يخرج معية **جوهر** إلى الخدمة. يبدو صاحبه قلقاً لكنه لا يُفصح.

يلح عليه. يبتسم **جوهر** ابتسامة مقتضبة.

أين مرحك وثرثرتك؟

بعد جهد يقول **جوهر**:

انظر إلى ظلي. إنه باهت.

ينظر **بخيت** إلى ظل صاحبه الطويل على الأرض.

الظل ظل يا أخي. ماذا بك؟

ليس الظل ظلاً. ظلي باهت.

عقلك هو الذي يبهت.

عامه الثاني في السجن أوشك على التمام. صارح **جوهر** أنه يفكر في الانتقام دون انتظار.

سأتعفن هنا قبل أن أقتلهم يا جوهر.

ينظر إليه **جوهر** بعينين شاردتين.

لن تجد وقتاً لقتلهم جميعاً إن هربت الآن. سيمسكون بك ويقتلونك.

أخاف ألا أجد الوقت لقتل واحد منهم. طال الانتظار. سأشيخ في سجني.

يتكئ **جوهر** إلى جدار ويحرك قدميه. تعوي سلاسل المكية في ساقيه. لا يجيب. يستطرد **بخيت**:

لكني أعرف أن قتل واحد لا يكفي. قل لي. لو كان لي أن أقتل واحداً فأيهم أختار؟

يقول **جوهر** بلا تفكير:

يونس.

يفكر **بخيت**. ثم يسأله:

لماذا هو؟

سيريحك هذا. أليس كذلك؟

يكره **يونس ود جابر** أكثر من غيره. ذكر اسمه يغرس في قلبه وتداً ملتهباً.

لكني عثرت عليه وأنقذه الله. ربما ينقذه مني ثانية. ربما لا يريدني أن أقتله.

ألن تقتله مع الستة؟

مع الستة!! سأفعل. لكني لن أخاطر بجعله خياري الوحيد.

يفكر **جوهر** في الأسماء الستة. الشيخ **إبراهيم الشواك**. **عبد القيوم** ابن الشيخ إبراهيم. **النعيم ود الحاج طه**. **يونس ود جابر**. **الطاهر جبريل**. **موسى الكلس**. يتساوون عنده. يهز رأسه في حيرة.

يزعق حارس حين يراهما يتهامسان. يندفع ويرفع يده ويهوي بالسوط عليهما. قبل أن يتقياه ينزل على خد **جوهر** فيجري دمه. يتحامى **بخيت** بساعده. يجلس **جوهر** على الأرض ويصرخ:

الله الله. في عرض المهدي.

يسبهما الحارس. يأمرهما بالصمت. لم يتقدم أحد ليستخدمهما اليوم. بقيا معروضين طوال النهار بلا فائدة. يتذكر **بخيت** يوم عُرض في سوق الخرطوم. كان بعد صبياً مراهقاً. وقف ليومين معروضاً. أكثر من شخص تفقده. يرفعون ساعده ويجسون عضلاته الناشئة. تقدم أوروبي ضخم منه. أحمر اللون كأنه مسلوق. شعر صدره يبدو من قميصه، مبلل بالعرق. كان ساخطاً حانقاً. فتح فمه وتفقد لسانه. أنزل سرواله. تفقد عضوه. أراحه على كفه وسأل التاجر:

هل هو مصاب بالزهري؟

هو سليم كنقّارة جديدة يا خواجة.

مشى بكفه على شعر **بخيت** الخشن. مفكراً. قال التاجر مغرياً:

غلام جيد. لا يبول في الفراش ولا يشخر. وسعره مناسب.

جواره صبية مثله ورجال. وفتيات حبشيات وزنجيات يلمعن بدهن الودك. أقدامهم، جميعاً، مقيدة بحبال من الليف. جاوز **بخيت**

حد الرجولة قريباً. وعلى وجهه دهشة المكتشف.

نظر الأوروبي إلى أنف بخيت الأفطس. قال:

هو قرد قبيح كما أريده. كم سعره؟

ثلاثمئة وخمسون قرشاً فقط. والبيع على العرف. تدفع خُمس الثمن الآن وتجربه ثلاثة أيام.

كثير يا دنقلاوي.

رفع التاجر كفه وأقسم أن السعر لا فاحش ربح فيه.

كلفني طعاماً منذ اشتريته بمئتي قرش يا خواجة.

داعب الخواجة أنف بخيت. سرواله ما زال على الأرض وجسده معروض.

من أين هو؟

جلبوه من زريبة في الغرب. أضمن جودته بشرفي.

تنهد الأوروبي. عيناه بريئتان رغم جسده الشرس. قبل الصفقة. دفع سبعين قرشاً وطلب تسليم بخيت في منزله.

وهو يقوده قال له التاجر الدنقلاوي موصياً:

لا تخذلني لدى الخواجة. واضح أنه لا يريدك لخدمة البيت. هو يريدك لخدمته هو. كن رجلاً.

بخيت لم يكن يفهم اللغة العربية جيداً. ما زال يتعثر بها ويتحدث لغة الجبال الغربية البعيدة. لكن لمسات الأوروبي خاطبته بلغة مفهومة. لما ناداه سيده ليلاً وجده عارياً يتمدد على وجهه في فراشه. دعاه.

تعال يا حبيبي القبيح.

في اليوم الثالث، قبل أن يرده إلى تاجره، انكسر رفض **بخيت**. لم يتحمل الجلد بالسياط وخارت قواه من الجوع. حبسه الأوروبي في غرفة ضيقة مظلمة. يدخل عليه متحشرج النفس. يحاول تقبيله فينكمش **بخيت**. يتهيج سيده ويتناول سوطه. تمطر عينا **بخيت**. في الليلة الأخيرة لم يطق صبراً. كان يمني نفسه بجَلَد ساعات ليصبح في السوق مرة أخرى. لكن عذابه كسره.

سأفعلها يا سيدي. سأفعلها.

تهلل وجه الأوروبي.

ولد طيب. ولد طيب.

لا يصبر عليه. يدعكه عجلاً. يساعده أن يدخله. يصرخ. يتكلم كثيراً بلغة لا يعرفها **بخيت**. حين يفرغ منه يرتمي الأوروبي لاهثاً ويترك **بخيت** لحزنه. يقول له منتشياً:

يا لك من قرد فحل. أنت رب القرود الفحول.

بعد خمسة أعوام من إشباع سيده يهديه **لعبد اللطيف أفندي مظهر** كاتب ديوان الضبطية. قبّله وقال له وهو يودعه:

ستوحشني يا رب القرود الفحول.

ابتهج **بخيت** بتحوله إلى عبد منزل. تحمل بسعادة عناء خدمة بيت سيده التركي. بصق على ذكرى الأوروبي الضخم ووهب إخلاصه للحظته.

حين يرجع خائباً مع **جوهر** يأوي إلى الأب **جوهانس**. يحاول أن يصل بحذر إلى ذكرها. حكى له الأب **جوهانس** كل شيء عنها مرات في العامين الماضيين. لكنه لا يمل التسلل بالحديث إليها. يدرك الأب **جوهانس** حيله. لكنه لا يبخل عنه. يحكي له رحلتهم من سواكن إلى الخرطوم. يهيم **بخيت** مع الذكريات. توحد منذ زمن مع الحكايات وصارت تاريخه. يتذكر حين ركب الباخرة من السويس إلى سواكن. يشم رائحة القهوة في مطبخ استراحة الضيوف. يرى مقام الشيخ برغوت، الذي يحيه البحارة إذا مروا به.

قبل ساعة من موعد إغلاق الغرف قطع عليه **جوهر** ذكرياته التي يحكيها الأب **جوهانس**. وقف على الباب وناداه. كان صوته حزيناً.

بخيت!! أحتاج أن أتكلم معك.

لم يكن عقله معه ليسمع شيئاً. قال لصاحبه:

غداً يا جوهر.

يصمت جوهر. ينظر إليه بخيت منتظراً ذهابه. يومئ برأسه موافقاً. يستدير مبتعداً ويقول:

أراك غداً يا أخي.

ولم يره أحد بعدها.

الثامن

1

بعد ثلاثة عشر يوماً على اختفاء **جوهر** رأى **مريسيلة** للمرة الأولى.

كان يجلس معتزلاً تنخره الحيرة والوحدة حين ناداه حارس. قام إليه بفتور.

هناك امرأة تبحث عنك.

قاده إلى بوابة السجن الغربية. مرا بسقيفة **التومة**. عبرا بيوت الحرس والمطبخ. عند نهاية الحوش الغربي وجد امرأة طويلة القامة، قليلة اللحم. شفتها مثقوبة، يتدلى منها قرط فضي. عيناها مجنونتان. جوارها صبية في الخامسة عشرة من عمرها، قصيرة ممتلئة. أنفها مستدير. شعرها الخشن مجدول بعناية. وقف عندهما

حائراً. قالت المرأة:

نطلب خبر جوهر.

يتأمل حزن الصبية.

من أنتما؟

أنا نعمة الساتر. وهذه الصبية ابنة أخته.

ينظر إليها. في ملامحها حلاوة ونضج.

أنت ابنة أخت جوهر؟

الصبية لا ترد لكنها تنظر إلى **نعمة الساتر**. تجيب عنها:

اسمها مريسيلة. أمها ماتت قبل أعوام. هلكت في سنة ستة. وبقيت الصبية أمانة عندي. كنت أحفظها لخالها حتى يخرج. والآن سمعنا إنه اختفى. جئنا نسأل فقيل لنا إنك من تعرف.

يجتر حزنه. يفكر في مسئول أكثر جهلاً من سائله. يخبرهما ما يعرف. لا شيء ينير ظلام الحيرة.

يوم كغيره. ما بدت السماء حزينة. ولا الشمس أنذرت بما هو واقع. عند العصر هبّت ريح سموم. حارة كلهب فالوقت صيف. وعند غلق الغرف صاح السجناء أن **جوهر** ليس هنا. كل الغرف اشتكت فجأة في ذات الوقت غيابه. كل غرفة كانت تذكر أنه نزيلها

وحدها. لم يعرف لماذا فجأة افتقده السجن كله.

تقول **نعمة الساتر**:

فماذا أفعل بهذه البنت؟

يتأملها.

دعيها عندك كابنة لك. ما تغير شيء.

تنخر المرأة وتشتم.

تغير كل شيء. لن أبقيها عندي إلى الأبد. خالها كان سيخرج يوماً. كنت أحفظها على أمل. أمها المجنونة لا تلزمني لأحفظها ما بقي لي من عمر.

تتكلم الصبية. تقول بشراسة:

لا تسبي أمي.

تلكمها المرأة على كتفها وتقول في غيظ:

أمّك شرموطة.

الصبية كقطة غاضبة. تقفز على صدر المرأة وتصرخ. تخمش وجنتيها بأظافرها.

لا تسبي أمي. أنت امرأة ملعونة. سأقتلك.

يتشبث **بخيت** بالصبية ويشدها. يقبض على جذعها وينتزعها عن **نعمة الساتر** الصارخة.

يا بنت الحرام. أمك بنت كلب أنجبت مجنونة مثلها.

يسيل الدم من خد **نعمة الساتر**. يمسك **بخيت** **بمريسيلة** الهائجة. صدرها مضطرب لاهث. إن أفلتها قتلت المرأة. يتوسلهما الهدوء. يقول **لنعمة الساتر**:

الصبية تلزمني. أنا خالها إذ غاب جوهر.

تنظر إليه **نعمة الساتر** مقيّمة. تمسح دمها بكفها. تقول متشككة:

جوهر كان يدفع لي ريالاً كل شهر.

عندي أنا ريال جوهر.

وتأخذها إن خرجت؟

آخذها إن خرجت.

ترفع **مريسيلة** إليه نظرة شرسة. يخاف أن تهاجمه. لكنها حين تنظر في عينيه الصافيتين تسكت. تسأله **نعمة الساتر**:

ومتى تخرج؟

يا للسؤال الذي يؤرقه. يتوسل كل يوم آمر السجن أن يأتيه بخبر. لكنه يضحك منه. يقول له:

لا تشغل بالك. أنت ملكي إلى الأبد.

يقول له:

كثيرون يخرجون. أنا هنا بلا مدة. وقد تبت إلى الله. تشفع فيّ لأجل خاطر مهدي الله.

يجيبه مستخفاً:

الشفاعة حقها مئة ريال. ولا أضمن إجابتها.

يتركه لليأس والحزن. وينصحه الأب **جوهانس** مرة أخرى:

يا بني!! لا ترهق بالأمل نفسك.

يقول للمرأة كاذباً:

قريباً.

2

مريسيلة كانت في العاشرة من عمرها عندما أكلت أمها أخاها الصغير.

سنة ستة كانت عام الجنون. أمسكت الأرض نباتها وغار بحر

النيل حتى لعب الصبية في قلبه. الجراد العظيم حجب السماء لأيام ونسيت الشمس ملمس الأرض. جاءت كُتب عمال الجيش تشكو لخليفة مهدي الله:

"وقد تزايد الضرر من جهة المعايش وعمّ ذلك الكافة صغيراً وكبيراً، مجاهداً وعائلة. حتى صاروا يأكلون الجيف ويلتقطون الحبوب من الأرض في الطرق والمزابل ومحلات الرماد. وهم الآن بحالة لو رآها سيدي لرثى لهم"

المتعففون أغلقوا على أنفسهم أبواب بيوتهم وماتوا جوعاً خلفها. الجائعون كسروا أبواب البيوت ودخلوا عليهم فأكلوهم.

عطا مِنّه أنجبت قبل أشهر طفلاً ذكراً من أحد الجهادية، لا تذكره. حاولت أن تقنع أيًّا من زوّارها أن يدعي أبوة الطفل ليكفلها وإياه و**مريسيلة**. لكن الزبائن كانوا أكثر منها مكراً.

في أسبوع جوعها الثاني قالت **لمريسيلة** وهي جاحظة:

هاتي الدلكة.

أحضرت الصبية عجين القرنفل والصندل. سلّمت جسدها لأمها تدهنها به. لمع جسدها بالدلكة وطابت رائحتها. خرجت معها إلى الشارع. تجرها **عطا مِنّه** ووليدها معلّق بصدرها الجاف. ثديها ثنية جلد متغضنة لا تدر غير مرار. كلما عبر بهم إنسان استوقفته.

عرضت **مريسيلة** على كل مار. الماشون المنهكون لم يقبلوا شراء الصبية. **عطا مِنُّه** عرضتها للبيع مقابل طاستين من الذرة. ثم حين لعقت اليأس عرضتها هبة غير مسترده. قبلها رجل يظهر عليه موات الجوع. بلهفة أمسك الصبية. **عطا مِنُّه** أرادت أن تمدحها له لكنه لم يهتم. هتف عجلاً:

قبلت. قبلت.

جر الصبية ليذهب. لكن قلب **عطا مِنُّه** أنبأها. جرت خلفه وصاحت:

ماذا ستفعل بابنتي؟

دفعها الرجل عنه.

اذهبي يا امرأة. عيالي لم يأكلوا لأيام.

صرخت **عطا مِنُّه** وهي تضربه بيدها الطليقه:

أدركوني. سيأكل ابنتي.

تجمع الناس وخلصوا **مريسيلة** من الرجل. تهيّج. صرخ باكياً:

اتركوني. عيالي جوعى يا كفره.

شدتها **عطا مِنُّه** وعادت بحزنها إلى البيت. أغلقت على نفسها غرفة البيت الوحيدة وتركت **مريسيلة** في الفناء. تسمعها

مريسيلة تبكي ليلتها. يخالط نحيبها بكاء الوليد. مزقت **عطا مِنُّه** الليلة بالصراخ. في الصباح فتحت باب الغرفة. خرجت ذاهلة إلى ابنتها. أيقظتها. دعكت وجهها ومسحت قذى عينيها. ضمتها إليها وشمّت شعرها الخشن. قبّلتها ثم قادتها إلى الباب. دفعتها خارجاً وقالت:

لا تعودي.

تهمس **مريسيلة** مذعورة:

أنا خائفة يا أمي.

تقول **عطا مِنُّه** مطمئنة:

أبوك لن يتركك. سيأتي إليك.

لم تعرف **مريسيلة** إلى أين تذهب. جلست متكئة على سور البيت. ترقب العابرين برعب. ويرقبونها بشهية. تقرقر بطنها جوعاً ويغشى عينيها دخان. لما نزل العصر قاومت خوفها وعصت أمها. قامت وأزاحت باب البيت داخلة.

في الغرفة اليتيمة وجدت أمها على الأرض، تبكي ملوثة بالدم. وبقايا طفلها الوليد في قدر نحاسية.

3

دعاه **جوهر** إلى سقيفة **التومة**. قال له إن الأكل على حسابه.

هشّت له **التومة** وقالت:

تعيس جديد. يا مرحباً. سجن السابر حلّت به البركة.

طلب منها **جوهر** أن تعد لهما عصيدة. قامت إلى الخدمة وهي تقول **لبخيت**:

لأجل خاطر جوهر كنت أُطعمك وأنت معلق إلى عمودك. لولا أن جوهر عزيز عليّ ما قبلت.

يزجرها **جوهر**:

وعدتك مع خاطري بأجر يوميتي لأسبوع.

تضحك قائلة:

وهل كان أجر يوميتك يغني عني لو أمسك بي الحرس أو عرف أبو عيالي؟

يذكرها **بخيت** في عناء عموده كطائر يدس الطعام في مناقير صغاره. يشكرها. يسألها:

هل لك عيال؟

تفرد كفها.

خمسة. زوجي، كاكوم، فحل.

يقول **جوهر**:

هو فحل وأنت لا تشبعين.

تصخب ضحكتها. تتركهما لخدمتها. **جوهر** يحكي له عن نفسه. هروبه بعد خراب الخرطوم. كيف استغاث بأمير فحرره من سيده المصري. مثل **بخيت** أصبح يخدم لقاء أجر في البيوت والأسواق.

تسمعه **التومة** يحكي فتقول:

هل أخبرته عن صهرك؟

يكشّر **جوهر**. ينهرها. تضحك المرأة وتقول:

الله للمساكين. يحسدوننا على المساجين والمصريين وأخريات يذقن حلاوة الجن.

يرمقه **بخيت** في فضول. وجه **جوهر** مكفهر كسماء خريف. يقول باقتضاب:

أختي ولدت من جنّي.

يضحك **بخيت** في دهشة وهو يحسبه هازلاً. تقول **التومة**:

من لي بليلة مع جنّي بكل رجال الدنيا.

ثم تضيف وهي تنظر إلى **بخيت**:

كلهم إلا أنت أيها الجديد.

عطا مِنُّه باتت ليلة في خرابات الخرطوم. فرّت من المدينة إذ طلبها العسس بتهمة صناعة المريسة. فزعت وعبرت بحر النيل سابحة إلى المدينة الميتة. آوت إلى خراباتها حتى الصباح. حين عادت كانت مثقلة. حكت للنسوة الفضوليات عن ليلتها. كانت تغافل همومها لتنام حين تغشّاها الجن. أبيض طويل. عضوه رمح من لهب.

لم تصرخ ولم تخف. حين فرغ منها تحوّل إعصاراً وذهب. ما صدّق النساء كلامها. قلن إنها فرّت مع خواجة كافر. قلن مشمئزات إن عمود اللهب هو عضوه الأغلف. لكن **عطا مِنُّه** أنجبت بعد ثلاثة أشهر بنتاً جميلة كليلة صيف. بُهت نسوة المدينة. لكنهن قلن إن غلفة الكفره تولد في أشهر ثلاثة.

وحين أكلت **عطا مِنُّه** طفلها، بعد ذلك بعشر أعوام، قال اللائي صدقنّ تلك الحكاية إن عقلها فسد بعمود الجني.

تهامسن:

أي أم تأكل طفلها؟ غضب عليها الجنّي لأنها أنجبت من غيره فانتقم منها.

ظلت تبكي وتعينها **مريسيلة** على النواح. مرت سحابة المساء مثقلة بدموع حزنيهما. كانت تصرخ وتصك وجهها.

عندما انتصف الليل صمتت وهي تشهق. ضاق صدرها. خلت دنياها من الهواء. احتقن وجهها. وقبل الفجر سمعتها أم درمان تصرخ ملتاعة:

يا ولدي!!

ثم ماتت حين أذّن الصبح.

4

لم يصل **جوهر** إلى غرفته.

ضاع في الطريق بين غرفة العجائب وغرفته. لم يعرف أحد خبره. وما فهم أحد كيف اختفى.

لم يمت. فالموتى تتبقى منهم جثث. ما هرب. فالحرس لا يكتمون خبر من يُهرّبون.

قيل إن الجن اختطفته. وقيل إنه ما وجد قط، إنما كان هلاوس شياطين.

آخر من رآه هو **بخيت منديل** ورفاق غرفته.

وعد **بخيت**، حزيناً، أن يراه غداً. ثم لم يوف.

غاب كأنه يوم انقضى. فلم يتبق منه سوى ذكرى حزينة بقلب **بخيت منديل**.

التاسع

1

تسألها **هورتنسيا** بحيرة:

لماذا تصبرين عليه؟

تشرد **ثيودورا** بعينيها. تستحضر حزنه العميق. ملامحه نبيلة الأسى.

لا أدري. أحس بالذنب حين أوجعه.

ليس مسئوليتك. إنه مجرد بربري.

عيناه الحائرتان كطفل. صافيتان كنهر. يحاصرها وجعه.

ليس كالآخرين. صدقيني ليس مثلهم.

يحوطها حنانه. يبذلها اهتماماً لم تعهده. يدللها أشد مما كان يفعل

البحر. عيناه تهمسان بغزل أرق من عبارات أصحاب المحلات وسائقي العربات وباعة الفاكهة السرّيحة والأفندية والصيادين ونسيم البحر. روحه بيضاء كنور القديسين. تشفق عليها أنها محبوسة في جسد أسود غليظ الشفتين. قبيح كمدينة أم درمان. لكن روحه مشرقة كالإسكندرية.

تخرج من بيت سيدها كل عصر تقصد سوق الخضار. لم تضبطه متلبساً بغياب يوماً. ملتزم هو بموعدهما غير المضروب عند نصبة **إدريس النوباوي** كل يوم. تسأله:

ماذا تفعل هنا؟

يجيبها كاذباً:

لا شيء. هي الصدفة.

لكنها تعلم أنه ينتظرها. أما هي فجاءت بها الصدفة. لا تخرج إليه. ليس لديها سبب كي تخرج إليه. هي فقط تقصد سوق الخضار كل يوم. وتمر بنصبة **إدريس النوباوي** فتجده. تحادثه لدقائق. ربما تحادثه لساعات. ثم تذهب. لا شيء هناك. هما فقط يتبادلان الحديث. يحكي لها عن أشياء لم تعرفها من قبل. عوالم لم تتخيل وجودها. أوجاع لم تسمع عنها. وهي تقرأ له من دفتر يومياتها السري. كتابات لم تقرأها **لهورتنسيا**.

حين يقول لها:

أنت عزيزة جداً.

تسمع فيها عبارات غرام بلغات لم تتخيل أنه يعرفها. تبتسم روحها.

وأنت عزيز عليّ كأخ. فكلنا أبناء الرب وأمنا المعاناة يا بخيت.

2

يوم الجمعة، بعد أحد عشر يوماً على سقوط الخرطوم، افترقت **ثيودورا** عن **هورتنسيا** ثانية.

زار مهدي الله المدينة متفقداً ما فعل أنصاره. مات عشرون ألف شخص وزيادة. نُهبت المدينة وأخذت النساء سبايا. وقف عند الزريبة التي جُمع فيها النساء. أمر بتوزيع النسوة قبل غروب الشمس. من لها زوج ترد إليه ومن ليس لها تُزوّج. أمّا الكافرات، مثلهما، فحازهما الأمراء والأثرياء.

الثائر الدرويش. يحف به أحبابه كنبي. يتكلم بصوت خافت.

عيناه وثّابتان. ومن لحيته تقطر العزيمة. كلماته كألواح موسى. تطاع في الحال.

ذهبت **هورتنسيا** مع سيدها **مالك عربي**. وأخذ **ثيودورا** الشيخ **إبراهيم ود الشوّاك**.

كانتا التقتا في الزريبة بعد يومين من سقوط المدينة، قبل أن يفرقهما أمر المهدي.

هورتنسيا هي من لمحت **ثيودورا** فنادتها. اندفعت نحوها وعانقتها بقوة. أجهشتا بالبكاء وكل واحدة تتأمل حال الأخرى. **هورتنسيا** نحلت واسوّد لونها، يكسوها القمل. جلدها صار قاسياً خشناً. عيناها الزرقاوان مسكونتان بالذعر. رأت في العامين الماضيين ما لا تحصيه من الوجع.

حكت **لثيودورا** كيف وقعت في الأسر في غرب البلاد. ماتت اثنتان من الأخوات. أمّا الآباء فيزحفون في قيودهم في مكان ما. أحضروا النساء جميعاً إلى مكان واحد وأغلقوه عليهن. لم تصدق نفسها حين رأت **ثيودورا**. أخيراً عثرت بطيف من أيام جميلة ولّت. ما رأت مذ فارقت الخرطوم إلا كل عناء.

سقطت الأبيض في يد المهاجمين. أنهكها الحصار والجوع. المقاتلون أصبحوا أشباحاً تتخبط في سيرها. أكل أهل المدينة الصمغ

والجيف والكلاب. والسماء صارت سوداء من تحليق الصقور الصاخبة. لما لم يعد من الموت مفر فتحت المدينة ذراعيها مسلمة. دخلها الدراويش قارعين طبولهم نافخين إمباياتهم.

أخذوا القساوسة إلى معسكرهم. قيدوهم في العراء. لم يكلّوا عن دعوتهم إلى الإسلام. تقول **هورتنسيا**:

كان يأتينا قبطي اسمه ألكسندر. ترك دين المسيح واتبع المهدي. غيّر اسمه إلى عبد التوّاب. يجلس إلينا ويحاول إغواءنا لنسلم.

يحدثهم عن نعيم الآخرة لمن يتبع مهدي الله. يخوفهم سوء العاقبة ومعاناة الموت إن رفضوا. الخوف وفساد الجو أمرض أغلبهم. وحين سمعوا أن الأمر صدر بتفريق الأخوات على الأمراء سبايا مات بعضهن جزعاً.

لكنهم لم يفعلوا. ولا قتلونا رغم أن ألكسندر خوفنا القتل أكثر من مرة. اكتفوا بترويعنا. كانوا يمرون بنا في محبسنا، في العراء، ويوسعونا شتماً وسباً. من مات منا لم يدفنوه. قالوا إن الكلاب النصارى لا يستحقون الدفن. تركوا جثثهم تنتفخ في العراء. رأيناهم يتعفنون أمامنا. ما كنا ننام الليل من قبح رائحة اخوتنا.

سألتها عن **دروتا**.

عادت إلى مصر قبل أعوام. كانت بيننا مراسلات قليلة انقطعت بعد حصار المدينة.

ثيودورا يسكنها الجزع. صوتها أجش من الصراخ الذي عانته.

اجتاح الدراويش الخرطوم عند الفجر. انهد السد فطاشوا بأنحائها. انتشروا كالجراد.

تراجع الأب **بولس** عن باب الدار وجثا على ركبتيه يصلي. الأخوات تعانقن يبكين. للموت صوت في الشارع. ورائحة الدم صدئة خانقة. يسمعون الصراخ خلف الأبواب المغلقة. وهسيس النار يتعالى. الخرطوم الجميلة تموت. قال الأب **بولس**:

صلّوا للرب ليرحمنا.

ثيودورا تحس بالعجز. الرعب يشل روحها. تفكر في آيات الكتاب المقدس التي تحفظها فلا تعثر عليها. تغرق دموعها وجهها وتفكر.

لا أريد أن أموت.

قبل أن ينتصف النهار وصلوا. تحطم الباب وعبروا جثته إليهم. ذبحوا الأب **بولس**. أمسك به أربعة منهم وقطع خامس عنقه وهو يكبّر الله. دم الأب **بولس** غطى ثيابه البيضاء التي كان يلبس.

جاءت **فضل العزيز** تزغرد من المطبخ. فرحة مبتهجة. لكن أحدهم تلقاها برمح في صدرها. رمح ضخم لامع. غاص في جسدها. زغاريدها خنقتها وهي تسقط. الدراويش يصيحون. و**فضل العزيز** تذهب ذاهلة.

ثيودورا صرخت. جروها خارج الدار. لم تر واحدة من الأخوات بعدها. آخر ما شاهدته أجسادهن تجر خلفها. لم تعرف عنهن خبراً بعد ذلك. تمزق غطاء رأسها. تناثر شعرها البندقي. ملأت السجحات جسدها وهي تجر بالأرض.

يحيط بها السود. أصواتهم قبيحة. لا تفهم صراخهم. رائحتهم خانقة مقززة. يغطيهم الغبار والحماس.

كل ما كان في بالها ساعتها أنهم سيذبحونها. سيقطعون عنقها. توسلت في ذعر.

- لا أريد أن أموت.

3

يقرأ بصعوبة في دفترتها:

لا تحزنك الأيام التي تمر من عمرك. فإنما هو وجع انقضى وخلاص اقترب.

4

تلقتها سيدتها **النوّار بنت الحاج قاسم** المغربي باسمة.

هشّت لها وهوّنت عليها حزنها. سيدة نحيلة، لونها خمري رائق. لها طابع حُسن مليح في ذقنها. طبعها الابتسام. أدخلتها الحمّام. جلبت لها نوعاً من الصابون الرديء واعتذرت أنه لا يوجد غيره. أمرتها، بلطف، أن تغتسل وتتزيّن. قالت لها:

لن تكون حياتك معنا سيئة يا ابنتي.

ثيودورا كانت خائفة. لا تعرف ما يراد بها. قلقة من غدها. حزينة على من فارقت. ومشهد عنق الأب **بولس** يفور دماً لا يفارقها.

أغلقت على نفسها الحمّام وبكت. اغتسلت ما استطاعت. أزالت عن جسدها غبار الأسر. دعكت جلدها لتطهره من رائحة آسريها. لكن الصابون ما كان بتلك القوة. حين صبت على جسدها الماء لتسيل عنه رغوة الصابون وجدت الرائحة أقوى. انتحبت وسقطت على الأرض. بكت حالها. تراهم يجرونها على شوارع المدينة. تسمعهم يصرخون. رأسها يتخبط في التراب. ورائحتهم تقتلها.

خرجت إلى سيدتها جسدها مبلل بالماء والحزن. أجسلتها **النوّار** على الأرض وجففت شعرها. سرّحته في حنان. حاولت أن تجدله في جدائل دقيقة لكنه كان كالريح يتبعثر كلما فعلت. جمعته في جدلة واحدة وعقصته من الخلف. كستها ثوباً من الكستور زاهياً. سألتها **ثيودورا**:

ماذا ستفعلون بي؟

قالت **النوّار** في حنو:

كل خير يا ابنتي. أنت منّا وفينا الآن. سنرعاك بما يرضي الله.

تلفتت **ثيودورا** حولها. الغرفة أنيقة تفوح بالثراء. بها مرايا فاخرة.

هل ستقتلوني؟

ضحكت **النوّار**.

لماذا نفعل؟

لا أدري. أنتم تقتلون المسيحيين.

لا يا ابنتي. نحن أتباع سيدي المهدي. لا نريد إلا الخير للناس.

تفكر **ثيودورا** في معاناة من رأت، وموت من أحبت.

لكنكم من أهل الخرطوم.

لقد آمنا، زوجي وأنا، سراً من زمن. وكان زوجي يعين سيدي المهدي من داخل المدينة.

هل سأصبح خادمة عندكم؟

ترى في وجه **النوّار** حزناً خاطفاً.

لست خادمة يا ابنتي. لقد أخذك الشيخ إبراهيم لنفسه.

لا تفهم **ثيودورا** ما معنى هذا. تقول سيدتها مستطردة:

لعله خير لك يا ابنتي. وأنا لا أمانع.

5

"ضِيْقٌ وَشِدَّةٌ أَصابَانِي، أَمَّا وَصايَاك فَهِي لَذَّاتِي"

(سفر المزامير 119: 143)

6

السبت 12 فبراير 1881

"المدينة مليئة بالعبيد. العبيد نصف السكان أو أكثر. نحن في معسكر عبيد كبير. كل شخص في الخرطوم يملك عبداً على الأقل. وليس من منزل هنا إلا وعلى عتبته جارية زنجية جالسة تطحن الحب. قيل لي ان العبيد هنا من أجناس شتى. بعضهم من الحبشة ومن جميع جهات السودان ووسط أفريقيا.

أمس رأيت عبداً من المستنقعات الاستوائية. يقولون أنهم أكلة لحوم بشر. رائحته كانت كالخراء"

الثلاثاء 8 مارس 1881

"أخبرني العم بابونياس أن أول من جلب العبيد إلى الخرطوم

للتجارة بهم هي حكومة محمد علي باشا قبل نحو خمسين سنة حين تم ضم بلاد السودان لمصر. والعرب في بلاد السودان يحبون اقتناء الجواري. وعادة لا تصبح الجارية حرة مالم تنجب. العرب يحبون الزنجيات. لكن أغلب الأتراك والمصريين والأوروبيين يحبون الحبشيات. أعترف أنهن حسناوات. لونهن كالقهوة الرائقة. وطباعهن كذلك"

الأربعاء 9 مارس 1881

"ما لحظته أن السيد يعامل عبده عادة بالرحمة. لذلك يحب العبد سيده أكثر من حبه لموطنه الأول.ونادراً ما يسئ الترك والمصريون معاملة عبيدهم. لكن للأسف توجد القسوة بكثرة عند الأوروبيين. لا أعرف كيف يسمح الرجل الأوروبي لنفسه بهذا. ربما هو تأثير هذه الأرض المتوحشة. لقد اضطرت الحكومة لإصدار قانون يمنع الأجنبي من ضرب عبيده. هذه إهانة للحضارة والعالم المتمدن"

الأربعاء 15 يونيو 1881

"التجار المصريون هنا وكلاء للبيوت التجارية بالقاهرة.

يعيشون وسط نعيم مقيم في بيوت كبيرة تضم حريماً من العبيد السود. يأكلون ويدخنون ويشربون في رغد كبير. لكنهم كسائر المصريين يتشوقون للعودة إلى مصر"

الأحد 3 يوليو 1881

"عرفت أن العمال الفقراء من المصريين يعيشون مع السودانيين في أحيائهم الوطنية. وبعضهم متزوج منهم ويعيشون في أسر مستقرة. هؤلاء العمال دخلوا السودان بعد الفتح لأن أهل البلاد ليس بينهم من يجيد الصناعة أو أعمال العالم المتمدن. لماذا انتهوا للحياة مع السود هكذا؟ هل لأنهم فقراء مثلهم؟ لكن كيف نسوا أنهم ينتمون إلى أمة عظيمة بينما هؤلاء السود مجرد رعايا لهم؟"

الجمعة 5 أغسطس 1881

"اكتشفت أن المهندس البريطاني ليس مهندساً وليس بريطانياً. هو أفّاق بلجيكي كان يعمل في تجارة الرقيق في النيل الأبيض. منذ أثرى التاجر الفرنسي فيسيير وبعده التاجر السرديني برون روليت من هذا الطريق ونقلا آلاف العبيد السودانيين إلى القاهرة

والأوروبيون يحاولون تقليدهما.

احتال الأفاق البلجيكي على التجار المصريين وباع الرقيق لصالحه وفر إلى الخرطوم. ادعى أنه مهندس بريطاني ليتخفى حتى يجد من يعينه على السفر. عرفت إنه سافر قبل شهر من اكتشاف حقيقته.

فوجئت أن دروتا اعترفت أنها التقته أكثر من مرة"

7

شفاعة سيدتها **النوّار** أجدت بعد شهور العذاب وسوء المعاملة.

لان قلب سيدها **إبراهيم ود الشوّاك** لتوسلات زوجته. وهبها **ثيودورا** لتصبح خادمة. صار بمقدورها أن تخرج متى أرادت. ولم تمانع سيدتها في زيارة **هورتنسيا** لها.

المدينة الجديدة، أم درمان، لا تشبه الخرطوم في شيء. تخرج إلى شوارعها تائهة. تقول ل**هورتنسيا**:

ليست كسواكن. ولا هي كالخرطوم.

ولا تشبه الأبيض. هي مدينة عجيبة. تبدو كمسافر سيترحل فجأة.

البيوت كلها من الطين النيء. تتناثر فيها خيام متسخة. تجوس خلالها الأغنام والحمير الشاردة.

تسألها **هورتنسيا**:

هل تجدين ألماً؟

تحرك فخذيها بحذر. تتذكر وجعها ورعب ما لاقت.

لا. لا ألم الآن.

يالهم من جزارين!

حُكم على كليهما أن تسلما. **هورتنسيا** استجابت لسيدها بسرعة. لم تجد حولها من يعينها على الرفض كما فعلت في الأبيض. فرح بها **مالك عريبي**. قال لها وعيناه تفيضان دمعاً:

إن أحب الله عبداً هدى على يديه ضالاً.

غيّر اسمها إلى **ميمونة**. قال لها انه اسم إحدى زوجات النبي محمد.

عرض عليّ أن يتزوجني.

هل ستقبلين؟

- ربما أفعل. هذا يوفر لي أماناً حتى أنظر في أمري.

ثيودورا كانت أكثر عناداً في البداية. ثم لانت وأظهرت إسلاماً. سيدتها **النوّار** هي من اختارت لها اسم **حواء**. علّمتها الصلاة ووعدتها أن تساعدها على حفظ شيء من القرآن. لكنها فشلت. واستها **النوّار**:

العملية تصيب العقل ببعض تشويش لزمن. سيزول ذلك لا تقلقي.

لا تدري إن كانت مشوشة مما أصابها أم هي لا ترغب في حفظ آياتهم. لكنها أظهرت تصديقاً لقول سيدتها.

بخيت منديل حين عرض عليها الزواج أهاج ذكرى تلك الأوجاع. قال لها:

أريد أن يكون لي أطفال في لوني وجمال عينيك.

جفلت مذعورة. أحست لحمها يتقطع تحت الموس. صرخت فيه:

لا تقل هذا.

ماذا بك؟

انتفضت قائمة:

لا تقل هذا. لا أريد أن أسمعك تقول هذا مرة أخرى.

تلعثم مرتبكاً.

لكني أحبك. أريد أن أتزوجك.

سدّت أذنيها بكفيها وصاحت:

اصمت. اصمت.

فزع **إدريس النوباوي** لصياحها. قال لهما بحزم:

ستلفتان الناس. اذهبا.

لم تنتظر. حملت أشياءها وذهبت. تركت **بخيت** واقفاً عند نصبة الخضار بحيرته. لما ذهبت سأله **إدريس**:

ماذا بها؟

قلّب **بخيت** كفيه في حيرة. قال لصاحبه:

لا أدري يا إدريس. إنها مجنونة.

ضحك **إدريس**.

كل البيض مجانين.

نظر **بخيت** إلى الزحام الذي أخفاها وقال:

لكني أحبها بجنونها.

العاشر

1

أسبوع قاتم مرّ على بخيت.

لم يرها في السوق. يقصد كل يوم، بعد العصر، نصبة **إدريس النوباوي**. يجلس تحتها منتظراً حتى أذان العشاء. حين يبدأ **إدريس** رفع بضاعته ينهض متثاقلاً. يقول له **إدريس**.

كف عنك حزنك.

أنا بدونها لا شيء يا إدريس.

يقطب النوباوي جبينه.

كن رجلاً. أنت كأم ثكلى.

يتركه ويقصد بيت الشيخ **إبراهيم ود الشوّاك**. يمشي في شوارع

المدينة هائماً. يمر أسفل قبة مهدي الله. يقف قليلاً داعياً ربه. عندما يصل مقصده يسير محاذيا الحائط الطيني. يقف عند باب الخدم. يدفع الباب بحذر وينادي **صباح الخير**. يهرع إليه العبد باسماً. يرى حزنه فيعرف ما به. يقوده من ذراعه بعيداً. يقفان عند فسحة خالية شمال البيت.

تبحث عن حواء؟

هل هي بخير؟

في أحسن حال أيها المعتوه. ماذا بك أنت؟

يخالطه فرح أنها بخير، وقلق غامر أنها بخير ولا تأتيه.

لماذا لا تخرج إلى السوق إذن؟

يقول **صباح الخير**:

لا أدري. طلبت من السيدة أن تعفيها من مشاوير السوق. هل لك علاقة بهذا؟

لا يجيب. لكنه يسأل:

هل هي بخير؟ هل هي حزينة؟

لا. هي كعهدها. أمس كانت تغني للسيدة أغاني مصرية لتسعدها. كانت السيدة تضحك مسرورة. وصاحبتك حلوة الصوت.

كانت تغني؟

هل أنت حزين أنها تغني؟

لا يدري إن كان حزيناً أنها تغني. يترك **صباح الخير** واقفاً ويذهب. يناديه:

إلى أين؟ أريد أن آخذك إلى بعض المرح الليلة.

لا يرد. يصيح **صباح الخير** مرة أخرى:

هل نلتقي في بيت إدريس؟

لا يريد شيئاً سوى أن يذهب. المريسة التي يشربها عند **إدريس** لن تعينه. يترك نفسه لحزنه يحمله. يتخبط به في شوارع المدينة. ينتقل من مكان إلى آخر يفكر بها. ليست حزينة. إنها تغني. صوتها حلو. لكنها لا تأتي لتراه. هل هو حزنها وضيقها؟ لماذا تتركه في ضياع وتغيب؟

دنياه مسودّة. النار تأكل قلبه. لم يقدر على خدمة لأسبوع. جسده لا يكاد يحمله إلا إلى نصبة **إدريس** لينتظر عبثاً. الخوف الموجع ينغرس فيه. يمزّق الترقب جسده في وحشية. لكنها لا تأتي. واليوم يعرف أنها بخير. وأنها تغنّي.

هل هو حزين أنها تغنّي؟

لم يمل الذهاب إلى نصبة **إدريس**. يجلس تحتها ساهماً. إن سأله **إدريس** عنها قال له:

إنها تغنّي.

ثم جاءت.

غطاه ظلها قبل أن يراها. شمّ رائحة المسك. رفع رأسه فوجدها تقف فوقه. لم يدر ما يقول. بقي ينظر إليها تطل عليه من علٍ. مشرقة باسمة.

بخيت!

نعم.

خذني إلى النهر. أريد أن أرى الغروب.

2

غرب المرسى يجلسان. أمامها جزيرة توتي في قلب النهر. خرائب الخرطوم تظهر من خلفها بعيداً. تنزل الشمس خلفهما فيغوص في الموج ظلاهما. الطيور تصرخ ببعضها كي تذهب قبل الظلام. وضوضاء أم درمان بعيدة كأنها الحلم. رائق سطح النهر. كمزاجها.

لا ينفع يا بخيت.

لا يدري ما يقوله. كل كلمة قد تكون ما يجب ألا ينطق به. ما الذي سيغضبها إن نطق به. تقول:

لا أنكر أن لك عندي مكانة. أنت شخص لم أحاذر منه قبلاً. لم اتوقع أن ألتقيه. لكن لا جدوى من كل هذا.

يقول بحذر.

هل تطلبين مني أن أكف عن حبّك؟

لابد أن تفعل يا بخيت.

لماذا؟ ماذا يمنع أن نتزوج؟

لا ينفع.

لماذا؟ سأطلبك من سيدك. نسكن سوياً في بيتي. لن تكوني خادماً بعد اليوم. أنا سأعمل وأجلب لك كل ما تريدين. سيكون لنا حوش ملكنا. سأشتري شاة للبن. وتربين الحمام. وننجب أطفالاً. ثلاثة. أربعة. فيهم بنت حلوة كأمها.

يا بخيت! يا بخيت!

يصمت. تمشي مع صمته إلى العدم. يلفهما الظلام.

لا أستطيع. لست الحياة التي كنت أظنها. حياتي كلها ليست

الحياة التي كنت أظنها. لن أقدر يا بخيت.

لا تخبره عن أوجاعها. تضم فخذيها بقوة. تذكر الإسكندرية وبحرها. **غيورغيوس** ابن بائع الزيتون المخلل. ظلام الكنيسة الرطبة حين احتوى شفتيها. غرفة سيدها **إبراهيم ود الشوّاك**. بكاؤها ليلاً. سنوات العذاب قبل أن يأتيها. رائحة **بخيت** التي كقرحة أليفة. تقول له:

جئتني بعد فوات الأوان يا بخيت.

يقول بعناد طفل:

قولي لي متى كان الأوان. سأرجع بالزمن إليه. سأجبر الشمس أن تعود إلى الوراء. سآتيك قبل فوات الأوان.

لا جدوى. لا ينفع يا بخيت. أرجوك.

سيدها **إبراهيم ود الشوّاك** اشتراها لفراشه. منّى نفسه بجسدها البكر. النصرانية البيضاء كوجه الحليب.

دفعتها **النوّار بنت الحاج قاسم** المغربي إلى خادمة. قادتها من يدها عبر ممر طويل يغطيه بساط وبر مغزول. دخلت بها حجرة واسعة. بها سرير نحاسي مصري الطراز. تركتها هناك وخرجت. بقيت واقفة ترجف. لم يخبرها أحد لكنها شمّت رائحة المصيبة في هواء الحجرة. من خلفها سمعت صوت الباب. دخل الشيخ **إبراهيم**

ود الشوّاك. كان حاسر الرأس، يرتدي قميصاً فاخراً قصيراً. في قدميه صندل جلدي. ابتسم لها.

الحمد لله الذي أعز جنده ونصر المؤمنين على الكافرين.

لم تفهم مقصده. قالت له متوجسة:

أنا شاكرة يا سيدي أن أنقذتني من زريبة الأسرى. سأكون ممتنة لك طول عمري.

جلس على الفراش وأشار إليها أن تقترب.

ليس لي عليكِ مِنّة. إنما الفضل لله أن جعلك ملك يميني. أنت من اليونان، أليس كذلك؟

أنا من الديار المصرية يا سيدي. والداي من اليونان.

ينظر بعيداً ويقول:

رأيتك من قبل رفقة امرأة من اليونان في السوق. زوجة الخواجة بابونياس. حسبتك ابنتهما. لكني سألت فعرفت أن ابنتهما ماتت من زمن. قالوا إنك معلمة في بعثة الأرثوذكس.

تستدعي كل ما تقدر عليه من أدب لتدرأ خوفها.

إنه من فضل الرب أن عرفتني يا سيدي فأنقذتني.

تعالي لتجلسي. لماذا تصرين أني أنقذتك؟ إنما اصطفيتك

لنفسي قبل أن يفعل آخر. ما كنت لأترك جمالك لدرويش معتوه من أتباع المهدي.

حديثه يذكي خوفها أكثر. تقترب منه، لكنها لا تجلس. يمد يده يمسك كفها. جسدها بارد.

خائفة؟

لا تنطق. لا تقدر أن تنطق. ماذا يريد؟

يجرها من يدها إلى حضنه. تنتفض. تصرخ وتجفل. تسقط على الأرض.

لا.

يقوم إليها متمهلاً.

لا تخافي. لن أؤذيك.

لا. ابتعد عني.

يمد يده إلى شعرها. لكنها تصرخ. ينحني عليها فتركله في بطنه. يقع متوجعاً.

يا بنت الكلب.

تقفز لتفر. لكنه يمسك بقدمها. تسقط على وجهها. يزحف فوقها. رائحته خانقة. جسده مقزز. يقترب وجهه من وجهها. كفه تعبث بها

تبحث عن طرف ثوبها. يريد أن يعريها. صراخها لا يتوقف. تضم فخذيها بقوة. تبصق في وجهه فيصفعها. يرتد عنها لوهلة تكفيها لدفعه عنها. تحبو محاولة الابتعاد. لكنه يتشبث بشعرها. تتبعثر جديلتها. يشدها فيوجعها.

لن أتركك يا نصرانية يا غلفاء.

تتلوى منه. وحين تسمع صوت **النوّار** تحس بالخجل. ثوبها تمزق عنها.

كفى يا شيخ إبراهيم.

ما شأنك؟ ارجعي إلى حجرتك.

كفى يا شيخ. ارحم الصبية. إنها خائفة.

ينهض عنها حانقاً. يسويّ قميصه. من مرقدها ترى أنه لا يلبس تحته شيئاً. يبحث بقدمه عن صندله فلا يجده. تراه أسفل الفراش بعيداً. يشتم وهو يتحرك في الغرفة حافياً.

توسلت إلى عشرة دراويش قذرين، ودفعت وزنها رشاوي كي أحصل عليها. وتبصق على وجهي؟

تساعدها **النوّار** على الجلوس. تمسح على شعرها المبعثر.

عليك بالرفق يا شيخ. هي صبية خائفة. كن رحيماً بها.

لكنه لا يعرف رحمة. كل ليلة يجهد أن يأخذها. وخوفها يعينها أن تنتصر. ما قدر أن يفضها رغم محاولاته. عرّاها مرة ولمسها بعضوه. بحث به منتصباً في غياهب جسدها. حاول أن يدخلها لكنها كانت تتحرك كستر قماش في ريح.

عضّت وجنته ففار غضبه. وقف صارخاً.

سأربيك يا كلبة النصارى.

تركها تبكي على الأرض. قالت لها **النوّار**:

لا بأس يا ابنتي. كلنا مررنا بهذه العملية. أنت فقط في سن كبيرة. لكن الوجع سيذهب. لا تخافي.

3

يقول لها **بخيت منديل**:

أعرف تاجراً يهرّب البضائع من مصر. سأحضر لك حلوى المصريين. هل تحبينها؟ ونسمي البنت على اسمك. أحب أن يكون عندي من حواء اثنتان. لو أردت أن نهرب إلى مصر سأهرب معك وأترك بقعة المهدي. أو نهرب إلى الخلاء.

وحدنا. سأغيّر اسمي. أنت حواء وأنا آدم. ومنّا يبدأ الخلق. ننشيء دنيا جديدة بعيداً.

تقول بوجع:

أنت لا تفهم. أنت أعمى.

4

لما عاد من مصر حقن نفسه مجدداً في عروق المدينة. اكتسب خبرات ورأى دنيا ما كان يحلم بها.

لكنه ما فقد براءة الطفل التي تدهشها الحياة. يحكي لكل من يعامله عن تلك الغرائب التي رأى في الديار المصرية. سيده، المصري، **يوسف أفندي سعيد** أعجوبة. كلامه، الذي لم يفهمه قبل أن يلتقي **حواء**، يحفظه عن ظهر قلب ويتلوه للناس متعجباً.

عمل في كل مهنة تحتاج جهداً. حمّالا في مرسى أم درمان. بائعاً جائلاً في السوق. حارساً في مخزن الذخيرة. عاملاً في سوق الترزية. كاتباً بمصنع البارود. نجاراً بسوق النجارين. عامل بناء. حافر آبار. حافر قبور. وفي المهنة الأخيرة التقى **صباح الخير**.

كان يجلس، كعهد حافري القبور، عند سوق الحطب. وقف عليهم عبد أسود برجله عرج. نادى بهم:

أريد حفّارًا يا أهل الله.

قفز جماعة إليه يعرضون أنفسهم. أطال إليهم النظر متفحصاً ثم اختاره من بينهم. يعرف أن القدر اصطفاه يومها من بين رفاقه. سار مع **صباح الخير**، حاملاً أدواته، إلى مهمته. قال له:

زوجة سيدي الشيخ إبراهيم ود الشوّاك توفيت صباح اليوم. هو رجل كريم. إن أحسنت مهمتك أجزل لك العطاء.

الإحسان من الله.

مشى معه إلى البيت الذي ينتظره قدره فيه. يخطو إلى مصيره جاهلاً أنها بداية حياة أخرى. وجد الضجة المعتادة. زحام الرجال والنساء. حزن متوتر مكتوم. فقد منع مهدي الله عليه السلام قبل أعوام النواح على الموتى. وسار على نهجه سيدي الخليفة. لقيه **عبد القيوم** بن الشيخ **إبراهيم الشوّاك**. يقف في جماعة من قادة الملازمين وأبناء الأثرياء. نظر إليه طويلاً. سأله:

هل ستحسن مهمتك؟

تلك العبارة الوحيدة التي خاطب بها **عبد القيوم** بن الشيخ **إبراهيم الشوّاك بخيت منديل** حتى قتله بعد ثمانية أعوام وخمسة

أشهر. لم يخاطبه بغيرها. لكنه استحق الموت بسيف **بخيت**.

خرج إلى المقابر شمال المدينة. جنوب حي الدنقالة. وشمال حي المسلمانية، مسكن الأقباط الذين أُجبروا على الإسلام. اختار بقعة بين القبور كيفما اتفق ثم شرع يحفر بها. يغرس فأسه في الأرض على مهل. ثم يملأ مقطفه بالتراب ويهيله على مسافة. أكمل حفر القبر قبل أن يأتيه **صباح الخير**.

لم تنته بعد؟

ما تبقى لي سوى اللحد.

يا منحوس! تحرك موكب الجنازة قادماً. عجّل.

ما كان قلقاً. فالصعب انتهى. أرض أم درمان حجر غليظ. لكنه انتهى من حفر القبر حتى ركبته. تبقى اللحد فقط ولن يتعبه. قدّر أنه سينتهي مع وصول الجثمان. وقد كان. خرج ووقف بعيداً يرقب الجنازة المهيبة تنزل إلى منزلها الذي أعده. رأى شيخاً مهيباً قصير القامة يحفه كبار القوم. الأمير يعقوب شقيق خليفة مهدي الله، الخليفة علي ود حلو، الأمير عثمان أزرق وغيرهم من سادة المهدية. دعاه **صباح الخير** للعودة معه إلى البيت.

أنت عامل ماهر. وتبدو عليك الطيبة. ما اسمك؟

اسمي بخيت منديل.

وأنا صباح الخير.

عانقه علامة الإخاء. سارا يتحادثان. حكى له **صباح الخير** عن سيده الشيخ **إبراهيم**. لا يختلف كثيراً عن سيده التركي **عبد اللطيف أفندي مظهر**. غير أنه لا يحسن السب بلغة العثمانلي. يحكي له **صباح الخير** بكراهية، أما **بخيت** فيقول فرحاً:

سأخبرك بأغرب من هذا. لقد كنت في جردة ود النجومي إلى مصر. رأيت عجائب.

يدخل مع **صباح الخير** من باب حوش الخدم. يجلس إلى الأرض في ركن قصي. يتابع خدم البيت الكثر يتحركون كنحل منزعج. يحملون الطعام ويلبون النداء. حمل إليه **صباح الخير** بقايا ملاح أم **دقوقه**. قال له:

هذا بعض ما تبقى من غداء السادة قبل أن يحملوا الجنازة.

انهمك **بخيت** في الأكل. غاب عنه **صباح الخير** ثم عاد يحمل ثلاثة ريالات. قذفها إليه. تلقاها **بخيت** راضياً. أراد الانصراف. لكن قدره استبقاه. طلب إليه **صباح الخير** أن يسامره قليلاً. مد رجله أمامه وقال:

أنا أعرج كما ترى. ليس لي فائدة في مناسبة كهذه. يحتاجون للخدم الأشداء. دعنا نحكي قليلاً.

القمر رائق، الشبع يعابثه ومعه ريالات مجيدية ثلاثة، لماذا لا يبقى؟

قبل سعيداً. سأله **صباح الخير** أن يقص عليه عجائبه وطرائف ما عرف. يقص على رفيقه بعض ما طلب. يضحك **صباح الخير** ويصفّق بكفيه في دهشة. ثم شمّ **بخيت** رائحة المسك.

تعبّق الكون برائحتها. رفع رأسه ينظر. أحلى أحلامه. كانت تسري في الحوش وعلى وجهها مسحة حزن آسرة. نظرت إليه دون أن تراه. لكنه أحس قلبه حاراً كمن به حمّى. تمر عابرة كأنها رؤيا.

من هذه البيضاء يا صباح الخير؟

هذه حواء. الخادم الأثيرة لدى سيدتي الراحلة. هي معنا من خمسة أعوام.

نصرانية؟

أسلمت. كان لها اسم عويص من أسماء النصارى. هي من مصر.

يراقبها **بخيت** تذهب. يقول:

كلا. ليست من مصر. رأيت مصر. هي ليست من هناك.

حين يلتقيها، صدفة، بعد خمسة أيام في السوق يستوقفها. تنظر إليه دهِشةً من جراءته. يقول لها:

لدى سؤال واحد.

تنظر إليه بعينيها الحزينتين. من ساعتها وهو يعشق الحزن. يسألها:

من أية بلاد تسكنها الملائكة أنتِ؟

5

يقول لها بخيت منديل:

سأفعل المستحيل لأجل أن تكوني سعيدة. قولي لي ماذا تريدين. تمني ما لا يمكن وسأموت وأنا أجتهد لجعله ممكناً لأجلك.

تهم أن تمسك كفه الأسود. أصابعه متغضنة كركبة بعير. تحجم وتتدارك نفسها. تقول له:

يا بخيت! اسمع نصيحتي.

يشرع عينيه الصافيتين. يرئ كصبحٍ وليد. تقول له متوجعة:

لا تجهد نفسك بفعل المستحيل. لا شيء يسعدني. ولا أقدر أن أكافئ فعلك المستحيل بقليل الممكن.

يهز كتفيه مستخفاً. يقول:

لا يهمني.

6

تركتها سيدتها الحنون **النوّار بنت الحاج قاسم** المغربي وماتت.

خمس سنوات في ظلها، وهي تحوطها وتداري عليها. تلوذ تحتها من هجير الأسر. كانت شفيعتها من قسوة الشيخ **إبراهيم**. كنفها من نزق **عبد القيوم**. تحنو عليها حين توجعها الحياة. أقرب إلى روحها من **هورتنسيا**. أحب إلى قلبها من ذكرى أمها البعيدة.

حين عثرت، مصادفة، على خبر العم **بابونياس** والعمة **ماري** جاءت فرحة إليها. أخبرتها عنهم حتى أحبتهم **النوّار**. عرفت **ثيودورا** أنهم يسكنون حي المسلمانية. أجبرا على اعتناق الإسلام. وتأكيداً لذلك تزوج العم **بابونياس** إحدى خادماته. سمحت لها **النوّار** بزيارتهما.

خرجت إليهم ظهر يوم أربعاء يحملها الفرح. وعدتها **النوّار** أن تزورهما معها في القريب. قالت لها:

اذهبي وحدك أولاً. جددي ما انقطع بينكم ورطبي يباس شوقك. بعدها سأزورهما معك. أسرتك أسرة لي يا ابنتي.

لكنها عادت تحمل الدموع. سكبت حزنها بين يدي **النوّار**.

عمتي ماري قعيدة، غائبة لا تعي شيئاً. والعم بابونياس أسير خادمه التي تزوجها. لا يكف عن الحزن.

تعانقها **النوّار** في أسى.

الخادم طردتني من الباب. قالت لي لا نعرفك ولا نريدك. العم بابونياس كان يقف خلفها يراقبها وهي تدفعني خارج البيت. لم يفتح فمه بكلمة.

تبكي بحرقة. تضم ساعديها حول **النوّار** وتغوص بوجهها في صدرها.

ما عادت لي أسرة في هذا العالم. كلهم تركوني.

تقول **النوّار**:

أنا أسرتك يا ابنتي.

لكنها تركتها، كما يفعل كل الأحبة، وماتت.

بها كبرياء سيدة من ثريات الخرطوم الميّتة. إيمان تقية ترقب الرب في أبنائه. لما عاقبها الشيخ **إبراهيم** بالعملية كانت **النوّار** هي من مارضتها. قامت على جرحها حتى برئ. واستها وخففت عنها نزف الجسد والروح.

كانت تأوي إلى خوفها في حوش الخدم حين سمعت صوت الشيخ **إبراهيم** يبحث عنها. تكوّرت على نفسها ورجفت. رأته يقف عند مدخل الحوش. أشار إليها فعجزت عن القيام إليه. تعرف أن أمراً عظيماً يراد بها. وعيده على مر أيام فاتت ما كان عبثاً. والآن تعرف أنه حان بها ما كان يتوعّد.

أمسك بها الخدم. ثبتن جسدها إلى الأرض. قاومت فتمزّق ثوبها. بدا فخذاها الأبيضان مضيئان في لجة السواد الذي يحوطها. رفصت، لكنهن تكاثرن عليها. قال الشيخ **إبراهيم**:

ادعيت الإسلام. الآن سنكمل لك دينك.

تصرخ ودموعها تتخبط:

اتركوني.

لا يجوز أن تكون المسلمة غلفاء. هذا حرام.

تستغيث بعلو صوتها. لكن العدم يبتلع صياحها. تميل عليها **أم الشول** تنظر بين فخذيها. خاتنة سوداء. ضخمة كحائط حجري.

تدفع أصابعها داخلها. تصرخ **ثيودورا**. يفتحها الوجع. ينفجر نبضات صارخة في كيانها. تمسحها **أم الشول** بزيت دافئ. تنتفض رجلاها. ثم تمر الموس على لحمها.

يا يسوع.

يصرخ الشيخ **إبراهيم** مهتاجاً:

كنت أعرف أنها كافرة. كنت أعرف ذلك.

تشتمها **أم الشول**:

اصمتي يا غلفاء. لعنة الله عليك.

جسدها مثقل بالخدم المتشبثات به. وجعها يهزها. تتشنّج. تمشي الموس على لحمها وتحس دمها يسيل تحتها. بارداً انساب بولها. رفعت **أم الشول** رأسها وموسها. تناولت خرقة قماش دفعتها إلى جرحها. لوّن دمها الخرقة. رائحة البول والدم والعرق والخوف في كل مكان. رائحة مختلطة كعفن السمك. تميل **أم الشول** ثانية وتغوص الموس. تقطِّع لحمها على مهل. كلما أزعجها الدم جففته بخرقة وهي تسب النصرانية الغلفاء.

خاطت جرحها على قشة صغيرة. أحكمت غلقها وهي تشد الخيوط. مع اهتزاز جسد **ثيودورا** تسقط نتف اللحم الممزق. لما ما بقي هناك سوى الثقب الضيق، بقدر القشة، دفعت **أم الشول** خرقة

قماش مشبعة بماء العطرون.

نارٌ كاوية. دماغ **ثيودورا** يدوي بالوجع. ثقب من الألم. الهواء يخرج من نافوخها صائحاً. دموعها أغرقت العالم. صراخها أدمى النهر فتشحّط على الضفة.

موجوعة. باكية. لا حيلة لها.

يقيدون رجليها مفتوحتين. تقول **أم الشول** للشيخ **إبراهيم:**

- هذا ضروري. حتى لا يتعفّن الجرح من الضيق والاحتكاك.

ينظر إلى فخذيها المكسيين بالدم والبول.

فليتعفّن وتموت. لا يهم بعد هذا.

كان يمني نفسه أن يذوق غلفتها. لكنها الآن ما عادت إلا امرأة مثل الأخريات. ما كان ليتركها دون عقاب. ليس بعد أن بصقت على وجهه وعضته. يعلم أنه قتلها حية. فلا يهمه إن ماتت لتُدفن الان.

عارية أمام كل النظرات. يمر بحجرتها ذكور الخدم وإناثهم. ينظرون إلى جسدها الأبيض في فضول واشمئزاز. ينزل الذباب عليها. يئز حول جرحها. ينزف الدم حزيناً. تبكي أوجاعها. ويد **النوّار** تحاول علاج كبرياءها الممزق.

تقول لها:

هوني عليك يا ابنتي. كلنا خضعنا لهذه العملية. ستخف أوجاعك سريعاً.

تسيل دموع **ثيودورا** دون كلمة.

تشجعي. سيمر كل هذا الوجع يا حواء. كلنا مثلك. والمرأة الغلفاء لا تدخل الجنة. هذا خير لك يا ابنتي فعليك بالصبر.

يمر وجع الجسد. لكن جروح النفس تبقى. تطببها **النوّار** ما استطاعت. تحكي لها ذكرياتها مع زوجها الشيخ **إبراهيم**. تطلعها على إيمانها بمهدي الله، وخوفها من نزق لسان زوجها الذي يبدي تجديفاً بالمهدي حيناً. تقرّبها كابنة. تقول **ثيودورا**:

كيف أرد أفضالك عليّ؟ لولاك لمت من الهم.

لكن **النوّار** هي من ماتت.

سمعها الشيخ **إبراهيم** تهمس له في الظلام:

الوجع يا شيخ إبراهيم.

نهض متعثراً يبحث عن الضوء. رآها تمطر عرقاً. عيناها جاحظتان. ترجف بشدة.

- ماذا بك؟

الحمى. أنا أحترق.

سحبها القئ والإسهال من باحة الوعي. تمرغت في الهذيان أياماً. ترنّحت على حافة الهاوية. جوارها **ثيودورا** تقاتل عنها. تمسح عن فمها وصدرها ما يسيل عليه. تحمل من تحتها الخرق الملوثة بالبراز. تبلل جبينها بالماء. تسقيها منقوع السوبيا، وشراب عشبة السنامكه. وكل صباح تعينها أن تزدرد قليلاً من مسحوق الجردقة. لكنها كانت تذبل بسرعة.

تقف **ثيودورا** على الحرف، تتعلق بإيهاب روحها. تشدها إليها كي تبقى. لكن **النوّار** غابت كشمس العصر. سقطت عَجِلةً. تفلّتت من أصابع **ثيودورا** وهوت إلى العدم. عيناها غامتا وهي تقول:

أنا ذاهبة.

تضم **ثيودورا** رأسها إليها وتجري دموعها.

لا تذهبي يا سيدتي. لا تذهبي يا أمي.

أنا ذاهبة.

الظلام غطى عينيها. تمتمت:

لا إله إلا الله.

ثم غاصت في الغياب. تركتها وحدها.

7

"يَا ربُّ، مَا أَكْثَرَ مُضَايِقِيَّ! كَثِيرُونَ قَائِمُونَ عَلَيَّ"

(سفر المزامير 3: 1)

8

بعد خمسة أيام من وفاة **النوّار بنت الحاج قاسم** المغربي أعلن الشيخ **إبراهيم ود الشوّاك** أنه يريد الزواج.

نادى على **ثيودورا**. قال لها:

كنت كابنة للمرحومة. أنت الأقرب لها من كل خدم البيت. سأجعلك المسئولة عنهم وعن البيت.

خرجت بحزنها إلى السوق. لما تعرّض لها **بخيت** كشّرت. لكنه قال لها قبل أن تذهب:

هل تريدين شراء خضار؟ سأدلك على أفضل بائع هنا.

تبعته إلى نصبة **إدريس النوباوي**. لا يكف **بخيت** عن الثرثرة. اتفقت مع **إدريس** أن يجلب ما يحتاجه العرس من خضار. اشترت بعض أشياء وأخذت تجرد حسابها. هتف **بخيت منديل**:

أربعة عشر قرشاً.

نظرت إليه متسائلة. قال لها:

حسابك أربعة عشر قرشاً.

ثم أضاف في فخر:

أنا أعرف الحساب. وأعرف القراءة أيضاً.

حمل عنها مشترواتها وسار معها. لم يسألها عن نفسها شيئاً. يكلمها بتقدير كأنها **ثيودورا** القديمة التي كانت.

قالت **لهورتنسيا**:

في عينيه أرى نفسي أخرى.

تسألها:

هل تحبينه؟

كلا.

لكن له مكانة في نفسك. لا تنكري.

تصمت مفكرة.

لا أدري.

أنت تقابلينه منذ أكثر من شهر. لماذا تفعلين إن لم يكن مقرباً؟

لا أعرف. ربما أنا أحتاجه.

يدللها، من اليوم الأول، كبحر الإسكندرية. وهي تخيفه كالنهر. يوجعه في النهار صمتها. يؤلمه في الليل اشتياقها. يتبدل كوجه السماء مع زوال الشمس. يخفت مرحه. حلاوة روحه تبهت حتى غدا شفافاً.

يقول له **إدريس النوباوي**:

هذه البيضاء تمتصك.

لكنه يقول في عناد:

لا يهمني.

9

جاءت **حسنية فرج** إلى البيت في زفة وبهجة. أرملة نصف. فيها بقايا حلاوة بَيّنة. تشد إلى رأسها غطاءً أسود تتدلى منه خصلتان. عيناها كحيلتان. والدها ضابط مصري وأمها من قبيلة الشايقية. قُتل زوجها على يد أنصار مهدي الله.

ما كان ممكناً أن تحبها **ثيودورا**. شتان بينها وسيدتها الراحلة.

بادلتها **حسنية** توجساً بتوجس. لكن مخاوفها من **ثيودورا** تحولت سريعاً إلى إلفة بعد أيام قليلة. اطمأنت، العروس، أن الخادم البيضاء لا تطمع في زوجها الشيخ **إبراهيم**. أما **ثيودورا** فأخفت في قلبها نفورها. تقول **لبخيت**:

لا شيء فيها مثل السيدة النوّار.

لماذا تزوجها إذن؟

لا أدري.

لكنها تعرف أنه يحلم بامرأة غلفاء في فراشه. **حسنية** صورة مشوهة عنها هي. لهذا حين تدخل بعدها الحمّام لتنظيفه فترى آثار ليالي الزوجين، يقشعر جسدها. تفكر أن الشيخ **إبراهيم** يضاجعها في **حسنية**.

يقول **بخيت**:

لماذا يتزوج الرجل امرأة لا يحبها؟

تنظر إليه **ثيودورا** في فضول وتقول باسمة:

أنت تقول هذا؟

يقول في فخر.

طبعاً. الحب هو كل ما نملك. من طلب الله وجده في الحب.

من طلب السعادة وجدها في الحب. من طلب الثراء وجده في الحب.

ثم يضيف على مضض:

ومن طلب الشقاء وجده في الحب.

كلمات سيده المصري **يوسف أفندي سعيد** التي ما فهمها إلا اليوم.

تتنهد **ثيودورا**. تنظر إلى عينيه اللتين صار لونهما حزناً.

يا بخيت يعز عليّ أن أوجعك.

أنا سعيد يا حواء.

كلا، لست سعيداً. أنا أوجعك. أعرف ذلك. دعنا نتفق. أنا مجنونة. أعرف نفسي.

يقول في حرارة:

نتفق على أي شيء يرضيك.

لا تعد إلى ذكر الحب والزواج مرة أخرى. هكذا سنكون أفضل أصدقاء. هذا أجمل، وخير لك ولي يا بخيت.

ترى وجهه يربدّ. يفور الألم في ملامحه. لكنه ينحت كذباً ابتسامة واسعة.

أي شيء يرضيك يا حواء.

يلفهما الصمت. تسمع صخب حبه من عينيه. ضجيج قلبه لا يمكن تجاهله. لكنها تقول لنفسها:

لقد اتفقنا ووعدني.

حين ينتهي وقتهما تنهض لتذهب. يسير معها إلى البيت. يتجنبان الشوارع الواسعة. يمرقان بالأزقة الهادئة. يقف على مسافة من بيت الشيخ **إبراهيم ود الشوّاك**. تبتسم له. تتناول منه أشياءها. يقول لها قبل أن تذهب:

قولي لي إن السعادة ممكنة يا حواء.

طفل خائف يطلب الطمأنينة.

لكنها تقول له بوجع:

لن أبشرك. ستحمل الهم مادمت حياً. ستحمل الهم مادمت تحبني. أنا أدرى بنفسي منك. وربما القادم أسوأ.

ثم تذهب.

الحادي عشر

1

في المرة الأولى التي رأته، ارتبكت.

لم يتعرّض لها أحد في الطريق في هذه البلاد. داهمتها ذكريات الإسكندرية. في مسيرها، كل يوم، كان يتعرّض لها أصحاب المحلات وسائقو العربات وباعة الفاكهة السرّيحة والأفندية والصيادون ونسيم البحر. أما في البلاد السوداء فلا شيء. تأملته. عبد أسود. شعره جعد ككتل فلفل. نحيل ممشوق. ليس بوجهه شعرة واحدة. أنفه غليظ بشع. أصابع يده منتفخة. براجمها متغضنة. أظافره محشوّة وسخاً. رائحته نفّاذة عطنة. لكنه حين تكلم شغلها عن ذلك.

يوماً بعد يوم يتسرب داخلها. كظل يعبر. روحها تستند على

دفء عينيه. كف عن طلبها زوجة. لم يحدثها مرة أخرى عن حلمه بأطفال منهم بنت تشبهها اسمها **حواء**. لكنها تسمع صهيل حبه الرامح داخله.

يغني لها أغاني المدينة.

يا ربي تحفظا

والله كان انا أسويها مُنضره..

وفي خشمي سُكَّره

يا لساني جُر فوقا

يبروها السادة

تضحك وتقول له:

لا أفهم.

يشرح لها الكلمات. تلمح أمانيه لها فيها. تسأله:

تفعل أي شيء لترضيني؟

يهتف في إخلاص:

أموت لأرضيك.

تقول في دلال:

تموت وتتركني؟ من لي في هذه البلاد غيرك؟

سأحميك حياً وميتاً.

هورتنسيا فرّت بعد أربعة أشهر من لقائها **بخيت**. ما عاد لها غيره. هو وحده من يشعرها أنها حية. ترشف في نهم أحاسيسه. تريده بشدة. وتصده بعنف.

قالت لها **هورتنسيا** وهي تودعها:

لا أخاف عليك. سيبقيك بخيت حية.

ماذا يملك لي؟ هو مثلي. ضعيف. ربما أضعف.

أعرف انه ضعيف يا ثيودورا. أعرف أنه ليس حقيقياً. هو وهم. لكنك عنده تجدين ما يبقيك حية. كلما أنهكك ظمأ هذه البلاد تعرفين أين تجدين ماءك.

قبلتها على وجنتها دامعة. قاسٍ هو الفراق. قاتل هو الفراق.

هورتنسيا خادعت سيدها **مالك عريبي** زمناً. اطمأن لها غافلاً عن نسجها شباك التواطؤ مع جماعة من الخواجات الأسرى. ظن سنوات زواجهما جعلتها له. لكنها كانت تنتظر. في صبر تنتظر. حين رأت فرجة عبرت منها مسرعة.

نسجت خطة الهرب في روية. ستة من الأوروبيين، قنصل

وثلاثة تجار، وفتاتين. جمعوا المال اللازم، أغروا دليلا واكتروا حرساً. المتسربون من المدينة كُثر مؤخراً. كلما أزاح أحدهم ستر الحصار وفر ضُيّق على من بقي. لكنهم لا يتوقفون.

أسرّت لها **هورتنسيا** أنها هاربة غداً.

أنت وطفلك؟

قطّبت **هورتنسيا** جبينها.

وحدي. لن آخذه معي.

لم تفهم **ثيودورا**. **هورتنسيا** أنجبت من عامين طفلاً حلو الملامح كتمثال صغير من الطمي.

إنه أسود كأبيه. لا ينتمي إليّ. لا أريد شيئاً يذكرني أيامي هنا.

تقول **ثيودورا**:

ربما كان البقاء هنا آمن له.

تسألها عن دفترها.

هل أحمله معي؟ يمكنني أن أنشر ما تكتبين في القاهرة أو لندن.

لا. ما أكتبه ليس للنشر. لا يعني أحداً سواي. ستوحشينني.

اشتقت للعالم المتمدن. مللت هذا السواد والدماء.

في اليوم التالي حاولت **ثيودورا** أن تكتب شيئاً عن فرار **هورتنسيا**. لم تقدر. كان كل ما كتبته عبارة مختصرة:

"أفكّر في **بخيت منديل**"

2

قليلاً ما تتحدث **ثيودورا** عن نفسها.

دوماً تتكلم عنه. تريده أن يحكي. تتدلل. تضحك. وحين يميل بالحديث ناحيتها تتكفئ على صمتها.

يحاول استنطاقها. لكنها تنظر إليه حائرة. حين تنطق تقول له:

أنت لا تعرف شيئاً عن أوجاعي.

أريد أن أعرف.

لكنها لا تقول. يرشوها بمزيد من الحكايات عنه. تتفاعل. تفرح. يرى وجهها يبرق سعادة. لكنها لا تحكي.

يراودها مرة أخرى. لكنها تعيد دوماً ذات الإجابة:

أنت لا تعرف شيئاً عن أوجاعي.

3

تخرج **ثيودورا** إلى مشوارها المعتاد بعد غيبة يومين. يتلقاها **بخيت** بلهفة الصائم. يمرّغ عينيه في وجهها. يتقلب ظهراً لبطن في حضورها. لا يلومها. ترى أثر النار على روحه. لكنها تتشاغل عنها. يمر خلفها على سوق العيش. يحمل عنها ما اشترت. تنتقل إلى سوق الحلاقين. تخبر حلاقاً أن سيدها الشيخ **إبراهيم** ينتظره. ترجع إلى سوق الخضار. تحيي **إدريس النوباوي** وتجلس محتبية على الأرض تحت نصبته. يضع **بخيت** أحماله ويزحف جوارها. تقول له:

لماذا الرجال خنازير؟

يصمت حائراً. لا يعرف هل هي إهانة له أم هو حديث آخر.

عبد القيوم ابن الشيخ إبراهيم لا يكف عن النظر إليّ كلما كان بالبيت. زوّجه أبوه بدل الزوجة ثلاث. وهو على حاله. كلما جاء إلى الدار أحسست بعينيه تفتشان داخل ثيابي.

ينتفض **بخيت**. يصطدم رأسه بباطن النصبة. ينحني **إدريس**

ينظر. **بخيت** هائج يصيح:

ساقتله. كيف يجرؤ؟ سأذبحه.

تمد كفها نحوه، وتسترجعها قبل أن تمسك به. تقول له:

اهدأ يا بخيت. لا تكن مجنوناً. لم يحدث شيء. فقط أشكو لك ما يضايقني. لا تجعل من الأمر كارثة.

يخرج من تحت النصبة متحفزاً. يغلي. ينهره **إدريس**:

ادخل مكانك. تريد قتل ابن ود الشوّاك لأنه نظر إلى خادم في بيته؟ مجنون أنت؟

يقول **بخيت** في تصميم:

سأقتله.

يخرج **إدريس** من خلف نصبته ويجلس إلى الأرض مواجها **ثيودورا**.

لا تسمعي هذا الجبّار. لن يفعل شيئاً. ليس له قلب يقتل. لو رأيته يلقي سلاحه أول ما أحاط بنا الكفار في أسوان لعلمتِ.

تسأله **ثيودورا**:

- كنت معه في أسوان؟

ذهبنا نغزو الترك. أنا رجعت. أما هو فقع في الأسر. لم يرجع إلا بعد سنة.

تنادي على **بخيت**. يلتفت إليها.

تعال حدثني عن ذلك. لم تقل إن إدريس ذ معك.

يقول لها **إدريس**:

أغلب من ترين هنا في السوق كانوا معنا بشير ود رحمة الله الجزار. بحر دارا حارس سوق الحطب. إسماعيل عبد الظاهر بائع الخضار. هل تعرفين صالح ر؟

البائع في سوق العيش؟ نعم.

كان معنا أيضاً.

تنادي **بخيت** الغاضب مرة أخرى. تقول بلطب:

تعال حدثني عن هؤلاء. دع عنك الغضب. ﺀ تريد أن يقتلوك وتتركني؟

يجلس إلى جوار **إدريس**. يقول لها حائراً:

لست خائفاً من الموت. أنا خائف ألا أراكرة أخرى.

إذن دع الجنون وستراني دوماً.

توليه ابتسامة حلوة. يدوخ معها. تهدأ نفسه. ينظر إليه **إدريس** متعجباً. ينهض مصفقاً كفيه.

لا حول ولا قوة إلا بالله. ليس من الرجل رجاء.

أما **بخيت** فيدخل بها سراديب حكاياته. يتلذذ بوحدتهما فيها. يشركها تاريخه.

يتعرّى أمامها وهو في غاية الهناء. فمعها فقط، معها وحدها، يحس أنه حي.

4

يأتيها **بخيت** متسللاً. ينتظر في فسحة الخلاء شمال البيت. تخرج إليه. يسيران يتبادلان حميمية الصمت.

يجلسان قرب النهر. يقول لها:

أحضرت لك هدية.

يدفع إليها تميمة جلدية. تبتسم.

- لم يهدني أحد شيئاً من زمن. ما المناسبة؟

وجدت عملاً في مصنع الصابون.

تبتسم.

مبروك. وهذه تميمة لأي شيء؟

يقول لها:

افتحيها.

تفتح غلاف الجلد فتراه فارغاً. تنظر إلية في دهشة.

هي مليئة بأمنياتي. هي ما تحفظك. هي ما أحب أن يكون دوماً معك.

يضئ وجهها فرحاً. تعلّق التميمة على صدرها.

لا أعرف ما أهديك مقابل هذه الهدية الجميلة.

يقول لها في حرارة:

فقط كوني بخير. تلك أجمل الهدايا.

5

تقول له:

جئتك بشئ ثمين.

يمد بصره ينظر. تخرج دفترها. كانت قد قرأت له منه أكثر من مرة. تمسكه وتتلو عليه ما كتبت. يسمعها بإنصات وتركيز. ولا يفهم. تقرأ ما كتبته بالانجليزية. لا تترجم له شيئاً. يقرأ المعاني على وجهها. حين تنتهي يسألها.

عن ماذا كان هذا الكلام.

عن أشياء تحزنني.

فيرتسم الوجع على وجهه. أحياناً تقول له:

هي أشياء حدثت لي وأنا في الخرطوم. ذكريات.

حينها يتهلل ويحكي لها ذكرياته في الخرطوم. إن قص عليها خبره مع سيده الأوروبي يبد خجلاً. يحتقن وجهه الأسود وينتفخ. لكنه لم يخبرها عن **بثينة** بنت سيده **عبد اللطيف أفندي مظهر**.

فتحت دفترها وأخرجت منه أوراقاً. لوّحت بها وقالت:

هل تعرف ما هذا؟

ينظر فيرى أوراقاً باللغة العربية وأخرى بلغة أجنبية لا يعرفها.

تقول له:

هذه خطابات من مهديكم. وخطابات الحكومة التي كانت توزعها في الخرطوم.

يقول محتاراً:

المطبعة تطبع منشورات سيدي المهدي عليه السلام.

أعرف. أعرف. لكن هذه خطابات قديمة. كانت توزّع في الخرطوم مكتوبة بخط اليد قبل سقوط المدينة. عثرت عليها عند الشيخ إبراهيم. أمّا خطابات الحكومة فهي نادرة جداً. هل تعلم أن هذه الأوراق تساوي مالاً؟

يبتسم.

عندي أوراق كهذه من جردة ود النجومي. رأيت يوسف أفندي سعيد يهتم بها فأخذت بعضها. هل هي ثمينة؟

هنا لا. لكن في العالم المتمدن تساوي الكثير.

في عالم الكفار؟

بخيت يا عزيزي أنت طفل ساذج.

تفتح ورقة وتقرأ له:

"من العبد المفتقر إلى الله محمد المهدي بن عبد الله إلى أحبابه

في الله، المؤمنين بالله وكتابه. أما بعد فلا يخفى تغير الزمن وترك السنن ولا يرضى بذلك ذوو الإيمان والفطن"

تنظر إلى حاشية الخطاب وتقول:

هذا منشور الدعوة. أول ما بعثه مهديكم للناس. مكتوب هنا أنه وزع عام 1298.

تحاول أن تجري الحساب على أصابعها لتحوّل التأريخ العربي إلى تأريخ افرنجي. يقول لها بخيت:

عام 1881. أنا جيّد في الحساب.

هذا الخطاب عمره الآن عشرة أعوام. وكل يومٍ يمر يجعله أقيم.

تقرأ له من الخطاب:

"وأخبرنيِ سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأني المهدي المنتظر. وخلّفني عليه الصلاة والسلام بالجلوس على كرسيه مراراً، بحضرة الخلفاء الأربعة والأقطاب والخضر عليه السلام وأيدني بالملائكة المقربين وبالأولياء الأحياء والميتين من لدن آدم إلى زماننا هذا، وكذلك المؤمنين من الجن. وفي ساعة الحرب يحضر معهم سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بذاته الكريمة، وكذلك الخلفاء الأربعة والأقطاب والخضر عليه السلام. وأعطاني

سيف النصر من حضرته صلى الله عليه وسلم. وأُعلمت انه لا يُنصر عليّ معه أحد ولو كان الثقلين الإنس والجن"

ترفع رأسها إليه وتقول باسمة:

هل تصدق بهذا الكلام يا بخيت؟

ما قاله سيدي المهدي عليه السلام حق.

تمط شفتيها متعجبة. تنتقي ورقة أخرى. تنظر فيها، ثم تقول:

هذا خطاب منه لغردون باشا رحمه الله.

تجري بعينيها عليه. تبتسم وتقول:

اسمع هذا.

تقرأ:

"واعلم أنك إذا أتيتنا مسلماً، نربّيك ونريك من النور ما يطمئن به قلبك. ويزول به طمعك في الدنيا وما فيها. ثم بعد ذلك إن رأينا فيك خيراً وصلاحاً للمسلمين وليّناك"

تخيل. يدعو غردون باشا للإسلام. غردون باشا الرجل الذي كان الرب في قلبه. لا يفارقه الإنجيل. ويعده أن يولّيه. أليس هذا مضحكاً؟

يقول في فتور:

لماذا هو مضحك؟

ألا تعرف من هو غردون باشا؟

كافر قتله أنصار الله.

تضحك. تقول له:

كافر مثلي؟

أنت مسلمة يا حواء. دعي هذا المزاح، فهو مخيف.

حسناً. لا تغضب. سأدع هذا المزاح. غردون باشا، يا أخي الأسود، شارك في حرب القرم وقاتل في الصين وكان حاكماً للخرطوم مرتين. هو رجل مهم في المملكة.

رأت على وجهه نظرة خاوية. أمالت رأسها على كتفها وقالت مداعبة:

أنت لا تعرف حرب القرم ولم تسمع بالصين أليس كذلك؟

هز كتفيه وقال:

لا يهمني.

ضحكت في صفاء. حزنها كأنه شائعة سخيفة. ما عاد هناك. لكنه هرب منها ليسكن روح بخيت!

- ماذا يهمك إذن؟

ينظر إليها بعينيه الصافيتين. ترى ما فعلت به فيهما. تحني رأسها. تقول له:

بخيت.

لا يتكلم. ترفع رأسها وتقول:

سأحضر كل مرة معي مجموعة من هذه الأوراق لنقرأها. سأحدثك عن العالم المتمدن. وربما أعلمك الإنجليزية. ما رأيك؟

لما حان وقت ذهابها قام معها. ودّع **إدريس النوباوي**. وعده أن يزوره ليلاً. مجلس شرب المريسة دائم عند **إدريس** كل ليلة. وهما يمران بزحام السوق توقفت. أعادت النظر. خُيّل إليها أنها ترى وجهاً من الماضي. سألها **بخيت**:

ماذا هناك؟

لحظة! خُيّل إلى أني رأيت أحداً.

ظهر مرة أخرى من قلب الزحام فهتفت **ثيودورا** بفرح:

إنه هو.

أفلتت من جوار **بخيت** وهرولت هاتفة:

يونس.

الثاني عشر

1

وضعوا أسيرهم، **بخيت**، على أحد حصانيه وساروا به قافلين إلى المسلمية. رغم كل شهوتهم للإنتقام ظل **للحسن الجريفاوي** سلطة عليهم حمت **بخيت** ومنعتهم أن يقتلوه. لكن **الحسن** تركه لهم فضربوه كثيراً.

راقب **الحسن** الدماء تتفجر من جسده. بصره يتعلق بالفراغ كأنه ينظر الأشباح. على وجهه حزن الصحراء حين تقابل التائهين. تنزل اللكمات على جسده وهو لا يتأوه. ما أصدر صوتاً حتى كفهم عنه التعب.

قال أحدهم:

إنه ممسوس!

فتشوا حاجياته. عثروا على دفتر لم يفهموه. وأمسك **الحسن** قطعة قماش رثة. قلّبها ثم أعادها حيث وجدها. استخرجوا أوارقاً. نظر فيها أحدهم ثم مدها إلى **الحسن**. ابتسم متعجباً.

مؤمن بسيدي المهدي؟

أجابه **بخيت** في إعياء:

هذه بعض غنائم عمري الثمينة.

قلّب **الحسن** الرسائل سريعاً. لم يفهم ما الثمين فيها.

هذه رسائل عادية.

أنت لم تهبط ديار مصر. هذه الرسائل مهمة عندهم. الإنجليز والترك يشترونها بأغلى الأثمان.

شيء غريب.

سحب رسالة وقرأ ما كُتِب فيها.

كانت بتاريخ 28 القعدة 1306 هـ. قرأ ديباجتها:

"بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الوالي الكريم. والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم. وبعد فمن عبد ربه وأسير ذنبه المعترف بنقصه عبد الرحمن النجومي إلى سيده وسنده وعروته الوثقى ووسيلته إلى ربه خليفة المهدي عليه السلام، الخليفة عبد الله

بن محمد خليفة الصدّيق. نفعنا الله بهديه وأعاد علينا من بركاته. آمين"

سحب رسالة أخرى وقرأ منها ديباجة مشابهة. عاد إلى الأولى، جرى بنظره عليها.

قرأ:

"سيدي وسندي. بعد اهداء شريف السلام ولثم الأنامل الشريفة ومواطي الأقدام. فأنهي لشريف المسامع أنه قد جاءنا كريم كتابكم وجليل أمركم، رقم 3 القعدة، وما أشير فيه من الأخذ بالحزم والانتباه والتيقظ، وعدم الغفلة مع الناس الذين مع الترك كمثل بشير أبوجبران ونحوه لعدم أمانهم ولو كانو مظاهرين بالتسليم والانقياد"

ثم قفز إلى:

"ونقول لسيادتكم عن ذلك سيدي ان دخولنا بأرض الأعداء وبلاد الأرياف ابتداءه كان بيوم الثلاث المصادف 3 القعدة، وفيه وقع مجال القتال في أرقين على الماء. ومن ذلك العهد وإلى اليوم بلغت أيامنا ونحن ببلدهم وأرضهم ثلاثة وعشرين يوم. نمرّ عليهم حلة بعد حلة، ناحية بعد ناحية، فلم يأت منهم وارد ولا معرج ولا قاصد ولا راغب في الدين ولا طالب دنيا ولا تجارة او غير ذلك.

بل جميعهم حزبوا الكفرة واستعانوا بهم فأعانوهم بقطع الميرة من الأصحاب وإمساك أنفسهم عنهم وقبض أشغالهم ومساعدة الكفرة بحمل السلاح ومضاربة الانصار وعداوتهم. وما كاتبنا منهم أحد مطلقاً ولا أرسل إلينا ولا خابرنا لا بشير المذكور ولا غيره من عموم أهل الريف. والذي رأيناه من ما ظهر لنا من أحوالهم انهم لا أمان لهم ولا أيمان ولا رغبة في الدين ولا قبول للمهدية"

رفع بصره إلى **بخيت**:

كنت في جردة النجومي إلى مصر؟

نعم.

أعانوا عليكم الترك الكفار.

ما كان هناك ترك. كان أهل مصر وجند منّا.

أعاد **الحسن** الرسائل إلى الدفتر. قال:

لم ألحق بجردة النجومي. كنت أجاهد في الشرق.

ما فاتك كثير. ذهبنا لنموت. وقد كنت أظن أني ذاهب لأفر من الموت.

لا يعلم **الحسن الجريفاوي** لماذا كلما وجد فرصة مال على أسيره يحادثه. ربما هو الذنب الذي يعربد داخله.

مرافقوه تعجبوا من حنوه على سجينهم القاتل. لكن **الحسن** وجد فيه رفيقاً.

سأله **بخيت**:

هل ستقتلني؟

لا يجيبه. يهرب منه. يسأله هو:

لماذا فعلت ما فعلت؟

يبصق **بخيت** ريقاً جافاً.

أمر الله.

الله جعلك قاتلاً؟

ينظر **بخيت** عميقاً في عينيه. يبتسم.

الله يجعلنا ما نحن عليه. ماذا جعلك الله يا ابن العرب؟

ينتفض **الحسن**. الله لم يجعله قاتلاً. الله ناداه.

اجلس يا ابن العرب واسمع قصتي. فأنا أظنك مثلي قتيل ما تحمله داخلك.

جلس **الحسن** متردداً. لكن قلبه كان بعيداً.

2

ناداني الله يا **فاطمة**.

أما ترين ما أصاب الدين من بلاء؟

تغير الزمان. ملئت الأرض جوراً. التُرك، الكفار، بدّلوا دين الله. أذّلوا العباد.

ألا أستجيب لداعي الله ورسوله إذا دعاني لما يحييني؟

سنجاهد في سبيل الله. في شان الله.

نغزو الخرطوم. نفتح مكة. نحكم مصر.

ننشر نور الله في الأرض بعد إظلامها.

وعدُ اللهِ سيدنا المهدي عليه السلام. وما كان الله مخلفاً وعده مهديه يا **فاطمة**.

واجبة علينا الهجرة. واجب علينا نصرة الله.

عجلت إليك ربي لترضى. عجلت إليك ربي لترضى.

عجلت إليك.. وتركت **فاطمة** ورائي.

3

قال لشيخه **سلمان ود طه الدويحي**:

بيني وفاطمة عهد.

أطرق الشيخ رأسه. قال:

لله الأمر يا ولدي.

يعز عليّ طلاقها يا أبوي الشيخ.

يا ولدي لا خير في مهاجر متعلّق قلبه بالدنيا. إن ذهبت فإنك لا تعود. طلقها تقطع ما بينك والدنيا وتقبل على الله بقلبك كله.

يدخل على **فاطمة** غرفتها. حلوة كما لم يرها من قبل. ندية كشط النهر عند الجزر. مبللة بالشوق. تلمع على جسدها الذكريات. يقف عند الباب. أين منه الكلام الآن. لكنها تعينه. تقول له:

عزمت أمرك؟

يقول والوجع يمزقه:

طال تأخري عن داعي الله يا فاطمة.

سبعة عشر شهراً مروا منذ عرف أن مهدي الله بُعث في الناس. ما انقطعت الرسائل ولا فترت الأخبار. تشتعل البلاد من حولهم.

المهاجرون يخرجون لمهدي الله بالمئات. تلقي إليه الفجاج جوهرها. ما بقي في البيوت إلا متشكك طمس الله عن قلبه النور. أو متردد مثله يخشى أن تكون فتنة.

أوجعه منشور الدعوة حين بلغهم. مده إليه الشيخ **سلمان**. قال له اقرأ. كلمات مخطوطة بنور الرحمن. خفق قلبه وهو يقرأ قول مهدي الله:

"هذا وقد أخبرني سيد الوجود صلى الله عليه وسلم بأن من شك في مهديتك فقد كفر بالله ورسوله. كررها صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات"

خشي أن يحبط عمله. أيكفر بعد ما ملأ قلبه محبةً لله. لكنه ما قدر أن يعزم. استعان بشيخه فما أغناه. قال له:

سل قلبك.

قلبه يعرف الإجابة لكن مخاوفه تشده. قلبه يحلّق به إلى النور المحمدي. لكن مخاوفه تخلده إلى الأرض.

قال لها:

قلبي مطمئن الآن يا فاطمة.

قامت عن الفراش. اهتز، على جسدها، ثوبها. ترجرج فأذهله. اتجهت إلى كومة من الثياب في ركن الغرفة. نبشت فيها ثم عادت

ناحيته. مدت يدها إليه وقالت:

انظر هذا.

تناول منها البيضة. رفعها فقرأ عليها "لا إله إلا الله. محمد أحمد مهدي الله" بكتابة عربية صحيحة. محفورة في قشرة البيضة.

دجاجات المسيد كلها تضع مثلها من أيام.

توافقيني رأيي إذن؟

تناولت منه البيضة. أعادتها إلى مخبأها.

ما كنت لأقف بينك وأمر الله يا سيدي.

والعمل؟

تسبل جفنيها. تقول بحسم:

عاشرتني فكنت خير ممسك. ما قصّرت في حقي. ساكنتني بمودة وأوليتني المعروف. فلا أجزيك أن أكبُك في النار. بيننا عهد لست في حل أن تخلفه.

استند على إيمانه. شد على يقينه. شيء حرّاق يصعد في صدره. قال لها:

- أنت طالق يا فاطمة.

لله الأمر يا سيدي.

ما عاد يراها. حجبتها عنه دموعه.

4

يلقي في الخلاء نفسه تاركاً المسيد وذكرياته خلفه.

يستقبل وحشة المهاجر. وجع فراق الموطن. نهش الحنين. آخر ما تبقى منه هناك صورة ظهره يبتعد على حمار الشيخ في عيني **فاطمة** الدامعتين. مخادع هو الحنين وعبثي للمهاجر. لا يجني منه إلا تمزق لحمه حين يشده بكلّابات جنازيره إلى الوراء وتقذفه رياح الهجرة إلى الأمام. كلما خطى حمار شيخه **سلمان**، الذي صار له، يقطع من عصب انتمائه ويلقي وراءه. ستنبت هجرته عصباً ولحماً وتكسوه جلداً.

يهتز ذيل حماره وهو يطارد ظله نحو الغرب.

بعد أحد عشر عاماً، على مسير خمسة أيام من المسلمية، حين يتذكر خروجه ذاك سيزحف في الظلام متخفياً عن رفاقه نحو **بخيت** في قيده قرب النهر. سيهزه ليوقظه. يقول له:

سأحكي لك حكايتي يا بخيت!

سيسمعه **بخيت** صامتاً وهو يلقي إليه حيرته وأوجاعه. ثم يختم قائلاً:

مهما عرف الإنسان من تجارب فإن فراق الأحبة يظل هو الأكثر وجعاً. الله خلقنا لنركن للجماعة. هذا ما جعلنيه الله.

يقول **بخيت**:

الجماعة شر. والناس ضرر. هو فقط من نحب. ليس العالم إلا من نحبهم. إنِ فارقناهم فارقنا العالم.

لا يجني الإنسان من المحبة إلا ما نحن فيه من شقاء.

يسافر **الحسن** أياماً. تتطاول إلى أسابيع. يتسقط خبر مهدي الله. هاجر، عليه السلام، بأصحابه غرباً إلى جبل ماسا. يتبع، **الحسن**، النور إليه. لا يلقى في طريقه إلا ما يقوي عزمه. فدين الله اندرس. والترك، الكفار، أقاموا دولتهم على الظلم.

كانت الدنيا قبيحة جداً يا بخيت.

ما كفت الدنيا عن القبح يا ابن العرب. حتى بعد أن بُعث سيدي المهدي.

5

أنا ما نسيتك يوماً يا فاطمة.

تحملني أرض وتضعني بلاد. وفي بالي أنتِ. امتحن الله قلبي بمحبتك. فماذا أملك من أمري؟

ما أضعف ابن آدم. كلما تداركته ألطاف الله الخفية للمعالي ناداه قلبه إلى الدنيا وزخرفها.

6

يغطيهم الليل.

يسألون هل يكون اليوم؟

آلاف من المؤمنين. يحاصرون خرطوم التُرك. عاصمة البلاد وقصبة الفساد.

وراء هذا النهر منازل وقصور شيدت على معصية الله. مدينة ترابها الفسق، وجدرانها المعاصي.

أتى أمر الله. أتى أمر الله يا خرطوم.

يغلون بالحماس. نُفخ في الصور. جاء أنصار الله من كل حدب ينسلون.

سقطت المدن واحدة بعد أخرى. وما بينهم والنصر إلا مجرى النهر.

يجلس **الحسن الجريفاوي** بين رفاقه يهتز بالتوتر. يلبس جبة أنصار الله المرقعة. في هجرته رأى كل ما يطمئن قلبه. ما يجمل بمؤمن تخاذل. بلغ الزمان آخره فكان لابد من أن يخرج المهدي. فزع مما رأى في إحدى مدن الطريق وعزم على تحاشي دخول المدن في هجرته ما استطاع. وحتى نزل في رحاب مهدي الله حافظ على عزمه. كان قد دخل في هجرته مدينة الرهد فأفزعته وجعلته يزهد في المدن. شاهد الزينات وداعب فضوله بهرج الفرح. سأل، فقالوا له إنه زواج.

ثم مر به موكب الفرح. زفة يرقص فيها جماعة من الشبان، عيونهم دعجاء ترمي غزلها على المتفرجين. غمزه أحدهم وأرسل إليه قبلة في الهواء. اقشعر جسده. ثم رأى العروس تأتي.

غلامٌ نضرٌ في الثانية عشرة من عمره. مرسومة عيناه بالكحل. يلمع جسده المغسول بالدلكة. تفوح منه رائحة العطور. على كفيه وقدمية نقش حناء. الزوج تركي نحيل. يلبس طربوشاً قانياً بزر طويل. وجلباب مزركش. وفي قدميه صندل من الجلد الثمين.

يمسك في يده سوطاً يهزه على الراقصين المزغردين.

كان ذلك آخر عهده بالمدن حتى بايع مهدي الله.

ما بقي للناس، حتى تقوم الساعة، إلا بعض يوم. هو يوم مهدي الله.

أرسلت المدينة المحاصرة فقراءها والجوعى إلى مهدي الله ليطعمهم. منهم عرف أنصار الله أن الجوع يأكل قلب الخرطوم. ينخرها نقص القوت والجواسيس.

حين دخلت جموع الهاربين من المدينة معسكر أنصار الله ناداه قائده. أمره أن يبقى معية خادم مذعور. تركهما وهرول مبتعداً. نظر **الحسن** إلى وديعته. زنجي هزيل. لا يرتدي غير سروال طويل. يحيط صدره بشرائح جلدية رفيعة. رجله اليسرى بها عيب ظاهر. ينظر الزنجي حوله لكل حركة. حاول **الحسن** أن يطمئنه. لكنه لم يسمع. عاد إليه قائده. أمره:

ستذهب مع هذا العبد حيث يدلك. ستقابل رجلاً يعطيك رسائل. خذها منه وأعطه هذا.

مد إليه ورقة عليها خاتم المهدي عليه السلام.

يمشي شاقاً المعسكر خلف رفيقه. ينفذان إلى الخلاء. يخترقان غابة صغيرة حتى النهر. يرى من بُعث إليه يجلس مترقباً في

مركب خشبي. يقبض على سيفه. العبد يجري مبتعداً، حامداً ربه على النجاة.

السلام عليكم.

يخرج الغريب من المركب. شاب في مثل عمره. نحيل البينة. ثنيتاه بارزتان. يبتسم له.

وعليكم السلام ورحمة الله.

أمروني أن آخذ منك رسائل.

قلّب الغريب بصره فيه. سأله:

من أنت؟

أخبره **الحسن** اسمه. هز الغريب رأسه. قال له:

انا عبد القيوم ود الشوّاك.

مد إليه أوراقاً مطوية. تناولها **الحسن** ثم ناوله الورقة. نظر الغريب إليها دون أن يضع عنه ابتسامته. قال له:

هناك أمر لم يُكتب في الرسائل.

لم يعلّق **الحسن**. هو في الظلام. فعليه أن يسمع دون كلمة.

أبلغ المهدي ان حملة قادمة من القاهرة قد وصلت إلى المتمة.

ستبلغ الخرطوم قريباً لتفك الحصار عنها.

توتر **الحسن** لما سمع. مد الغريب كفه إليه مصافحاً:

لينصركم الله. نحن نعينكم من الداخل. والنصر من عند الله.

صافحه **الحسن** واستدار ذاهباً. لكنه توقف والتفت مرة اخرى. الغريب والعبد يحركان القارب للمغادرة. نادى الغريب:

هل في الخرطوم كثير مثلكم؟

المؤمنون في كل مكان.

رجع **الحسن** ناحية الضفة. قال:

ألا تخشى أن يصيبكم سوء إن دخلنا المدينة؟

لوح الغريب بالورقة الذي حمله **الحسن** إليه.

هذا أماني حين تدخلون.

ثم هتف والموج يحمل المركب بعيداً:

الله معنا يا حسن. إن نصر الله جنده فاسأل عني.

لا يعرف ما في الرسائل. لكنه عرف أنها مهمة جداً. حين أوصلها إلى قائده وأبلغه ما قال **عبد القيوم** شفاهة دبت حركة

عجلة في المعسكر. وقيل ليلاً إنها قد تكون الليلة الأخيرة. ربما يكون غداً هو اليوم، فقد أوحى الله لمهديه بأسرار الخرطوم.

ينزوي **الحسن** جوار رفاقه. يتذكر **فاطمة**. هجرته والجهاد مع مهدي الله. الفساد الذي هدموه. الكفر الذي حاربوه. جثث الكفار التي تحرقها النار بعد موتهم. رأى بعينه جثث النصارى والمصريين تشتعل.

يتمنى الشهادة. حين يقدم على ربه سيقول يا رب! كنت في جيش مهديك ومت في سبيلك.

هل لمثل هذه الميتة جزاء إلا الجنّة؟

7

من الضفة الأخرى يسمعون الألحان. آلات نحاسية تعزف من مكان ما. ألحان حزينة كأنها القدر.

تسري الهمهمة في المعسكر. يقرأون القرآن. **الحسن الجريفاوي** يجد نفسه يرتل ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

طمأنينة الله تغطي المعسكر. تمشي بينهم الملائكة بالبشرى.

وحين صمتت أصوات الخرطوم انبعث فيهم داعي المهدي ينادي. صاح الصائح:

بايعوني على قص الرقبة.

ثم انفجرت صواريخهم في السماء. وعبروا النهر.

الثالث عشر

1

السؤال الذي لم يبارح **مريسيلة** قط هو هل أكلت أمها أخاها حياً أم قتلته قبلها؟

كلما زارته في السجن كانت تشركه حيرتها. ما كان **بخيت** يستحسن ما تحدثه به. يجتهد أن يعرف منها أخبار المدينة، تلك التفاصيل الصغيرة التي تصعب عليه معرفتها في خروجه للخدمة. لكن **مريسيلة** كانت تفضل التخبط في عوالم قاتمة. يوم تعلّمت عمل سحر المحبة جاءت فرحة. عانقته أمام غضب الحراس وهتفت:

أنا سيدة المحبة.

ضحك **بخيت** وقال لها:

أنت صغيرة على أن تكوني سيدة المحبة. أنت طفلة يا صغيرتي.

قطبت غير راضية. أمسكت نهديها الصغيرين كليمونتين وقالت:

لست طفلة. مثلي يرضعن بأقل من هذين.

يضحك **بخيت** من نزقها. تحدثه عن سحر المحبة. تقول له:

إن وضعه العاشق تحت إبطه وتشرّبه عرقه تهواه من يطلبها كائنة من كانت. حتى لو كانت ميرماً.

أين كان منه مثل هذا وهو يترنح في شباك المحبة نازفاً.. يشم الود وتجرحه الأشواق. يضع كفه على رأس **مريسيلة** ويقول باسماً:

ليته كان حقاً يا صغيرتي.

تستكين للمسه وتهبه عينيها. بريئتان كعصفور تحت المطر.

حين تأتيه **ثيودورا** يسألها:

هل كان يجدي سحر المحبة؟

تتحرك داخل غرفة الحبس حذرةً أن توقظ النائمين. تنظر إلى الأب **جوهانس** في حنين. ثم تجلس جواره. تهمس له:

أسئلتك تزيد الوجع يا بخيت.

أنا لا أحس أي وجع. هل أنتِ موجوعة يا حواء؟

تقرّب وجهها من وجهه. تدغدغه رائحة المسك.

انظر إليّ.

عيناها صاخبتان بالأماني.

يا بخيت! هاتان عينا رجل يتألم.

يزمجر في عناد:

لا تحدثيني عن ألمي. لا أريد شفقتك يا حواء. أردتك أنت.

إن أجبتك سأزيدك وجعاً. لا تسأل يا بخيت.

يألف **مريسيلة** وقوتها في ضعفها. يمد إليها أخبار محنته متردداً. كلما أشرك في بعض محبته أحداً ذهب. في حبه شيء من لعنة. أو هو لعنة. ربما لهذا غاب عنه **إدريس النوباوي** ناجياً بنفسه. واختُطف **جوهر**، ففقد كأنه العدم. وجد من **إدريس** رعاية. ومن **جوهر** تعاطفاً. أما **مريسيلة** فتسمعه وتقول:

كس أم الكافرة بنت الشرموطة.

يفزع مدافعاً. تقول له **مريسيلة** مستخفة:

لا تحب النساء العاشق. إن كنت وضعت بين ساقيها ما يشبع غلفتها لملكتها.

يرجف للفكرة. ما لمسها قط. لهذا اشتعل جوفه حين هرعت نحو يونس. تعلقت بعنقه في قلب السوق. هش لها وضحك. أمسكت عضده وهتفت فرحة:

أنا سعيدة أني رأيتك.

وقف يحمل حاجياتها حائراً. أيتبعها أم ينتظر. استسلم لحيرته فبقي منتظراً دون اختيار.

حين عادت إليه في عينيها سعادة أوراق الشجر بالمطر سألها مخنوقاً:

من هذا؟

قالت فرحة:

هذا يونس ود جابر.

سيحفظ الاسم جيداً. ويوم يطلبه ليقتله بعد سنوات سيطارده وعلى كتفه عبء الوجع الذي حمله طويلاً.

قالت له:

هو أول من عرفت في هذه البلاد. كان أحد حراس قافلتنا من سواكن إلى الخرطوم.

توقفت عن المشي والتفتت إليه. قالت في جذل:

أهداني عصفور دوري جميل. أنا أحب العصافير جداً.

من يومها صار يصطاد العصافير ليهديها إليها. لكنه يعرف، أسفاً، أن عصفور الدوري الأول ليس كسعادته مثيل.

2

تجاربه مع **بثينة** ابنة **عبد اللطيف أفندي مظهر** تركت في نفسه ندوباً أسوأ من تلك التي كانت مع سيده الأوروبي ونسيها. كانت تطارده أينما قدرت. في غرفة الخزين. في مخزن الفحم. لونها، في عريها، كان مزعجاً. حين يحتقن وجهها تصبح حمراء حتى يخشى أن ينفجر دمها. لكنه وهو يخلق نفسه، جديداً، في أم درمان عرف الحُسن الأسود. جرّب أجساد زنجيات وحبشيات لم يعرفن الغسل لأشهر. لكنه فيهن وجد متعة ما عرفها من قبل. غطاه حسن الحظ فما قُبض عليه رغم تتبع أعين خليفة المهدي للبغايا وصانعات الخمور. ولمّا فتكت سنة ستة بالناس صعب عليه التردد على النسوة اللائي كان يعرف. ارتفعت أسعارهن ككل شيء. ومات منهن، جوعاً، أكثر من واحدة.

حين تلفّت حوله فرأى الموت يحاصره قرر اللحاق بالجردة

الغازية لمصر. ماتت حبشية يعرفها في الصباح. وعند الظهر سمع أن أحد مستأجريه أكل أصابع كفه ليسد جوعه. فزع وعزم ليلتها على الهرب من الموت. شاع في المدينة أن تجريدة من الجعليين ستلحق بجيش النجومي. تسلل إلى بيت تصرخ فيه النسور. هاجت حوله. دخل فرأى الجثث ممدة على أسرتها كأنهم في نوم. تجاوزها وبحث حتى عثر على سيف ورمحين. لم يجد بندقية. بحث عن نقود فلم يجد. اكتفى بالسلاح وخرج. قدّم به نفسه إلى تجريدة الجعليين. لكنهم أخذوا منه سلاحه وعيّنوه في الخدمة. كلفوه بنقل الماء وحمل حاجيات المقاتلين. رفقته **إدريس النوباوي** و**سبت جود الكريم**. مثله هربا إلى الحرب من الموت.

خرجت، من أم درمان، جردتهم عصر يوم الإثنين. قصدت شمالاً في تصميم لتدرك فضل الجهاد. بلغهم أن أهل ريف مصر ينتظرون الفتح على يد أنصار مهدي الله. القاهرة محطة في الطريق لغزو العالم. قال **سبت جود الكريم**:

ربما، من هناك، نشارك الجيش غزو بلاد الترك وراء البحر.

بخيت لم يركب البحر من قبل. سمع أن في شرقي البلاد بحراً يفصلها عن الحجاز وبيت الله. لكنه لم يصدق أن هناك مجرى للماء أوسع من بحر النيل الفاصل بين مدينة المهدي، أم درمان، وخرائب الترك في الخرطوم. حملتهم الصحراء على مسافة البصر

من النيل حتى المتمة. نزلوها ليومين. فرح الجعليون، فيها، بجردة ابنائهم. احتفلوا بخروجهم للشهادة وأوصوهم بالموت. رأى **بخيت** أمًا تقبّل رأس ابنها، المقاتل، وتودعه قائلة:

لا ترجع. أريد أن أفرح بقميصك الموشح بالدم وسيرتك تموت شجاعاً.

ضجت مدينة المتمة، الصغيرة، بالجردة. وهتفت البيوت:

في شأن الله!! في شأن الله!!

حين تتعجب **ثيودورا** من هذه الحكايات سيقول لها **بخيت منديل**.

فقط حين نكف عن الاحتفاء الزائف بالحياة نعرف قيمة الموت.

يا بخيت! إن الحياة وديعة الرب.

يقول لها:

الموت في شجاعة أكرم من أية حياة. ليس من خلود يشبه أن تغني النساء جسارتك بعد موتك.

تضحك مستغربة ما يقول، فيغنيها:

وكت الموت يجي الفوق السرير موّات

مرحوم اليموت فوق كُوكَب الدرقات

شمال المتمة، على مسير أيام قليلة، في عمق الصحراء قبل أن يبلغوا جيش النجومي في صواردة، بُعث **بخيت وسبت جود الكريم** للصيد. وهما يفتشان، عبثاً، عن ما يؤكل سوى الحيات والنسور الهزيلة عثرا ببيت يتيم بين الكثبان.

سبت ظنه منزلاً لجواسيس الترك بعيداً عن درب القوافل. لكنهما حين طرقاه وجدا به امرأة وحيدة. كانت من نساء العرب. حسناء بمقاييسهم. امرأة ربعة غزيرة الشعر. حياها **بخيت**.

أين الرجال؟

لم تتحرك من مكانها. قال له **سبت** خائفاً:

لعلها من الجن.

لكن المرأة أجابت بعد صمت طال:

ليس معي أحد. إن أردتما الطعام فادخلا المطبخ هناك واحملا ما شئتما. وإن أردتما شراً فالله حسبي.

نحن من جيش خليفة المهدي يا امرأة.

لم يبد عليها اهتمام. سألها **بخيت**:

لماذا أنت وحدك؟

ذهب زوجي إلى دنقلة وأمرني أن أنتظره هنا حتى يرجع.

متى يرجع؟

علم ذلك عند ربي. وأنا أنتظر كما أمرني.

دخلا، متوجسين، إلى المطبخ فوجدا قدوراً ضخمة مليئة بالمطبوخ. عاد إليها **بخيت** يستأذنها حمل بعض القدور فلم تجبه. أخذا ما قدرا عليه وخرجا. وقف عليها **بخيت** مودعاً. قال لها:

نشكر فضلك. إن عاد زوجك فأبلغيه أن جند مهدي الله مروا بك.

قبل أن يخرج سمع المرأة تقول له:

ذهب إليكم ليعرف خبركم.

عاد إليها ليفهم. قالت له في روية:

سمعنا عن رجل صالح يقال إنه مهدي الله. فذهب زوجي إلى دنقلة ليعرف خبره وأمرني أن انتظره هنا.

دُهش **بخيت** لما تقول. قال لها:

يا أمة الله! مات مهدي الله قبل أربعة أعوام.

هزّت رأسها معترضة. قالت:

كلا! سمعنا انه يدعو الناس للجهاد في جزيرة أبا وأن أهله الأشراف في دنقلة سيلحقون به.

هتف **بخيت:**

يا مهدي الله! هذا حدث قبل ثمانية أعوام. اجتمع الناس على مهدي الله وغزوا خرطوم الترك. ومات مهدي الله بعد ذلك والأمر اليوم لسيدي الخليفة.

قالت المرأة في ضجر.

أيها الغريب لا أعرف ما تقول. فاذهب عني. أنا أنتظر زوجي كما أمرني ولا شأن لي بحكاياتك.

من خلفه سألها **سبت** في حذر.

منذ كم وأنت تنتظرين؟

همهمت المرأة تحسب، ثم قالت:

لا أعرف.

يا أمة الله! تنتظرين زوجاً خرج قبل أعوام لرحلة مسيرة أيام؟ أنت أرملة بلا شك.

أمرني أن أنتظر هنا. وما كنت لأعصي له أمراً.

تركا الزوجة المطيعة حيث وجداها. ما قامت من مكانها ولا بدلت جلستها. وما عرفا، أبداً، من أين جاءت بما طبخته ولا كيف تحيا وحدها لسنوات في ذلك الخلاء. قال **بخيت:**

كيف يعيش الإنسان أعواماً ينتظر وهماً؟

قال له **سبت جود الكريم**.

إنه الإيمان يا صديقي.

3

يوم الخميس يخرج **بخيت** مع **محمود الجرجاوي** و**رفعت أفندي السلاموني** في صف طويل من المساجين إلى شط النهر القريب لإحضار الماء. يتركون خلفهم الأب **جوهانس**، تقديراً لسنه ومكانته، والحاج **تاج الدين** المغربي؛ الذي يُصر أن نبوءته بصفته عيسى بن مريم لا تسمح له بحمل الماء مع السوَقة والعوام. يملأ المحابيس الثلاثة ما يقدرون عليه من أوان يعودون بها متخبطين إلى غرفتهم. يعجزهم السير في قيودهم والماء يترجرج في ماعونه.

أيامه تنقر قشرتها كسولة كفرخ مهتز تتشقق عنه بيضة.

يقول **محمود الجرجاوي** نائحاً:

زوجتي لا شك حزينة. ليت محسناً يبلغها خبري.

يصلي الأب **جوهانس** للرب، في ركن، لراحة لا تأتي. أمّا

مصطفى شاكر فتضيع ريالاته على جسد **التومة** البض.

يشبه اليوم الأمس في سواده. يبشّر بغدٍ فاجر العتمة. في قدميه تتقرّح جروح القيود. تنزف الأيام روحه قطرة فقطرة. لا أمل هناك.

تزوره **مريسيلة** فتنعشه وهلة. تأتيه، غِبًّا، **ثيودورا** فيشتعل بالحياة. ثم ينطفئ، بعدها، في قيوده. روحه تتعفن يوماً بعد يوم.

لكنه لا يمل الحلم بساعةٍ يسقي فيها سيفه من دماء الأعداء.

4

فرّ **بخيت منديل** من الموت جوعاً في أم درمان فلقيه الجوع مع جردة النجومي. قلّت الغلال وفرغت الشونة. أكل الناس ما لا يؤكل وتذوقوا ما لم يكن مستساغاً لولا عضة الجوع. لكنهم لا يتراجعون.

رسائل الكفار تأتيهم مخوّفة. تغريهم بالتسليم. توقع بينهم وخليفة مهدي الله الذي بعثهم للموت. المصريون لا يحبونهم. يغيرون عليهم، ويقلقون نزولهم في كل قرية. لكنهم لا يتراجعون.

الهزيمة تبدو قريبة.وأمير الجيوش، النجومي، يخطبهم:

"من أراد الرجوع منكم فليرجع، فإني لا أمنعه. أمّا أنا فاني بايعت المهدي عليه السلام على الجهاد في سبيل الله حتى الموت. وسأموت شهيداً حيث لا أمل في النصر

سبت جود الكريم يقول متعجباً:

هل يُهزم للمؤمنين جيش؟

يهدهم الجوع ويحفزهم الإيمان. مُلك بر مصر دانٍ إن صبروا. فيه عيش وذرة. وما عند الله خير.

الله وعد مهديه أن يملك مصر ومكة والشام. إنما يمتحن الله إيمانهم بالجوع. والنصر لا شك فيه.

يزحفون مقرقرة بطونهم. يبرق لهم وعد الله في آخر الطريق.

ثم لقيهم الكفار. بجيشهم وسلاحهم وغرور ضلالهم.

حين حميت المعركة ألقى **ادريس النوباوي** الحطب الذي يحمله وصاح في رفاقه الخدم:

لا نموت طباخين. قوموا إلى الجنة.

حملوا سيوفهم وتقدموا. ذهب **سبت جود الكريم** إلى الجنة. فر **إدريس النوباوي** إلى أم درمان.

أما **بخيت منديل** فلم يعان الجوع مرة أخرى. لكنه لم يدخل مصر فاتحاً. نزلها أسيراً.

5

يقول **بخيت لثيودورا:**

هزمونا سريعاً كأنّا ما قاتلنا. مات من مات وفرّ من فر.

الحرب لعنة يا بخيت.

الغفلة لعنة يا حواء. خرجنا متعلقين بالإيمان ولا شيء غيره. آمنا بانتظار مصر لنا لنفتحها. قيل لنا إن المصريين يتشوقون للدخول في دين الله. ذهبنا إليهم نحمل رايات المهدي فقتلونا. كنا شجعاناً وكانو شجعاناً. كنا نقاتل عن دين الله، ولا أعرف فيم كانو يقاتلون. ما وهنّا وما وهنوا. لكن ما كان قتالنا إلا هباء. جهد بلا طائل. كأننا ما رفعنا سيفاً ولا أطلقنا بندقية. كنا مؤمنين. لكننا كنا جوعى. انتصروا. وامتلأت الأرض بالجثث.

تنظر إليه راثية:

وأنت؟

يجهد أن ينسى أنه شاهدها قادمة عليه في معية **يونس ود جابر**. تضحك إليه. تهش لما يقول. تعربد السعادة في عينيها.

وجه **يونس** مربدّ بالرغبة. يلمع فيه الطمع. وهي تضحك.

يكبت **بخيت** هواجسه ويقول:

كان أسري من نصيب مصري طيّب القلب تعس الحظ. اسمه يوسف أفندي سعيد.

عرف أنه غير مؤهل للموت. البارود يعبق حوله والدخان يغطي الدنيا. يسمع التكبيرات تغلفها صرخات الموت.

اخترقه الخوف. رجفت يده التي تحمل السلاح. صاح **سبت جود الكريم**:

الموت للكفار.

اندفع نحو العدو مستبشراً بالجنّة. لكن **بخيت** ألقى سلاحه وارتمى على الأرض. جذبه المصري من بين الجثث فتبعه مستسلماً.

يحكي لها كيف قاده سيده المصري إلى بيته. ألقاه عند الباب ودخل مبشّراً. خرجت أمرأتان تنتظرانه. بيضاوان يلبسان السواد.

احداهما عجوز عبوس. ابنتها، المرأة الأخرى، زوجة **يوسف أفندي**. شابة مليحة على عينيها تمرد جامح. سقاه سيده وقرّعته العجوز.

العائدون رجعوا بالغنائم وترجع بأسود هزيل؟

نام مقيداً إلى وتد أمام الباب. لا يفكر في شيء. يرجف بحمى الذهول. قلبه يثب فزعاً. مرةً أخرى يرجع عبداً.

يوم سقطت الخرطوم وفرّ، قبل أربعة أعوام، كان في التاسعة عشرة من عمره. ظن أنه ودّع الرق إلى الأبد. عاش في أم درمان يتعلم الحرية. لكنه اليوم يستقبل رقاً جديداً.

عقله، من الذهول، خاوٍ. يبعثر نظراته على أشباح البيوت البيضاء التي تبرق في الظلام بين أشجار النخيل. يسمع صخب الأهالي منتشين بالنصر.

في الصباح تبع سيده إلى حيث تُركت جثث جردة النجومي. حين وصلا أول الأجساد الملقاة فوجئا بجماعات من الناس تعيث في المكان بحثاً. أحدهم نادى سيده:

يا يوسف! بعض الدراويش أحياء.

قلّبا في الأجساد الساكنة فعرفا الحياة في أكثر من وجه. لكنهم، الأحياء، يكادون يموتون من الإعياء. جلب بعض الأهالي طعاماً

وحاولوا دسه في الأفواه الجافة. بلا جدوى. ثم قال قائل ان مسحوق آبري جرجبيدا ربما نفع. عاد به سيده إلى بيته. تركه مرة أخرى خارجاً. سمعه يصيح في العجوز:

انهم بشر في حاجة للطعام.

سبّته العجوز وشيعته باللعنات. خرج يحمل سلّة دفعها إليه.

امش يا سوداني.

تبعه بخيت صامتاً. سيده نحاسي اللون قصير القامة. يرتدي سروالاً واسعاً وقميصاً أسود.

أسعفا بعض المصابين ثم نهبا عدداً من الجثث. عرف بخيت أن الأهالي أخذوا أسرى أحياء مثله أمس حتى لم يعد هناك مكان في البيوت. قرروا ترك بقية الأحياء في أرض المعركة حتى تجدهم الحكومة.

رجع خلف سيده وقد امتلأت السلة بما نهبا. طبنجات بستة أرواح، رماح، ثياب مزقها بلي البنادق، علب بارود صبيب، بنادق مرتين وبيادة قديمة لا نفع منها، ريالات وجنيهات وكُسر فضة، خرز، رسائل لم تكتمل، دفاتر لا يعلم أحد أهميتها، وأشياء أخرى عديدة.

6

لم يتكلم الحاج **تاج الدين** المغربي معه إلا بعد مصابه في **جوهر**.

كان، حينها، قد أكمل بالكاد عامه الثاني في سجن الساير. **مريسيلة** تدخل حياته متمهلة. يحس الوحشة رغم من حوله. يذكر الموت ويعلم انه بعيد عنه. يتمناه ويخشاه. لن يموت قبل أن يدرك ثأره. هذا ما يريد. لكنه متعب. أرهقته حياته جداً. كلما ظن نفسه حراً زادت أغلاله. فرح بنجاته من قيد نزوات سيده الأوروبي ليقع في بطش سيده التركي ونزوات ابنته. عبر النهر إلى أم درمان وقد ظن عذابه تهدم مع جدران مدينة الخرطوم. فأسره الجوع. فر إلى بر مصر فوجد نفسه رقيقاً مرة أخرى. عاد، بعد عام، إلى أم درمان لتأسره **حواء**. ثمل برقها وحلم بحياة جديدة. توهّمها. فتركت له ثقل الثأر. هل ينجيه من أغلاله سوى الموت؟ لكنه يستحي منها أن يموت وما انتقم لها!

كان جالساً ينزع شرائح اللحم الميت عن ساقه حين نطق الحاج **تاج الدين**.

صوته، في الغرفة الضيقة، عميق كأنه يأتي من صندوق عتيق. لم يكن، في ما مضى، يوجه كلاماً **لبخيت** كأنه غير موجود. يتكلم همساً، إذا اضطر، مع الأب **جوهانس** فقط. ربما نظر إلى **محمود**

الجرجاوي أو **مصطفى شاكر** أو **رفعت أفندي السلاموني**. أما **بخيت** فيخترقه نظره كأنه وهم.

ذلك اليوم، بعد أن جلب الماء مع **محمود الجرجاوي** و**رفعت أفندي السلاموني**، جلس **بخيت** إلى ركن الغرفة يعالج جروح ساقه التي نهشتها قيود المكية. سمع الحاج **تاج الدين** يتكلم.

حققت كلمة الله. ليس حراً من لم يحقق عبوديته.

لم يرفع رأسه ظناً ان الحاج **تاج الدين** يكلم الأب **جوهانس**. لكن المغربي عقّب:

يا بخيت لا تجهد نفسك في طلب حرية لا تدركها أيها المسكين.

ضحك **مصطفى شاكر**. قال:

يا سبحان الله!! رضي الله عنك يا بخيت. ان نبي الله عيسى يحدّثك.

كف الأب **جوهانس** عن خصف سلة القش التي تشغله. نظروا جميعاً إلى **بخيت**.

هل تحدثني يا حاج؟

الله تحدث إلى كل البشر. فلماذا لا يحدثك نبيه؟ تحدث الله إلى كل البشر لكنهم لا يسمعون. انت، يا مسكين، من بعث إليه

الله الأنبياء. لكنك ككل البشر تظن الله خاطب العالم ونسيك.

يا حمار!! إنما يخاطب الله الفرد.

احتار **بخيت** من السباب وضحك رفاق الغرفة.

قال **رفعت أفندي السلاموني**:

يا نبي الله! رفقاً بالرجل فهو لا يعرف طبعك.

الحاج **تاج الدين** المغربي ترك بلاده في الجزيرة الخضراء بالمغرب ذاهباً إلى بيت الله الحرام. عبر ببلاد السودان في سنوات الغليان. أدركه خبر مهدي الله فقرر أن ينتظر حقيقة الأمر ويؤجل حجه إلى العام المقبل. بقي في الخرطوم يراقب منتبهاً ويترصد. مال قلبه إلى التصديق لكنه آثر التريث. ثم آمن حين شهد معجزة سقوط المدينة بيد أنصار الله. شهد بالمهدية وترقّب نصر الله. لكن مهدي الله انتقل إلى السماء بعد خمسة أشهر من فتح الخرطوم. لم يغز مكة ولا فتح الشام وما حكم مصر.

كان للحاج **تاج الدين** بعض معرفة بحساب الحروف وعلم فتح الكتاب. لجأ لما بحوزته من مخطوطات الشيخ الأكبر ابن عربي يستنطقها. فرأى تغير قدر الله. وبلغه أن المهدية قد ذهب وقتها وأظلّ العالم وقت نزول عيسى نبي الله ليكسر الصليب ويقتل الخنزير.

قال **بخيت**:

- يا حاج أنا لا أطلب إلا الراحة.

- يا شر الدواب أنت في راحة.

- أنا أسير أغلالي يا حاج!!

نظر الحاج **تاج الدين** إلى رفاق الغرفة المتابعين في شغف. قال في فراغ صبر.

- من يخبر الأحمق أن العبد لا يبلغ الراحة حتى يحقق العبودية؟

يضحك **مصطفى شاكر**. يقول:

- يا نبي الله لو فهمنا ما تقول لفهّمناه.

- ما لقي الأنبياء شراً من غباء المبَّشرين.

حكى **بخيت** لـ**ريسيلة** ما قاله الحاج **تاج الدين** فضحكت. لها ضحكة صاخبة كصهيل فرس.

- مخبول يقول كلاماً لا يعقله إلا المخابيل.

لكن **بخيت**، وهو لا يفهم ما قاله الحاج **تاج الدين**، يحس فيه قبساً من حق.

كان حين يحدثه **يوسف أفندي سعيد** عن المحبة يحسبه كلام

مخابيل. لكن تصديقه أتى حين عرف **حواء**. واليوم يحس خبل الحاج **تاج الدين** يأتي من ذات المشكاة. ما الحكمة إلا ما نفهمه متأخراً من قول المخابيل الذي لا معنى له.

يزحف في ظلام الغرفة وقد لعق اليأس أن تأتي **حواء** اليوم. يتربع جوار الحاج **تاج الدين**. يهمس باسمه حتى يسمعه يهمهم. يقول له:

- يا حاج! أخبرني عن الراحة للعبد.

7

السبت 27 أغسطس 1881

"الأوروبيون لا يقدمون نموذجاً جيداً للإنسان المسيحي أو المتمدن. كيف ننشر كلمة الرب وهؤلاء يقدمون نموذجاً سيئاً كهذا؟ هناك رجل فرنسي يمتلك أربعين جارية وله من بعضهن أطفال. انه يتشبه بالمسلمين.

أغلب الذين لا يعملون مع الحكومة من الأوروبيين هم مجموعات من المهاجرين الذين يبحثون عن فرص للثراء. شهوانيون لا

يحترمون شيئاً. بعيدون عن الفضيلة، ثبتت في نفوسهم صفات الفساد والغش والعنف"

الأربعاء 8 فبراير 1882

"شهدت الاحتفال بالمولد النبوي لمحمد رسول المسلمين. الاحتفال استمر ثمانية أيام كاملة وانتهى أمس. زرت ساحة الاحتفال شرق سوق البقالة. سرادق ضخمة مزينة بالأعلام والمصابيح. ألعاب نارية وموسيقى الجيش ورجال يشربون القهوة. سألت الأب بولس أليس لهم تراتيل؟"

8

لفتات يونس ود جابر لا تخطئها عين.

لرغبته رائحة وحضور. يحسها بخيت تخنقه. كلما تعثر به في شوارع المدينة ضحك له والخداع في عينيه.

يسألها عنه. تقول:

- صديق.

يكتوي بالوجع ويمسك لسانه.

9

قبل شهر من سقوط أم درمان اشتهى على **مريسيلة** أن يذوق عصيدة من صنعها.

قالت له:

الزاد قليل والغلاء فاش. لكن لا يغلو شيء تطلبه يا بخيت.

قال لها ممازحاً:

لا تضعي فيه شيئاً من سحرك.

جاءته بها في غده. جلس معها في ركن وتناول منها لقمة. عصيدة لينة شهية. ابتسم **لمريسيلة** في إمتنان.

سألته:

هل مازلت تطمع في الثأر للكافرة؟

أنا أعيش لهذا.

تصمت وتنظر بعيداً. يحس ما نما داخلها في السنوات الخمس

الماضية. يشم رائحة ما تخفيه. لكنه ترك قلبه في الضفة الأخرى من النهر.

تكسر قيد الصمت. تقول له:

الكفار يتقدمون. سيموتون على أسوار أم درمان ثم يخرج أنصار الله لغزو مصر. ومن هناك سيغزون العالم. أبشر فربما كان هذا نهاية حبسك.

ينظر إليها متسائلاً. تقول:

يقال إن الغزاة كثر. ربما يحتاجون للمساجين المؤمنين للقتال.

لم تعد تلك معركتي.

يا بخيت لا تسلم للوهم نفسك.

يهز رأسه معانداً. كل الناس يقولون ذات الكلام. حتى **حواء** ترفض أن ينتقم لها. لكنه لا يعبأ. سينفذ ما عاش لأجله.

دين المحبة ثقيل. دين المحبة قيد. لكنه تعلّم أن الحرية في إخلاص المرء لقيده.

قال:

فليأت الكفار أو يذهبوا. لا يهمني اليوم. سأظل أنتظر ثأري حتى تحين ساعته.

أطرقت **مريسيلة** وقالت متمتمة:

يالك من بغل أيها العبد النجس.

الرابع عشر

1

تكومت الأسلاب الصغيرة على أرض الغرفة. جلست إليها **نفيسة فودة** زوج **يوسف** أفندي وأمها تقلبان فيها.

العجوز لا يرضيها ما ترى. أما **نفيسة** فهي لا تهتم. يقف **يوسف** أفندي عند الباب ينتظر كلمة حسنة. لكنها لا تأتي. يحمل خيبته ويمشي حانقاً إلى حيث جلس **بخيت**. يقعي جواره.

يا سوداني أنا أفقر من أن أصرف عليك. ستخدمني بلقمتك حتى نرى ما يكون من أمرك.

مزاجه عكر. لكنه يبدو بائساً لا حيلة له.

قل لي يا سوداني. هل تعرف شيئاً من السحر يستميل قلب المرأة؟

يقول **بخيت**:

أنا أعرف الكتابة. وأحسن أكثر من صنعة. استخدمني، وأجرتي لك. لكني لا أعرف السحر.

ينفض **يوسف** أفندي يده.

ليس في البلدة ما تخدمه، لكن سأجد لك شيئاً ما تفعله. لو كنت مثل بقية السود تعرف السحر لنفعتني ونفعت نفسك. لكن حظي من كل السودان في عبد يعرف الكتابة ولا يعرف السحر.

يربت على كتف **بخيت** ويقوم حائراً. يمشي ويتركه وحيداً.

مرة أخرى هو عبد. كلما خرج إلى حريةٍ ألفى نفسه عبداً من جديد. يُسلم نفسه لقدره. بارع هو في التسليم لقدره. بارع هو في أن يكون عبداً.

يميل بجنبه ويستلقي. يضع على التراب خده. يتنفس هواء مصر الغريب. مثقل بالوحشة. يحاول التفكير في شيء ما. أي فكرة أو ذكرى تشغله. لكنه لا يجد. يكتفي بالفراغ داخله. يبتسم للاشيء. يسمع صوت العجوز تشكو. يغمض عينيه ويحاول النوم. لكن الذباب يزعجه.

***

2

وحشة الغربة في بلاد لا ترحم.

وحدة بلا صاحب. هنا تبدو الحياة غير ما عرف.

عطِشٌ هو لظلم الجهادية، ضيق شوارع أم درمان، جثث الحمير المنتفخة على شاطئ بحر النيل، شجارات السكارى الحذرة بعد أن تملأهم المريسة.

وحدة لا أنيس فيها. وجوه لا ذكريات لها عنده. فوق عداء الغربة عداء المقاتلين.

البيوت حوله من الطين الني مدهونة بالأبيض. تبدو في الليل منيرة. مغروسة متناثرة بين أشجار النخيل. نخيل غريب قصير، جريده زاهي اللون.

الهواء ذاته يخاصمه.

وحيد عاجز. عاجز وحيد.

عبدٌ في بلاد لا ترحم.

3

ليلاً ورأسه على قطعة حجر يحاول النوم أتاه **يوسف** أفندي. رمى إليه بصلاً وبتاو ليأكل.

هب **بخيت** بجوعه. قبض على البصل وقضم منه بنهم. جلس **يوسف** أفندي قربه ينظر إليه.

راقبه يأكل البتاو ويلتقط فتاته ليدفعه إلى فمه. قال له:

شيء غريب يا سوداني.

نظر إليه متسائلاً. قال **يوسف** أفندي:

أنتم! لا يمكنني أن أفهمكم. لماذا تأتون لحربنا؟ كيف تفكرون في غزو مصر؟ لماذا تكرهوننا؟ ألم نحسن إليكم؟ هل هذا بسبب الخديو؟ كلنا نكرهه. أنا كنت من مؤيدي عرابي باشا. لهذا أرسلوني إلى هنا. لكن أنتم تكرهون مصر ذاتها.

قال **بخيت** بفم مليء بالبصل:

نحن جند سيدي المهدي عليه السلام.

هذا درويش كذاب. لقد أحسنت إليكم مصر. حكمناكم بما يرضي الله. كنا نكرم سادتكم وشيوخ قبائلكم. لكنكم لا تردون المعروف بخير.

صمت قليلاً يفكر. بعد برهة صمت قال:

أخي إسماعيل سعيد كان من خلصاء عرابي باشا. كان وطنياً مخلصاً. سرّحوه من الجيش بعد الهزيمة. ثم أعادوا تعيينه مرة أخرى حين اندلعت الفوضى في السودان. ذهب إلى هناك مع هكس باشا لإعادة ضبط البلاد والقضاء على المتمهدي الدرويش الذي أفسد كل شيء واستحل الدماء. أخي رجل وطني شريف. لكنكم قتلتموه. ما ذنب ابنيه ليموت والدهما فقط لأنكم مجانين؟

أمرنا سيدي المهدي بمحاربة الكفار ليكون الحكم لله.

يا سوداني أنتم ناكرو جميل لا غير. بلاد السودان في خير حال تحت الحكم المصري. لكنكم مهاويس دين.

لمع الغضب في عيني **بخيت**. توتر جسده. فكر في القفز على **يوسف** أفندي ليدق عنقه ثم يفر في العتمة. لكن اليأس كان يحبطه. إلى أين يفر في بلاد غريبة. لا يقدر على إراقة دماء. والفرار في بر مصر عسير.

خفض بصره في عجز. لم يرد على سيده. تمتم **يوسف** أفندي في حنق. قام ذاهباً عنه. تركه يستغفر إيمانه بمهدي الله ويلعن عجزه.

4

في تمام الأسبوع كان **بخيت** ينزل عن نخلة قصيرة قُرب منزل **يوسف** أفندي حين رأى موكب العسكر.

كان عاري الصدر يشد على نصفه الأسفل مئزراً متسخاً يستر بعض عورة ويبدي بعضاً. يلتقط التمر ويلقيه أسفل الشجرة. سمع، ووجهه بين جريد النخلة، ضجة العسكر. مال ينظر فما رأى شيئاً. حين بدأ ينزل على جذعها رأى أزياءهم الكالحة تتقدم الى المنزل.

قفز على الأرض. انحنى يجمع التمر، عجِلاً، في خرقة قماش. ثم جرى حافياً نحو المنزل.

وصل مع وقوف العسكر أمامه. جماعة من العسكر السودانية يقودهم مصري مختال. نظر إليه في تمعن وسأله:

أنت بربري؟

رجف قلب **بخيت**. أجابه أن نعم.

ما إسمك؟

بخيت منديل.

خلع المصري طربوشه. مسح العرق المنحدر على جبينه. أمره أن يدعو سيده.

ليس في المنزل. لم يرجع بعد.

خرجت **نفيسة فودة** إذ سمعت الضجة. قذفها العسكر بنظرات تشتهي حسنها البادي فجرّت غطاء رأسها الأسود تحمي به وجهها وتراجعت تستتر بالباب. خفض المصري بصره وقال في صوت خافت:

يا ساتر.

أجابته **نفيسة** من وراء الباب:

ليس في البيت رجل.

قال لها وهو يشير إلى **بخيت**:

هذا السوداني، هل هو من جماعة النجومي الدراويش؟

هو منهم. أسره زوجي قبل أسبوع.

قال المصري:

الحكومة أمرت بجمع الدراويش وحملهم إلى سجن الشلال. لا يحق لكم حجزه هنا.

حاولت الإعتراض، لكن المصري لم يهتم. هجم العسكر على **بخيت**. سقط التمر من يده وتبعثر. قيدوه بحبل من ليف وشدّوا يديه خلف ظهره. خرجت العجوز تصيح.

يا سواد حظنا!! العبد الذي فزنا به تأخذونه.

جره العسكر وذهبوا به. تعثر أكثر من مرة فسقط على وجهه. يرفعونه بغلظة فيبصق التراب من فمه. توسل المصري أن يطلقه لكن العسكر ضربوه. وضعوه في زريبة مع جماعة من الأسرى. عرف فيهم أحد الجعليين الذين سافر معهم. رمقه بعينين من الضعف والحسرة.

حاول تذكر اسمه لكنه فشل. اقترب منه ورمى إليه السلام. تغافل عنه. رجع **بخيت** الى نفسه وحيداً.

دخلوا عليهم فقيدوا أسماءهم في دفتر ضخم. سألوا كل واحد عن قبيلته. أرتج **بخيت**. قال:

سوداني.

ما جنسك في السودان؟

لم يعرف بم يجيب. لا يذكر من أين أتوا به. لم يعرف نفسه إلا عبداً في الخرطوم. يذكر بعسر شيئاً من لغة الجبال البعيدة التي كان يتقنها ثم ذابت على لسانه. قال في خفوت:

من أم درمان.

هز الكاتب رأسه وقال:

عبد.

كتبها بعجل وتجاوزه إلى من بعده.

بلع ريقاً من مرار. هو عامل في سوق أم درمان. مجاهد في سبيل الله. لكن لا يبقى منه بعد كل شيء إلا العبد الذي لا يفلته.

لا يذكر جيداً يوم اصطادوه في الجبال الغربية. ذكريات مشوشة تراوده عن اليوم الذي اقتحم فيه الجلابة القرية. جرى مع أمه متسلقاً الصخور. يذكر إنه كان له إخوة. ربما ثلاثة ذكور أكبرمنه. وأخت رضيعة بلا إسم. كان مذعوراً خائفاً. أمه تصرخ بلغة الجبال "اهرب يا **شكتا**.. لا تتوقف"!

هل **شكتا** هو اسمه القديم أم هو أحد إخوته؟ لا يذكر بدقة. أخر ما شاهده أمه تسقط على الأرض وتفلت أخته. قدماه الصغيرتان لم تبتعدا به كثيراً حين أمسكوا به.

سيده الأوروبي كان يحب زنوجته وقبحه. كان حين يخلو به يمدحه بغلظة ملامحه. وإذ يعتليه **بخيت** يصرخ:

أنت حبيبي الزنجي. أنت عبد قبيح.

فيوجعه **بخيت** من غيظه، ويبتهج الإوروبي. **بثينة** ابنة سيده **عبد اللطيف** أفندي التركي كانت تحب لونه الأسود. تقول ان ماءه دود عفن.

تملأ الدموع عينيه. يسلم نفسه للحزن. ولا يخشى غده. فكل السوء سواء.

5

وفت بوعدها فشرعت تعلمه لغة أوروبا.

حفظها عنها بذهن متقد. قالت له:

هذه الإنجليزية. أشهر لغات العالم. العالم المتحضر كله يتكلمها.

لم تهمه اللغة لكن سره فرحها بتعلمه.

تأتي، عصراً، الى نصبة **إدريس النوباوي** في السوق. تفتح دفترها الممتلئ كتابة وورقاً. ينظر **بخيت** فيه فيرى نقشاً متشابكاً لا يميزه. لا يعرف أن اسمه يغرق كل الصفحات. يأمل أن يجيد الإنجليزية ليقرأ ما تكتبه. يبثها ذلك فتضحك.

هناك كتابة بالعربية. لكن بعد سقوط الخرطوم صرت أكتب بالإنجليزية.

يتأمل الصفحة التي تشرعها أمامه. يسألها:

لماذا؟ ماذا تغير بعد فتح الخرطوم؟

الدروايش يا بخيت لا يأمنون لمثلي. ربما حاولوا قراءة ما أكتب يوماً. من يجيدون الإنجليزية هم أهلي. أوروبيون. لن يسلموني.

يردد خلفها الكلمات. تضحك من تعثر نطقه. يقطب ويقول لها:

انت تنطقين الكلمات العربية بعسر أيضاً.

يا أخي الأسود العربية لغة صعبة، أما الإنجليزية فهي سلسة هينة.

يتبعها في ما تقول. يحفظ المعاني. يتهجى الأحرف برهبة. ثم تقطع درسها وتقول:

سأذهب. يونس ينتظرني عند القبة. يقول إن الأمر مهم.

يتلوى قلبه.

حواء!

تنظره باسمة في براءة. ألا ترين ما بي؟ ألا يلسعك لهب احتراقي؟

ماذا يريد يونس؟

يربدّ وجهها بالغضب. عيناها عاصفتان.

- ما شأنك؟ لماذا تسأل؟

يتراجع سريعاً. بهلع يبتلع كل ما كان على شفتيه من كلام يوشك أن يبثه.

لا شيء. مجرد فضول.

لا ترحمه. تتبعه بقسوة وهو يتعثر في إنكاره.

ليس فضولاً. أنت تضايقني. أرى في عينيك الغضب كلما ذكرت اسم يونس. تنزعج كلما عرفت أني لقيته.

ترين كل هذا ولا ترين موتي على أعتابك؟

لا شيء يضايقني. لماذا أغضب إن ذكرته؟ أنا فقط فضولي.

أنت تكذب!!

تقوم غاضبة. تنسى دفترها بين يديه وتذهب. يعدو خلفها حاملاً الدفتر ويناديها. تنتزعه من بين يديه بلا كلمة. ترمقه بغيظ وتمضي.

يرجع إلى نصبة **إدريس** ذليلاً. يجلس تحتها ويشرد. يميل عليه **إدريس** يسأله:

مالها النصرانية غادرت غضبى؟

يخبره، بوجع، ما حدث. يضحك **إدريس**. يقول له:

يا أعمى.

ينظر **بخيت** إليه في حيرة.

يقول **إدريس:**

قطع الله رقبتي إن لم يكن الجهادي سيأخذها الى خلوة.

يهب صائحاً.

لعنة الله عليك. أنت مخبول.

ضحك **إدريس** في صخب. قلبه يلهث. روحه ثقيلة. هل يكون؟

يحمل حزنه ويجري. يلمحها في خياله بين أحضان **يونس**. جسدها كيوم لمحها تغتسل. الماء يسيل عليه. عارية كبهجة متوحشة. بيضاء كحليب البلابل. شعرها البندقي مبلل يلتصق بعنقها ويتشبث بوجنتيها. عنقها طويل كغزال. ونهداها ثمرتا تبلدي. و**يونس** يحتويها.

يصرخ في الشوارع. ويبتلعه الألم.

6

جوهرة غالية هو طيفها. يحفظه في حضنه وهو يطمع في نوم عزيز.

يراها صحواً في أحلام قاتلة. لكنه يضم إليه طيفها فيشم رائحتها مسكاً. يتقلّب بوجعه. يفكر متى عادت من لقاء **يونس**. أين ذهبا من جوار القبة. يمشي بخياله بين الشوارع. القبة ينحدر منها طريق ضيق ينتهي عند مساكن الجهادية. يتذكرها تلمس عضد **يونس** بكفها. يدفن في الأرض وجهه. حبيبته قطر المطر. هي فقط حمقاء لا تعرف الشر حين تراه. تراوده شفتاها. يعرف أنهما بكر ما مستا.

جميلة هي كأم درمان. لكنها تسحقه كالخرطوم.

يشتعل رغبة. يتشظى حنقاً. يعض شوقه. يطلب النوم. فتصهل الأحلام الموجعة في روحه. يشتاقها كشوق درويش للجنة.

يلعن صاحبه **إدريس**. وتسيل دموعه.

7

يقضم **يوسف** أفندي عود القصب ويمصه بلذة. يقول له بفم يسيل سكراً:

الحب لعنة الرجال يا سوداني. لكنه للمرأة راحة.

يضحك **بخيت منديل** في تعجب. يقضم عوده ويهز رأسه. يقول له **يوسف** أفندي:

بنت عمي، نفيسة، حبيبة روحي. لكن الرضا لا يعرف طريقاً إلى قلبها. سعيدة هي بحبي لها. أما أنا.

يتفل القصب. يخبط بالعود على صدره.

أنا أجلس معك هنا آكل القصب حتى يسكت غضبها وترضى عني. النساء مجانين يا سوداني.

من يوم لحق به في الزريبة ودفع فدية للعسكر كي يطلقوه صار **بخيت** يود سيده. أحس دينه عليه. استنقذه من براثن الحكومة وعاد به إلى بيته. ضحك حين رآه فزعاً يتلفت وهما في طريق العودة. قال له:

لا تخف يا سوداني. الرشوة لها فعل السحر عند العسكر. لن يتعرض لك أحد مرة أخرى.

لما وصلا عند البيت صرخت العجوز التي لا يرضيها شيء:

يا أبله. ينقذك العسكر من الهم، فترحل في طلبه. لماذا جئت بالعبد مرة أخرى؟

قطبت **نفيسة** وابتعدت دون كلمة. لا تكثر الكلام. لكن ظلها على الأرض يصرخ بضيقها. تعيش في بيتها كأنها تسكن سجناً.

تقوم على مضض لخدمتها. لا تجيب زوجها إلا بعد أن يكرر النداء. لا تنظر إليه إلا لماماً. أما أمها، **وصيفة سلامة**، فصوتها لا يخبو. تشكو الليل بطوله وتصرخ عرض النهار.

يوم عاد به طلب من **نفيسة** أن تعد لهما طعاماً. قال متجاهلاً العجوز:

هاتِ شيئاً نأكله فالسوداني قد أذهله الخوف.

تمتمت **نفيسة**:

ليس لدينا ما يُؤكل.

قام **يوسف** أفندي بنفسه إلى المطبخ وعاد يحمل طبقاً مغطى. لم يسألها. لكن العجوز صاحت:

هذا بقية غدائي. هل ستطعمه العبد؟

يا خالتي أنا أيضاً جائع.

وما ذنبي أنا لتأكلا طعامي؟

تجاهلها وأشار إلى **بخيت** ليتبعه خارجاً. جلسا أسفل نخلة وتناولا الطعام. قال له كالمعتذر:

إنها حادة المزاج لكنها طيبة.

بعد أربعة أشهر وهما يأكلان القصب كان **بخيت** قد عرف أن

الطيب الوحيد هناك هو سيده **يوسف** أفندي. يهرب المصري من تجاهل زوجه ولسان أمها ليجالسه ويحكي له. يقرأ عليه الشعر ويضحك حين يرى جهله.

قال الشاعر: لو حُزّ بالسيف رأسي في محبتها لطار يهوي سريعاً نحوها رأسي. أنا أحبها. لا أتعجل أن تحبني. سيزول نفورها مع الزمن. ما استعان العاشق على صد بشيء أفضل من الصبر.

يسأله **بخيت**:

تزوجتها منذ كم؟

ثلاثة أعوام. هي ابنة عمي. زوجنيها عمي ومات. لم تقبل أن يرسلها إليّ هنا. هي تحب القاهرة. أنا في هذا المنفى أقتلها معي. لهذا أعذرها. لكنها ستعتاد. وسيلين نفورها. أنا أعرف ذلك.

يحب **يوسف** أفندي زوجه وسلواه الشعر. بيته ملئ بالكتب. لديه صناديق تتكدس فيها بالعشرات. قرأ **بخيت** على أغلفتها بعض عناوين. تاريخ مروج الذهب. مناهج الألباب المصرية. أنوار توفيق الجليل. اللفيف في كل معنى لطيف.

حين يخرج ليلاً ليوقظه يعرف **بخيت** أنه لقي من زوجه

الصد وما يسوء. يطرد **بخيت** النعاس ويجلس إلى سيده. يقول المصري:

دعنا نتذاكر الشعر يا سوداني.

أنا لا أحفظه يا سيدي لكني أحفظ القرآن.

يقول **يوسف** أفندي بحسرة:

ما شاء الله. هذا حسن. لكنه لا ينفع في ليلتنا هذه.

ثم يشرق وجهه ويهتف بفكرة:

لا بأس. سأقول أنا الشعر. وتقول أنت أول كلمة تخطر ببالك تبدأ بآخر حرف في بيت الشعر. هكذا يمكننا أن نتسامر.

لا يغضبه ما يلاقي. قنوع راضٍ. يحكي **لبخيت** عن نفور زوجه كأنه يحكي طرفة. يخرج عن البيت هارباً من لظاها دون سخط.

يبتدئ قائلاً:

لو أن قلبك لي يرق ويرحمُ ما بتُّ من ألمِ الجوى أتألمُ. ميم يا سوداني.

يحتار **بخيت** ثم يقول:

موت.

يجيب **يوسف** أفندي بسرعة:

التاء فيها ما قال امرؤ القيس: تسلّت عمّايّات الرجال عن الصبا وليس فؤادي عن هواك بمنسلِ. خذ اللام.

يقول **بخيت** بلا تفكير:

لوطي.

يجفل **يوسف** أفندي. ينظر إليه بدهشة. ثم يضحك.

لوطي! حسناً. يا من شَغلت بهجره ووصاله همم المنى ونسيت يوم وصالي. شعر مجنون ليلى.

ما الحرف؟

ياء يا بخيت.

ينبسط **يوسف** أفندي ويبدو مرحاً سعيداً بالشعر. بدا كمن يجالس رفيقاً لا عبداً. يقول **بخيت**:

ياء؟ يقتل.

هذا فعل يا بخيت. قل غيره.

يوجع.

يضحك **يوسف** أفندي.

هذا أيضاً فعل. لكن لا بأس. العين.

يهمهم متذكراً، ثم يقول:

قول المجنون أيضاً: على مثل ليلى يقتل المرء نفسه وإن كنت من ليلى على اليأس طاويا. ألف يا بخيت.

يصمت **بخيت** في ملل. لا يفهم المذاكرة ولا تروقه. يستحثه **يوسف** أفندي. لكنه يقول:

لا أعرف.

يفكر أن يقول " أسير "، لكنه لا يجد رغبة في هذا العبث الذي لا يفهمه. وكلماته التي اختارها عفواً لوثت روحه.

يجهد **يوسف** أفندي، عبثاً، أن يغريه لكن **بخيت** يغوص في التمنع. يزفر المصري في ضيق. ثم يهديه عقله الذي لا يفتر إلى حديث.

هل تعرف المجنون صاحب هذا الشعر؟

مجنون في بلدكم؟

يضحك **يوسف** أفندي.

لا. هو شاعر عربي قديم. أحب ابنة عمه لكنه منعها.

يحكي له أخبار قيس. يرويها بشغف. حين يبلغ خبر موت ليلى

ينشد شعر المجنون على قبرها وهو يتهدج:

أيا قبر ليلى لو شهدناك أعولت عليك نساءٌ من فصيح ومن عجمِ. ويا قبر ليلى أكرمن محلها يكن لك ما عشنا علينًا بها نعم. ويا قبر ليلى إن ليلى غريبةٌ بأرضك لا خلّ لديها ولا ابن عم.

تلمع في نور النجوم دموعه.

هكذا هو الحب يا بخيت. هكذا هو الحب. أن تصبح درويشاً لمن تهوى.

يهز **بخيت** رأسه، ويفكر في النوم. فغده مرهق. ينتظره جلب الماء من الترعة على مسافة نصف ميل. لكن **يوسف** أفندي لا يمل التكرار:

- هكذا هو الحب.

الخامس عشر

1

حين يكف الحاج **تاج الدين** المغربي عن صمته يمسك كف **بخيت** ويخرج به الى الفناء.

يراقبان الطيور التي تنزل على الأرض تفتش عن حبة منسية. الحراس يتبخترون بين المساجين. البؤس يسيل من قيود الأرجل فيغطي الأرض. طيور الدوري الحزينة تلتقط حبات اليأس وتطير.

يقول الحاج **تاج الدين**:

تسألني عن الراحة للعبد!

أنا أسير أحزاني يا حاج.

الحاج **تاج الدين** المغربي أسمر نحيل. عيناه مجنونتان يسيل عليهما حاجب كث. لحيته بيضاء كسحابة. يغرس أصابعه فيها. يخللها صامتاً. يمر بهما مساجين يعابثونه.

يا عيسى يا روح الله!

يزجرهم **بخيت**. يضحكون في العناء الذي يتخبطون به ويمضون.

هذه هي الراحة يا بخيت.

يستخرج أصابعه من لحيته ويشير إليهم.

في حزنهم راضون. لا يضرهم ما يلقون. أتظنني سعيداً بما ألقاه الله عليّ من حمل الرسالة؟

هل أنت نبي؟

ينظر إليه الحاج **تاج الدين**. يعبس.

يا بهيمة! هي أشراط الساعة.

يعد على أصابعه.

يكثر الظلم. يبعث الله المهدي. ثم يحين موعدي.

يهز **بخيت** رأسه. يفكر أن يأخذه الى **التومة**. تمتحن الأقوال بين يدي امرأة لعوب. أو بين فخذيها. **بخيت** خاض امتحانه. لم تهزه **التومة** يوماً. **حواء** داخله أقوى من كل أنثى. هل نبوءة الحاج

تاج الدين قوية مثلها؟ سيده **يوسف أفندي سعيد** قال له:

الحب أقوى المبادئ.

يؤمن بحبه. لكنه يفتقد الراحة.

أرأيت طيور الدوري؟

ينظر **بخيت** إلى ما يشير إليه الحاج **تاج الدين**. يعرفها. وكانت هي تعرفها. كان يهديها الطيور لتنسى طائر **يونس**.

مالها يا حاج؟

تلك أحقر الطيور. هي وباء. لا معنى لخلقها. لو خيرني ربي لقتلتها بدلاً عن الخنزير. تنزل كل يوم إلى الأرض لتسرق ما يسقط من البشر. فيمسكونها. يلعب بها الصبيان. لكنها سعيدة. راضية هي بما تجد. عرفت راحتها فآمنت بها. هل تؤمن بما أنت فيه يا حمار؟

هل تنصحني أن أرضى بسجني؟

هل سجنك نهاية الطريق؟

أنا لا أجد الطريق.

كيف لأعمى أن يخاف الظلام يا جاهل؟

يفكر في كلام الحاج. هل راحته في عذابه؟ **حواء** كانت عذابه.

أم كانت الطريق؟ أم الطريق هو راحته؟ لا يفهم.

قل لي قولاً أفهمه.

سلني عن راحة تفهمها.

يرى وجهها يغطي السماوات.

أريدها.

فاذهب إليها إن كنت صادقاً.

أقتل نفسي؟

هذا طريق. أو تُسلم لله نفسك وتؤمن بما تحت قدمك من طريق. أتظنني سعيداً بما ألقاه الله عليّ من حمل الرسالة؟

أي طريق هذا الذي لا أعرف فيه غدي؟

يمد الحاج **تاج الدين** كفه ويضعها على صدره.

تخرج الطيور الحمقاء كل يوم. تعرف فقط أنها ذاهبة لتلتقط رزقها. لكنها لا تعرف ما يحل بها.

أتوصيني بالحماقة؟

أوصيك بالإيمان.

- لكني حزين.

أنت حزين لأنك غير راض.

يسمع رنين القيود من خلفهما. يلتفت فيرى الأب **جوهانس** يقترب. فيه من روحها كثير. يقول في وجع:

أنا غير راضٍ لأني لا أفهم.

يخبط الحاج **تاج الدين** على رأسه برفق.

أنت طالب راحة. لا طالب فهم.

يصلهما الأب **جوهانس**. يهش **لبخيت**. يقول له ضاحكاً:

هل عبث الحاج بدماغك؟

يجيبه الحاج **تاج الدين**:

يا نصراني! يخاطب الأنبياء القلوب.

يقول الأب **جوهانس** بجدية:

هذا صحيح. فهل عرفت لغة قلب صاحبنا المسكين؟

ينتفخ الحاج **تاج الدين**. يلمع وجهه الأسمر.

أهذا سؤالك لنبي؟

يتركهما **بخيت** لجدالهما. الأب **جوهانس** يمازح في لطف، والحاج **تاج الدين** ينافح في عصبية. يمشي في قيوده إلى الغرفة.

خطواته ضيقة. حلقات المكية تنخر ساقه. لكنها ما عادت توجع.

يفكر في حيرة.

هل أنا مرتاح في قيود المكية؟

2

توجعه أم درمان.

ماذا أصاب الناس؟ ماذا أصاب دعوة مهدي الله.

يتخبط **الحسن الجريفاوي** في مدينة متخبطة. الشوارع تهمس عن عثمان شيخ الدين ابن خليفة مهدي الله. يقولون إن سيدي الخليفة يهيئه لخلافته. هل يغير الخليفة وصاة مهدي الله عليه السلام؟ جعل سيدي المهدي الخلافة بعده في أربعة على الترتيب. أولهم سيدي الخليفة عبد الله صاحب منزلة أبي بكر الصديق. ثم بعده الخليفة علي ود حلو في كرسي الخليفة الفاروق. وترك كرسي ذي النورين للمجاهد السنوسي الذي لم يؤمن بالمهدية بعد. لكن مهدي الله عليه السلام وعد أنه آت لا محالة. ثم من بعدهم ابن عم سيدي المهدي الخليفة شريف. ذلك الذي رباه في كنفه غلاماً ثم زوجه ابنته. فهل يغيّر سيدي الخليفة العهد؟

البيوت تحكي عن مجالس عثمان شيخ الدين التي تُشرب فيها المريسة، وتؤمها المغنيات. وبعض القادمين من الحدود يزعمون أن البوستة تأتيه من مصر وبها كتب الترك وغازيتة العجم.

الناس ما عادوا مؤمنين كما عهدهم الحسن.الأمراء يكنزون الأموال. المقربون يكيدون لبعضهم. في السوق كثر الغش. والمشنقة لا يجف الموت عليها. والصبية يجمعون كل صباح من جانب بحر النيل جثث مواليد تخلصت منهم أمهاتهم هرباً من عار الحرام.

ماذا أصابك يا أم درمان؟

أعلى هذا بايعنا مهدي الله عليه السلام؟

ليلة دخلوا الخرطوم وقف مهدي الله يدعوهم:

بايعوني على قص الرقبة.

فماذا أصابنا؟ هل أكل السوس إيماننا؟

قال لنا المهدي عليه السلام:

"إن الدنيا دار من لا دار له. وهي سجن المؤمنين. وإن الآخرة خير وأبقى وهي دار المتقين. فاتقوا الله واعملوا ليوم ترجعون فيه إلى الله"

يمر في شوارع المدينة فلا يعرف فيها ما بايع عليه المهدي.

يتذكر **فاطمة**. حبيبة الروح. فلا يعرف فيم فارقها. يحرقه إيمانه. يؤلمه ما يرى.

يقصد، حائراً، بيت الشيخ **إبراهم ود الشواك**. يلتقيه عند الباب عبد أعرج. يسأله عن صاحبه **عبد القيوم**. يقول العبد:

بعث يطلبه سيدي عثمان شيخ الدين فذهب إليه.

يسأله عن الشيخ **إبراهيم**.

هو في ديوان الرجال.

يمشي محاذياً سور البيت. متدثراً بحزن بيّن.

من لم يمضغه الحزن في هذه المدينة لا روح له.

ينحرف يساراً ويقف أمام باب ديوان الرجال. ينادي الشيخ **إبراهيم ود الشواك**. يخرج إليه هاشاً كعهده. يعانقه. ويقبّل **الحسن** رأسه. يسمع في مجالس المدينة عن الشيخ **إبراهيم** ما يحيره. لكنه من أجناد المهدي. والشيخ من المقربين لخليفة المهدي. فلا يملك أن يصدق ما يسمع. يوليه المحبة والتقدير. فهو أعلم الناس بجهاد الشيخ **إبراهيم** حين كان المهدي عليه السلام يحاصر الخرطوم.

يهتف به الشيخ **إبراهيم** وهو يقوده داخلاً:

أهلاً بالكريم ابن الأكارم.

يدله على مجلسه. يتربع **الحسن** على وسادة خضراء موشاة. ويريح قدميه على البسط الفخمة. ينادي الشيخ **إبراهيم** عبيده ليحضروا طعاماً. يعتذر **الحسن**. ينظر إليه الشيخ **إبراهيم** متسائلاً. يقول **الحسن**:

الحيرة يا عمي الشيخ. ما تركت لي الحيرة بالاً لأكل.

يا ولدي! هل مس إيمانك ضعف؟

يصمت **الحسن** مفكراً. هل هو ضعف إيمان؟ هذه الحيرة. كل هذا الوجع.

لا أدري يا عمي الشيخ.

يبث شكواه. يحكي عن حيرته. وجعه. حزنه. تخبطه. يبكي وتسيل دموعه مع الحكاية. يقول مفجوعاً:

كيف لو رآنا سيدي المهدي اليوم؟

تلمع عينا الشيخ **إبراهيم**. يقوم عن مجلسه. يدور في الديوان متوتراً. يلتفت إلى **الحسن** متأملاً كأنما يحاول قراءة ما بداخله. يقول بصوت هادئ:

يا ولدي! إنما يعبث الشيطان بقلبك. هذه المدينة صناعة المهدي عليه السلام. صنعها على عين الله. هل نسيت يوم خطبنا في الخرطوم؟ يوم نهانا عن السكنى في مساكن

الذين ظلموا أنفسهم. أمرنا بعبور النهر إلى هنا. إلى البقعة الطاهرة. أم در أمان. هذه الأرض التي لم يلوثها الكفار. واختارها الله لتضم جسد مهديه. ألا تعلم أن الله خلق المهدي من نور عنان قلب النبي؟ فأي أرض أطهر وأقدس من أرض ضمته عليه السلام؟

يقترب منه. يجلس قربه. يضع كفه على كتف **الحسن**. يواصل بصوت منوّم:

أما سيدي الخليفة فهو السائر على درب المهدي. ألا ترى في المدينة غير الشائعات؟ أما ترى المسجد العامر بالمؤمنين؟ أما ترى الناس الذين ألزمهم سيدي الخليفة بحفظ القرآن؟

يهز **الحسن** رأسه مفكراً. ويواصل الشيخ **إبراهيم**:

هذه الشائعات. ما تشكو منه شائعات. إن للكفار جواسيس بيننا يا ولدي. هم من يشيعون هذه الأخبار. يصنعون الحكايات. يقولون على المؤمنين غير الحق. فلا تصدق كل ما يقال. كن كما أوصانا الله عز وجل: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾. هل تجد لنفسك وصاة خيراً من ما قال الله يا ولدي؟

حاشا لله يا عمي الشيخ.

يبتسم الشيخ **إبراهيم**. ينظر إلى عيني **الحسن**.

علاج ما يزعجك عندي إذن يا ولدي. إنما وجد الشيطان سبيله إليك حين فارقت الجهاد. متى كانت آخر جردة شاركت فيها؟

رجعت من جردة الحبشة سنة سبعة. لكني ذهبت إلى سواكن مرتين مقاتلاً مع الأمير عثمان دقنة.

منذ كم؟ خمسة أعوام؟

ثلاثة ربما.

يرسم الشيخ **إبراهيم** على وجهه الذهول.

كثير يا ولدي. كثير. إن الإيمان يصدأ. والسيف يصدأ. هذا ما بك. فلو عدت إلى الجهاد زال عنك ما تجد. هل كتبت اسمك في جردة الأمير محمود ود أحمد؟

لا.

عيب يا ولدي. عيب كبير. إن الكفار يتقدمون. وقد قاربوا دنقلة. لهذا كثر جواسيسهم ينشرون الشائعات. وكل يوم يهرب أحد الكفار من المدينة ليلحق بهم. إن الكفار يهربون كلما حانت لهم فرصة. كان عندي خادم منهم ربيتها كابنتي. ثم هربت. كان هذا قبل أعوام. خمسة أو ستة. كانوا يهربون

كل بضعة أشهر كافر أو اثنان. أما اليوم فهم يهربون في كل أسبوع بالعشرات. ما رأيك أن أكتب اسمك في جيش الأمير محمود؟ تخرج معه للقاء الكفار. تجاهد وترفع رايات الله.

يقول **الحسن** حزيناً:

أخشى أن يقعدني ذنبي عن حلاوة الجهاد يا عمي الشيخ.

هذه خطرفات الشيطان يا ولدي. أضمن لك حين تسمع أنصار الله ينادون " في شان الله "، وتلمع سيوف الله في السماء أنك ستنسى كل هذه المخاوف وتقاتل. أما اشتقت لذة الجهاد؟

اشتقت حلاوة الإيمان يا عمي الشيخ.

فعلى بركة الله إذن يا ولدي. في خروجك هذا تجد الإيمان.

يهز **الحسن** رأسه مسلماً. فيضحك الشيخ **إبراهيم** بصخب ويقول:

انفض عنك هذا الحزن. فها أنت عرفت علاجك. وبعد أيام ستكون مجاهداً يا ولدي. هنيئاً لك.

***

3

يضع إصبعه على صفحة في دفترها كيفما اتفق ويسألها:

ما معنى هذا المكتوب؟

تقول له:

حاول أن تقرأ.

يجتهد في فهم الحروف الأجنبية التي علمتها له. ينطق العبارة بتعثر. يرفع بصره إليها ويقول فرحاً كطفل:

عرفتها.

يشرق وجهها.

اقرأها.

الإنسان كائن وحيد. مهما أحاط به ضجيج البشر. لا يمشي معه درب وجعه سواه.

هذه أنا يا بخيت.

4

كانت ليلة السابع والعشرين من رجب. ليلة المعراج. الملائكة تنزل إلى مسجد المهدي ترعى المؤمنين. وراتب المهدي تئز به الصدور. قرع الطبول يهز العتمة. أنصار الله ينادون.. الله.. الله.. الله. و**الطاهر جبريل** يحمل أمانته على حصان يشق به شوارع المدينة متخفياً. يسأل عن حفّار قبور فينصحونه بعبد اسمه **بخيت منديل**.

يطلبه فيقال له إنه في بيت صاحب في ناحية أبوسعد. يمشي وقلبه مثقل بحمله. ما له إلا الطاعة. فالمؤمن الحق لا يُشكك. يتسرّب في الشوارع المظلمة تطارده صرخات الطبول. يقف أمام البيت فيسمع منه صخب الندامى. ينادي حانقاً:

يا أهل الله! السلام.

يخرج إليه **إدريس النوباوي** منتشياً بالمريسة. يستغفر ربه ويسأله عن حفّار قبور اسمه **بخيت**. يأتيه العبد الأسود النحيل من كُثف الظلام. سكراناً يتعثر.

لم يحفظ ملامحه. لم يظن أنه موته بعد سبعة أعوام وبضعة أشهر. لو عرف أنه قاتله لتأمله يومها. لكنه كان جاهلاً قدره، وكان له من ثقل أمانته ما يشغله.

وحين تركه **بخيت منديل**، جثة يفور منها الدم ما كان نادماً. فقد كرهه منذ رأى هيكله الضخم. كره نقوده التي دفعها إليه. رأى فيها القيح يلوثها. رآه قبل أن يدخل عليه قرب الفجر **النعيم ود الحاج طه** الدليل. كان أشد سكراً. عاد من الخرطوم بمزيد من الهموم. فهرع إلى المريسة يطفئ بها نار قلبه. نظر إليه **النعيم** وسأل عن حاله. قال **إدريس النوباوي**:

دعه فإنه مبتلى.

لكن **النعيم** كان راغباً في الثرثرة ليريح قلبه. استخرج الحكاية ومد إليه الخبر.

يا عتمة العالم اصخبي.

يا شياطين الأرض عربدي.

بيديه دون غيره؟

أكان في قلبه يغرس الفأس؟

النيران تشتعل فيه. أهي مريستك القوية يا **إدريس**؟ أم هو الغضب عليك يا **حواء**؟

كلا!!

إنه يحترق بما يسمع. و**النعيم** يثرثر غافلاً.

ما أسعده بعذابه حين كان جاهلاً. لماذا عرف؟

بيديه دون غيره؟

ياللدماء التي لوثته جاهلاً.

وهو يحز اصابع **الطاهر** سأله:

من أبلغ عبدالقيوم بالتفاصيل؟

لا أعرف. لم اسأل. أنا جندي يؤمر فيطيع.

حكى **بخيت للحسن الجريفاوي** وهو يطعمه على مسيرة يوم من المسلمية. لم ينطق **الحسن**. لكنه فكر..هل يكبنا في النار إلا أنّا أمرنا فأطعنا؟

خيّبه الله! لو عصى نجى.

6

لو عصى نجى.

لو عصى نجى.

الخيل ترمح في المتمة. النار تجتاح البيوت. صوت النسوة

يصرخن.الرجال يندفعون للموت. فيتلقاهم مرحباً.

المدينة تتمزق. الله أكبر. الدخان الأبيض.

اقتلوا الكفرة. خانوا الدين. اقتلوا الكلاب.

صرخ. رفع رمحه. واندفع إلى الأمام.

7

الأربعاء 4 يونيو 1884

"التجار المصريون أخفوا الغلال. تضاعفت الأسعار. فضل العزيز تقول إن مصاريف السوق لم تعد تكفي لشراء شيء. والأب بولس لا يعرف كيف يتصرف في هذا الأمر.

المدينة تترنح من الجوع. الحصار يشتد والوطنيون لا يجدون ما يأكلونه. غردون رفض أن يطرد أسر المؤيدين للدراويش. المؤن لا تكفي لكن غردون يصرف الذرة لأسر سودانية معروف أن لها أبناء يقاتلون على الجانب الغربي من النهر ويحاصرون الخرطوم.

كوّن القناصل وكبار الشخصيات الأوروبية والمصرية وفداً

قابل غردون وكلّموه في هذا الشأن. لو أخرج هؤلاء الناس من المدينة يمكن الحفاظ على المؤن لمن يستحقونها من مؤيدي الحكومة"

الثلاثاء 1 يوليو 1884

"استصدر غردون باشا فتوى من علماء المسلمين بالمدينة تبيح للمسلمين عدم صوم شهر رمضانهم بسبب الحرب".

الأربعاء 3 سبتمبر 1884

"سمعت ضجة ضخمة في الشوارع. نظرت من النافذة فلم أر شيئاً. نزلت فوجدت احدى الخادمات في الطابق الأسفل. سألتها عما يحدث. قالت إن الباشا، تقصد غردون، أمر بطرد عوائل مؤيدي الدراويش، ليعبروا النهر ويلحقوا بمعسكر الأعداء على الجانب الغربي"

الجمعة 10 أكتوبر 1884

"انتشر خبر أن غردون أصابه اليأس من مكاتبة الدراويش

وأرسل إلي قائدهم نجومي خطاباً أمس الخميس يقطع فيه المفاوضات معه"

8

في عامه الأخير تقارب مع الحاج **تاج الدين** المغربي.

صار ملازماً له لا يفارقه. ينزل جنونه على قلبه بالراحة. منه تعلّم الحرص على الصلاة. صار مولعاً بها. يقف بين يدي ربه يسأله السكينة. يطلب منه مغفرة ما سيقارف. وتأكله سنوات السجن. ارتاح إليها. بدأ يخالطه اليقين أنه باقٍ هنا إلى الأبد. لسانه يزعم أنه خارج إلى الثأر. لكن نفسه سكنت إلى حياة السجن.

هو أسير الساير. هذا عذره عن ثأره. عرف أن الراحة في الرضا. والحرية في صميم القيد. أكثر ما يكون المرء حراً حين يكون عبداً صميماً.

يلازم الحاج **تاج الدين** ملازمة العبد لسيده. الصحابي لنبيه. ويعابثه الأب **جوهانس:**

توشك أن تكون كبولس الرسول.

تزورهُ **مريسيلة** فتزوره الحياة. يستشعر مسئوليته نحوها. تخبره أن **نعمة الساتر** ماتت. وأنها انتقلت إلى بيت أمها القديم. تنضج يوماً بعد آخر. حبة عنب سوداء لامعة تتكئ على كرمة البؤس. يسألها عن رجل في حياتها. تضحك.

لا يوجد رجل في أم درمان لا أعرف مزاجه. لا يوجد رجل في أم درمان لا أعرف قدرته وطاقته. لكنهم لا يستحقون مريسيلة.

ياللسانك الغريب!

تهز كتفيها في لا مبالاة.

كلهم مغرورون. يظنون أنفسهم فحولاً لا تفتر. تيوس غبية.

يسألها:

هل تبحثين عن الحب؟

ترمقه مستنكرة.

أنت وأحاديث البيض المعاتيه! ما هو الحب؟ المرأة تريد رجلاً واحداً. تسكن إليه. يشبعها عن غيره. أما الحب الذي تبكيه فهو من خطرفات البيض التي تتوهمها معهم. هل أضاعك إلا هذه الأوهام.

الحب يا مريسيلة لذعة في القلب. لكنها مفرحة. كنت مثلك أتعجب حين يحكي لي عنه يوسف أفندي سعيد. لكني ذقته فعرفت حلاوته.

تمط شفتيها وتقول مستنكرة:

هُرارك.

يضحك من بذاءتها.

يحكي لها عن حب **يوسف أفندي سعيد** لزوجه **نفيسة فودة**. كيف لوعته. ما رأه منه وهو يأوي تحت ظل ابتسامتها إن أفلتت منها يوماً. كشمس تشرق بين سحب طال غيمها. لياليه التي ينفقها تودداً. كراهيته لأمها المشئومة **وصيفة سلامة**. لكنه يتوسل منها رضاً يسعد حبيبته. يحكي و**مريسيلة** تتأمله ممتعضة. يبدو عليها الضيق. ويفح قلبها بلذعة لا تفهمها.

تتأمل ملامحه الغليظة. أصابعه الممتلئة. براجمه المتغضنة. رائحة العناء والقهر تفوح منه. حزن عينيه الواسعتين كأنه فرغ من بكاء العمر لتوه. لكنه يبدو لها أكثر كبرياءً من أمراء وقادة عرفتهم. أولئك الذين يلهثون خلف حبشية بضة لمحوها عرضاً في شوارع المدينة. فيزحفون إلى **مريسيلة** تلمع أعينهم بالرغبة يطلبون الوصل. تبذلهم خدماتها، تدبر مواعيد، تمدهم بنصائح.

ثم تغلق عليهم غرفة بيتها وتنتظر خارجاً تحصي أرباحها. حين يخرجون، بعد فراغ سريع أو طويل، يبدو الرجل كائناً من كان ذليلاً تافهاً. أفرغ ماءه ونزا هيبته وسلطانه. يخرج لاهثاً متعثراً لا يطلب غير الفرار. أمّا **بخيت منديل**. **بخيت** يبدو لها أسطورياً. خانع لمشاعر غبية إلى حد الذل. لكنه يبدو في توهج رجولته كلما بدا ذليلاً بحبه.

في آخر مرة زارته قبل سقوط المدينة بتسعة عشر يوماً تمنت لو قدرت أن تلمس ساعده. كان يحكي عن **حواء**. يجتر ذكرى **يونس** بألم. يبذل توعدات الثأر. وهي تسمعه مكابدة رغبتها الجارفة أن تمسه. نجحت في كبح نفسها بمعجزة.

في تلك المرة. وهي ذاهبة نظر إليها الحاج **تاج الدين** المغربي متأملاً. سأل **بخيت**:

ما الحكاية؟

قال **بخيت**:

قالت إن الكفار يتقدمون. سيلاقيهم أنصار الله خارج أم درمان.

ما حكاية البنت؟

البنت؟ إنها مريسيلة. أنت تعرفها منذ سنوات.

راقبها الحاج **تاج الدين** المغربي تختفي خلف الأسوار قبل أن يقول:

أنا أعرفها منذ سنوات. لكنها لم تكن هكذا منذ سنوات.

قبل أن يسأله **بخيت** عن مقصوده قال الحاج:

هلم بنا إلى الصلاة.

9

يقرأ ما كتبته في دفترها:

لا تحزنك الأيام التي تمر. فهي وجع انقضى وخلاص اقترب.
لا أفهم من يخافون الموت. هل يكره إنسان الخلاص؟

يفكر فيها. حزنها. وجعها.

هل خلصوها من عذابها؟

لكنه رغم هذا يقتل النعيم ود حاج طه الدليل تلك الليلة.

السادس عشر

1

نزل المصاب بسيده **يوسف أفندي سعيد** من حيث لم يتوقع.

بخيت كان يرى المياه تحتشد منذرة بالطوفان. لكنه كان بعد غضاً لا يثق في تقديره. فاكتفى بالمتابعة في صمت. لم يعرف هل عليه أن يثق في غريزته الناشئة أم لا. وبدا له سيده **يوسف** أفندي ضعيفاً هشاً لن يتحمل أخباراً كالتي سيلقيها عليه. فتلفّح صمته وبقي يراقب.

جارهم **فوزي أمين** رجل أسمر. يرتدي دوماً طربوش قصيراً مضحك الشكل. له جسد بدين متكنز. ووجه طفولي الملامح كأنما ولد قبل ساعات. وشارب رفيع غارق بالزيت. يضحك كغلام بريء. يلتقيه **بخيت منديل** في الطريق فيعانقه وهو يهتف:

أهلاً أهلاً يا سوداني.

يصر على دعوته لتناول الطعام في بيته. لكن **بخيت** يتملص. يمر **فوزي أمين** على منزل **يوسف أفندي سعيد** كل بضعة أيام. يقف عند الباب ويبعث السلام. يلحظ **بخيت** كيف تهش له **نفيسة**. يرى احتشاد نفسها في وجهها الذي يحتقن حين تسمع صوت **فوزي**. حين يزور زوجها تسرع إلى المطبخ لعمل الشاي الثقيل الأسود. تتثنى في مشيتها وتبدو ريانة كنبتة سقيت لتوها. يشرب **فوزي أمين** الشاي بتلذذ ويرفع صوته بالثناء. يشرق وجه **يوسف** أفندي. يقول له:

الله يكرمك.

يصر **فوزي أمين** بصوت عالٍ:

هذا شاي سلطاني. أنت في نعمة يا يوسف أفندي.

حين ينصرف يتودد **يوسف** أفندي لزوجه بمدح جارهم لصناعة يدها.

سلمت يداك الحلوتان. لقد أعجب الشاي فوزي.

تمط شفتيها وتمضي غير عابئة.

أمها العجوز تمدح الرجل. يسمعها **بخيت** تقول:

رجل كريم. ماله ليس له. لا ينقص بيته شيء. ولا يمشي بين

البيوت إلا بهدية بين يديه.

يأتيها القماش الذي يبعثه **فوزي أمين** يحمله **بخيت**. يبلغها رسالته:

قال إنه أحضر قماشاً هندياً جديداً، لا يستحق أن يلبسه غيرك.

يراقب **يوسف** أفندي فرح **وصيفة سلامة** بالهدية فيسارع إلى **فوزي أمين** ليحضر منه المزيد. يقسم الرجل ألا يبيعه، ويحمّله ما يطلب هدية مع كثير الود والابتسام. يرجع **يوسف** أفندي بالقماش منتشياً فتتلقاه العجوز بعبوس وتقبله منه على مضض.

نفيسة، إذ يغيب زوجها، تبدو مشرقة متهللة. تتمايل وهي تغني في مرح "عدي يا المحبوب وتعالى. وإن م جيتش أجيلك أنا. وإن كان البحر غويط. أعملك قلبي سقالة"

في الجو ما يحتشد. يخيل إلى **بخيت** أنه يرى المأساة تقترب. تتشمم أطراف سيده. توشك أن تعضه. لكنه يتشكك.

يأتيه سيده ليلاً حاملاً شيئاً من طعام أو بعض شاي بارد. يجلس إليه يقص عليه، بحزنه، أخبار عشاق العرب وأشعارهم. يسأله عن بلاد السودان والمهدي والدراويش. يستغرب كيف يكرهون التحضر ويحبون الموت.

يقول له:

يا سوداني! لن أفهمكم ما حييت.

يجيبه **بخيت** بالإلفة التي كستهما بعشرة العام:

وأنا لن أفهم ما تحكيه عن الحب يا سيدي ما حييت.

يبتسم **يوسف** أفندي.

لا تعجل على نفسك. إنما الحب قدر.

2

البلاء يقترب.

يرجع **بخيت** إلى البيت قبل سيده فتدخل بعده **نفيسة** لاهثة. عيناها تبرقان وأنفاسها متلاحقة. حين تراه تنظر إليه محذرةً دون كلمة. تلقي عنها ملاءتها وتهرع إلى أمها.

تتبادلان الهمس والضحك. فإذا دخل سيده صمتتا.

في خاطره يتردد اسم **فوزي أمين** بقوة. لكنه لا يعرف لذلك سبباً.

يراقب الطوفان يقترب من رأس السد.

قلبه يقول له إن الهول قريب. لكنه يصمت متشككاً في معرفته.

3

قرر أن يمارس الجنون حين طال غيابها عنه.

قال لإدريس النوباوي:

سأقول لها إني جئت أرد إليها أمانة.

يهش إدريس الذباب عن خضاره.

هذه حيل أطفال. لن تصدق.

لا يهم. أريد أن أراها.

سل عنها صاحبك الأعرج.

يهتف بشوقه:

لا أبحث عن خبرها. أريد أن أراها.

يقول إدريس مستسلماً:

ماذا أقول لك؟ لقد هبلت بها. إذهب. وسأراك قريباً معلقاً على مشنقة السوق.

خرج عن السوق وقصد شط بحر النيل. نصب فخه في الأرض. غطاه ببعض الطمي. كمن بعيداً ينتظر. بعد برهة نزلت عصافير الدوري تلتقط رزقها. طاش أحدها فانغلق عليه الفخ. برز من مكمنه ففرت الطيور. أمسك العصفور في كفه برفق.

يمشي في شوارع المدينة حذراً أن يشي حبه به. يرمي بصره على الأرض خشية أن يراها المارة في عينيه الواسعتين. حين يصل منزل الشيخ **إبراهيم ود الشواك** لا يتردد أمام الباب. يدخل إلى بيت الخدم مستجمعاً نفسه. تنظره النسوة بدهشه. تلمع ابتساماتهن المسروقة ويتبعثرن في الحوش الواسع. يقف واجماً لا يعرف ما يقول. هل ينادي على **صباح الخير** أم يسأل عنها؟ يجمد في مكانه ويحس عرقه يسيل من جبينه وأسفل إبطيه. لكن الله يرأف به حين يراها تخرج من الباب الفاصل بين حوش بيت الخدم وحوش المنزل. تمشي خافضة بصرها جوار **عبد القيوم** ابن الشيخ **إبراهيم**. يسير مختالاً وهو يحادثها. عيناه تتمسحان بها. تلمسانها. ابتسامته وهو يتحدث شرسة كفأر يلوك خبزاً. وهي.. حبيبة روحه. شفتاها تبتسمان. لا تتكلم. تمشي جوار **عبد القيوم** تسمع ما يقول وتبسم. يفوح منها دلال ساحر. وحين يستدير **عبدالقيوم** عائداً من حيث خرجا ترفع عينيها فتراه.

يشتعل بغضب. يلتذ بسعادة. يتمرغ في حيرة. لكنها تهش.

تهرول نحوه بين نظرات الخدم المختلسة.

بخيت. حمداً للرب أنك أتيت.

لكنه لا يتكلم. يمد إليها حزناً. تتناوله منه. يتركه لكفها البض ويستدير ذاهباً. بلا كلمة. هو لا يجد الكلمات السيئة التي تعبّر عن حاله. حين يغادر البيت يتذكر أنه لم يهدها عصفور الدوري الذي يحمله في كفه. يفتحها فيطير العصفور مرفرفاً.

يمشي بغضبه والشوق يصرخ فيه بصوت واه تمهّل. لكنه لا يلوي. يتركها تبعث خلفه غضباً يفوق غضبه. حنقت عليه حد الكراهية. ففي اللحظة التي استدار فيها فضحت نفسها بالهلع. كادت توشك أن تناديه مسترضية. لكنه مرق قبل أن تنطق. حين التقته، بعد يومين، عند نصبة **إدريس النوباوي** كان بعد واجماً وهي مترددة. ابتسمت له في دلال. سألته:

ماذا بك؟

لم يرد. نظر إليها بحثاً عن إجابات ما أرقه ليومين. لم يبد عليها غضب لتودد **عبدالقيوم**. ما كانت ساخطة كما تخيلها. كان يمكنه أن يقتله هناك لو رأى على وجهها شيئاً من رفض. لكنها بدت سعيدة. سعيدة؟ هل حقاً كانت سعيدة؟ لو لم تكن سعيدة فلم كانت تبتسم؟

تقول له:

كنت محرجة. لا أعرف كيف أرد تحرشه. لم أكن راضية يا بخيت.

يغمغم:

لم أسألك تفسيراً.

لكني أدين لك بواحد. كما تدين لي باعتذار. لقد أهنتني.

يفزع. يهتف في انزعاج:

أنا أهنتك؟

يبدو الضيق على وجهها الرقراق.

تركتني بوقاحة وذهبت. كنت مشتاقة لرؤياك.

مشتاقة لرؤياك.

مشتاقة لرؤياك.

ينتفض مع العبارة. يتلجلج. يمتلئ فمه بالكلام فيندلق منه مختلطاً بلا معنى واضح.

تقطب جبينها وتقول:

أنت عزيز عليّ جداً. لكنك جرحتني بما فعلت. ظلت الخادمات يتغامزن بحماقتك طوال الليل.

يعثر على عبارات الاعتذار فيسكبها حارة. تتدلل. تبدي وجعها لفعلته. ثم تعفو عنه. يهلل فرحاً و**إدريس النوباوي** يراقبه حانقاً. وحين تضحك له يهب واقفاً. تسأله:

إلى أين؟

يقول في حماس:

سأذهب لأصطاد لك عصفور دوري آخر.

4

وقف في البيت الخالي حائراً.

أين **نفيسة فودة** وأمها العجوز **وصيفة سلامة**؟ حال البيت يبدو كمن هجره أهله. الأثاث في غير أماكنه. الملاءات وأواني الطبخ ليست هناك. الغرف المغلقة، دائماً، مفتوحة كأعين جاحظة من الدهشة. النوافذ تتخبط بالهواء العاصف.

على الأرض قماش هندي ملقى كأنما نسي في عجلة فرار. دخل إحدى الغرف فعثر على جلباب نسائي مورّد وإسورة من ذهب رخيص.

فتّش البيت بدقة فعثر على أشياء كثيرة منسية. جمعها ووضعها على الدكة الخشبية في الصالة. ثم خرج واحتبى جوار الباب. ثبّت بصره على أول الطريق ينتظر مقدم سيده. لا يفكر إلا في **فوزي أمين**. هذا الخواء سببه **فوزي أمين**. لقد بلغ الماء قمة السد ثم انحدر جارفاً كل شيء. المرأة وأمها فرتا مع الجار المتودد. هل هذا هو الحب؟

يعرف النساء في البيوت السرية في أم درمان. ذاق أجساد الزنجيات والحبشيات. عرف الرغبة والاشتهاء. لكنه لم يعرف ذلك الحب الذي يهلوس به **يوسف أفندي سعيد**. أن تحترق لأجل امرأة واحدة. تتوجع طلباً لكلمة منها. تتلظى في انتظار لفتة تمنحها لك. ثم.. تتركك وتذهب. تدير ظهرها وتمضي غائصة في الغياب. كان يحس الحنق للخيانة. ويعتصره الرثاء لسيده. لم يكن هذا ما انتظره بعد طول الصبر.

يراه طالعاً من بداية الطريق. تحمله الغفلة. هل ما يراه على شفتيه ابتسامة؟

يقترب **يوسف أفندي سعيد** من البيت. يلوك مزيداً من الصبر على شح الوداد. لا يفتر له أمل أنه عائد في يوم فتتلقاه **نفيسة** بالمحبة والبشاشة. لكنه اليوم عائد لتتلقاه بما لم يحتسب.

5

ما كسبه من مغامرته الأخيرة أنها سمحت له بالتسلل إلى بيت الخدم ليزورها أحياناً.

ما عاد لقاؤهما فقط عند نصبة **إدريس النوباوي** في سوق الخضار. بات يزورها في البيت متخبئاً. ينتظر نزول الظلام ثم يتسلل داخلاً. يطرق شباك غرفتها ثم ينفلت خارجاً. تلحق به وتمشي معه تحت ستر الليل. يتحادثان بمرح. يتبادلان نظرات لا تصل. يشم رائحة المسك التي تفوح منها. تحكي نتفاً متفرقة عن سيدتها **حسنية فرج**. ويحكي سيلاً لا ينقطع عن خدمته في السوق، البيوت التي دخلها، المجاهدية الذين قابلهم، وأخبار الدولة المتخبطة.

في مرات تجلس إليه داخل الحوش. تطمئن أن الخدم قد ذهب بهم النوم بعيداً فتفرش جراءتها على الأرض وتدعوه للجلوس مسندين إلى جدار غرفتها. يتأملان السماء ويتسامران. يقرأ عليها ما حفظه من أشعار مجنون ليلى التي كان يسردها سيده **يوسف** أفندي في ليالي كهذه. تحكي له هي عن النجوم. تشير إلى الأبراج. ترسم بسبابتها أشكالاً على السماء السوداء.

يقول لها:

- هل ترين تلك النجمة؟ سأصعد إلى السقف ثم أطير نحوها.

سأخطفها، وأسرق من القمر خيطاً، وأصنع لك حجلاً تضعينه حول ساقك.

تضحك، ثم تدعي الغضب.

نجمة واحدة فقط؟

كل السماء.

لا أنت قلت نجمة واحدة فقط. أنت بخيل.

يسألها عن عصافير الدوري التي يهديها لها. أين تذهب. تبتسم ولا تجيب. يرفع رأسه إلى نافذة غرفتها. يخيل إليه أنها مليئة بعصافير الدوري التي تطير داخلها في كل مكان.

يحكي لها عن أول مرة رآها فيها تمرق أمامه في هذا الحوش. يوم وفاة سيدتها القديمة **النوّار بنت الحاج قاسم** المغربي.

شم رائحة المسك. تعبّق الكون برائحتها. رفع رأسه ينظر. أحلى أحلامه. كانت تسري في الحوش وعلى وجهها مسحة حزن آسرة. نظرت إليه دون أن تراه. لكنه أحس قلبه حاراً كمن به حمّى. تمر عابرة كأنها رؤيا.

تضحك من حكايته. تهز رأسها متعجبة.

خمسة أيام مرت من لحظة رآها في حوش بيت الشيخ **إبراهيم ود الشواك** حتى لقيها صدفة في السوق.

أيام ما عرف مثلهن من قبل في حياته. باله منشغل بتلك البيضاء التي رآها خطفة. كلما مشى في الطريق فكّر هل يمكن أن تكون هناك تنظر إليه من بعيد؟ يستقيم في مشيته ويشد ظهره ليبدو أكثر قوة. يسمع الناس يتكلمون فيسأل نفسه كيف هو صوتها؟ ملأ خيالها نهاره. كان ذاهلاً لا يفهم ما أصابه. ما هذا الذي يحسه. في الليلة الثالثة من مزاحمة خيالها لواقعه ألقى نفسه على فراشه واستعد للنوم وهو يخاطبها مستسلماً:

أسرجت لكِ أحلامي. هيا تعالي.

ولما جاءت تمتطي حلمه اعترف إنه وقع في ذلك الشرك الذي طالما حدثه عنه **يوسف أفندي سعيد**.

وفي الصباح، الرابع للرؤية حين استيقظ بشوقه، قال لنفسه في ذهول:

يا مهدي الله!! أنا أتحول إلى رجل أبيض.

لكنه ما تحول إلى رجل أبيض. ولا بلغ طمأنينة **يوسف** أفندي بيقين الصد وأمل الوصل.

أرضه سماوات. وسماواته أراضين. مشدود إلى وتد المجهول. لا أكله الذئب ولا طار في الفضاء.

وحصان أحلامه المسرج لا يمل الرمح في بيداء اللاشيء.

في قلبه وقع الحوافر. تنغرس فيه عميقاً. في المساحات الفارغة التي لم تغص فيهن أسياخ الغيرة الكاوية.

بعضه يأكل بعضه. لكنه يبدي ابتسامة الرضا حباً لعينيها. احترق وتلظّى. لكنه ما جرؤ على البعد. ولا أقدم على الاقتراب أكثر.

لماذا تدوسين على صدري بهذه القسوة؟

يظهر **يونس ود جابر** فتهرع إليه وتتركه رماداً.

يتهامسان. تمد كفها تتحسس ساعده. تشرق عيناها. ينزاح الخمار عن شعرها البندقي. ثم تمضي معه وتتركك **بخيت منديل** تحت نصبة الخضار. يقول له **صباح الخير**:

يشكو سيدي الشيخ إبراهيم أن نقوده تُسرق. عاقب عدة خادمات.

إدريس النوباوي يجرع من مريسته ويقول:

الأمر واضح. هي تسرق سيدها لتصرف على يونس ود جابر.

ينظر إليها تمشي مع **يونس** منشغلة فيكاد يسمع صوتها تغني في مرح "عدي يا المحبوب وتعالى. وإن م جيتش أجيلك أنا. وإن كان البحر غويط. أعملك قلبي سقالة".

لكنه يقول لنفسه: لعلها.

6

حتى اللحظة التي يدخل فيها **بخيت منديل** إلى الموت سيظل يذكر دهشتين في حياته.

دهشة الرؤيا يوم مرت **ثيودورا** أمامه في حوش بيت الشيخ **إبراهيم ود الشواك**. ودهشة القاهرة حين فتح عينيه عليها. لما أراد سيده **يوسف أفندي سعيد** أن يمر به على الجسر الواصل بين القاهرة والجيزة أظهر **بخيت** ذعره. تراجع في وجل وهو ينظر إلى الماء الجاري تحت الجسر. خلفه تقوم ثكنات الجيش. الحرس، سودانيون مثله، نظروا إليه وضحكوا منه. حاول **يوسف** أفندي أن يغريه. لكنه رفض في إصرار. لن يعبر فوق النهر. عاد به **يوسف** أفندي إلى حي عابدين. أجلسه على مقهى. أوصى به صبي الطلبات. ثم هرول خلف أمله.

جاءا إلى القاهرة خلف أخبار تسقطها **يوسف** أفندي في الشهرين الماضيين. جنّد كل معارفه للعثور على خبر عن **نفيسة** و**فوزي أمين**. توسّل موظفين كبار. طلب خدمات لا يعرف كيف سيردها.

بذل رشاوي هددته بالفلس. لكنه لم يكن يفكر في غير العثور عليهما. بعد أن قاربه اليأس عرف أن **فوزي أمين** نزل بزوجه وأمها في الجيزة. ما أن قرأ التلغراف الذي حمل إليه الخبر حتى صاح **ببخيت**:

جهز حاجياتنا. سنسافر إلى القاهرة.

الترحال في الغربة. بين وحشة ووحشة. لكنه كلما تقدم شمالاً كلما رأى دنيا غير التي ألفها. يتبدل العالم وتظهر حياة ما عرفها ولا سمع عنها.

لما جلس على المقهى تبادل مع الجالسين التأمل. يهتز قلقاً على كرسيه فيرمقونه بسخرية. ويشاهد صخبهم فيراقبهم بدهشة. عيناه جاحظتان كأنما يحاول حشر العالم فيهما ليدركه. قال له الصبي:

قهوة، شاي أم سحلب؟

تردد. ثم طلب قهوة. هي ممنوعة في بلاده. ويفتي الفقهاء بحرمتها. لكن الفضول كان أقوى داخله من غيره.

الفضول كان حاديه في الأيام الستة والثلاثين التي عاشها في القاهرة بعد أن سرّحه **يوسف** أفندي. تبعه إلى كل ما بدر له. به دخّن الحشيشة. وشرب البوظة. وحاول تعلم التحطيب وسماع غناء الغوازي. ثم حين عثر، مصادفة، على الشيخ **عبد الرحمن العبادي**

تاجر الإبل كان فضوله قد استنزفه. لم يتردد في توسل التاجر أن يعود به إلى بلاده. **العبادي** لم يهتم بحكاياته وقصصه. سأله عن المال. كان بقي له مما نفحه **يوسف** أفندي نحو أربعة جنيهات. تقاضاها التاجر متأففاً وألحقه بقافلته المتسللة إلى بلاد السودان.

وهو يهتز على جملٍ داخلاً صواردة كان يتذكر أخر مرة أولاه **يوسف** أفندي ظهره وذهب. قال له:

الحب طريقي. لن أعود قبل أن أعثر عليها.

كل الأخبار لم تقدنا إليها يا سيدي. دعنا منها ولنرجع.

يا بخيت! أنت لم تعرف الحب بعد. حين تعرفه ستمشي خلفه إلى حتفك أيها السوداني الطيب.

وهبه مبلغاً ضخماً، عانقه، ثم أولاه ظهره وذهب يبحث عن زوجه الهاربة. ترك **بخيت** لحريته، وسؤاله الحائر:

ما هو الحب؟

عرف الإجابة لما رأها تمر في حوش الشيخ **إبراهيم**. عند الدهشة الثانية. بعدها صار يجد **ليوسف** أفندي العذر.

7

شهر الأحزان.

شهر رجب القاتم.

لا يكاد يراها. هي ملتصقة **بيونس ود جابر** لا تفارقه. يقصد بيت سيدها ويقف بعيداً يراقب. يلمح **يونس** عند الخلاء منتظراً. ثم تخرج إليه فتمشي معه ويبتلعهما الظلام. ماذا هناك غير هواجس وشكوك.

إدريس النوباوي يضحك من غفلته. يسكر بشرب المريسة. يدور العالم حوله.

ضاعت منك. انس يا صاحبي.

لكنها إذ تقابله على عجل تمنحه سعادة يألفها. فتتكسر في قلبه الغضبات الصاخبة.

حواء!!

تنظر إليه شاردة. مسوح وجهها التردد والمعاناة.

أنت لا تساعدني يا بخيت.

قولي لي ماذا تريدين؟

فقط ألا تكن عبئاً. أرجوك.

أنت تخفين شيئاً.

تصمت. تهرب بعينين كساهما دمع غامض. يقول لها متردداً:

يونس؟

تنتفض. تنظر إليه في غضب.

ماله؟ لماذا تشغل نفسك به؟ أنت أحمق.

يتخبط. يحتار. وتهتف هي:

أنت لا تفهم.

وإدريس **النوباوي** لا يرحمه. يأتيه بأخبار ما لم يره. ويفسر له ما يجبن عنه.

ليلة السادس والعشرين من رجب كانت المدينة تتهيأ للاحتفال بالرجبية. الأطفال في الشوارع يبدو عليهم بشر نادر. النسوة يمشين على حواف الطريق قطعاناً. السادة يبشرون بولائم عامة. وحشائش الأرض مثله يهرّبون المريسة استعداداً ليلة الإسراء.

قالت له ظهراً:

سألتقيك الليلة.

نظر إليها في حيرة.

ليلاً. تعال إلى البيت.

عيناها. ما بالهما.

بحق كل ما هو سر بيننا ما بك؟

أنت تتغيرين.

يا بخيت! دع الحيرة والأسئلة أرجوك. لا تفسد عمراً لا ندري أقصير هو أم طويل. تعال إلى البيت بلا أسئلة.

يوشك أن يسألها. لكنها تعاجله:

لا تسألني عن يونس أرجوك. فقط تعال إلى البيت.

ترى التردد في ملامحه. تخرج إليه دفترها. تدفعه إليه.

خذ.

ما هذا؟

دفتري الذي تعرف. أريدك أن تأخذه. ربما سيبث فيك طمأنينة. اقرأ ما تقدر منه. وهاته معك لما تأتي ليلاً.

تتركه وتذهب. لا يعلم كم خاضت في روحها لتقول له ما قالت. سيقرأ في دفترها في ما بعد آخر ما كتبته:

"**بخيت** يستحق مني هذا. لا أعبأ بما قاله الرب ولا أخشى شيئاً"

لكنه لم يفهم. أطاعها. لكنه لم يفهم.

كانت ليلة السادس والعشرين من رجب.

آخر لقاء لهما.

8

هذه البلاد اللعينة.

أرض الدم والدموع. هنا عاشت سنوات ذل كأنها لم تكن إنساناً من قبل. كاد الرق يتمكن من نفسها لطول اليأس.

تكره كل ذرة تراب في هذه المدينة القبيحة. تكره الوجوه السوداء التي تغطيها الندوب واللحى. بنحولهم وأعينهم اللامعة وإيمانهم المتعفن بمتنبئ مجنون. يحلمون ليل نهار بغزو العالم المتحضر. يسألونها عن القاهرة، الإسكندرية، البحر وكنوز قصر الخديو. حين يجتمع السمّار إلى سيدها الشيخ **إبراهيم** تسمع صخبهم يتمنون نساء العالم. حكت المدينة أن خليفتهم بعث إلى ملكة إنجلترا يدعوها إلى الإسلام ويعدها إن فعلت أن يزوجها قائده يونس ود الدكيم. بدائيون همج.. الموت على مشنقة السوق حدث لا يجذب سوى فضول الأطفال.

وقلبها، ذلك الأحمق الذي يعاندها، مال في يأسها إلى عبد خياليّ. تكره حبه لها. حنوه عليها. لا تفهم ميلها إليه. لماذا يزور أحلامها؟ قلبها، الذي أفسدته أم درمان، يخفق حين رؤيته. لكنها تعتصم ببرودها وتعاليها. هي رسولة الرب في بلاد الغنم. هل تعشق القديسة الغنم؟

يهديها **بخيت** طائر دوري يفرحها. لكنها بعد زوال نشوة طفولية جارفة تفيق إلى نفسها. تتخبأ من خدم البيت، ثم تعصر العصفور في قبضتها بغل. تلقيه جثة. ثم تهرع إلى غرفتها تبكي. تصرخ بنفسها:

أنت مجنونة.

لكن **يونس ود جابر** كان منجاتها من جنونها. حين رأته في السوق رأت الخلاص يبرق في ظلام حيرتها.

يونس ود جابر بإعجابه الذي لا يخفى عليها وإن كابرت وادعت جهلاً. **يونس** بخبرته وعلاقاته التي عرفتها عنه في رحلتها الأسطورية من سواكن إلى الخرطوم. يوم كانت أميرة عباسية في الليالي العربية. **يونس** هو مهربها وبوابة أملها.

خادعته فانخدع راضياً. وحين طلبت منه أن يعينها على الهرب لم يتردد. المال ليس مشكلة. لكن العثور على من يُوثق بهم في مدينة تبيع أسرارها لكل الأطراف كان مشكلة. لكنه طمأنها. سيعثر

على من يحملها إلى دنقلة فتلحق بحاميات عسكر مصر. يحتاجون دليلاً ومن يوفر الإبل. أما هو فسيكون ملاكها الحارس. سيحميها حتى يوصلها مأمنها.

الرب هو من بعث لها **يونس ود جابر**.

وفي ليلة السادس والعشرين من رجب، ليلتها الأخيرة في أم درمان قررت أن تكافئ حب **بخيت**.

ما كانت تقدر أن تترك له غير ذكرى. القديسة لا تعشق الغنم.

لولا **بخيت** ما بقيت حية عامها الأخير. وحيدة دون صديقتها **هورتنسيا**. يائسة تخشى أن تضعف لمراودات **عبد القيوم** ابن سيدها. روحها التي تكلّست بالرق حتى كادت تنسى من كانت. **بخيت** حماها بحبه. يستحق منها ذكرى أخيرة.

لم تقدر أن تصارحه أنها ذاهبة. تخشى حماقات المحبين وجنون قلبها.

تخشى أحلامه.

سأطلبك من سيدك. نسكن سوياً في بيتي. لن تكوني خادماً بعد اليوم. أنا سأعمل وأجلب لك كل ما تريدين. سيكون لنا حوش ملكنا. سأشتري شاة للبن. وتربين الحمام. وننجب أطفالاً. ثلاثة. أربعة. فيهم بنتاً حلوة كأمها. أريد أن يكون لي أطفال في لوني وجمال عينيك.

لا تريد أطفالاً سوداً يؤمنون بدرويش ميت يحلمون بغزو العالم. هي لا تنتمي إلى هنا. ليست هذه مدينتها ولا عالمها. ولا شيء يشدها إليها إلا هذا الحب الأبله الذي يزعجها أنها تألفه.

ستفر. ترجع إلى عالمها. هواء الإسكندرية وهمس بحرها العاشق.

هذه الليلة. الأخيرة قبل الفرار. حين تبلغ عالمها ستنسى كل هذا. ستعيش من جديد. ربما ذهبت إلى اليونان. أو هاجرت إلى لندن فتنشر مذكراتها. ستعيش حياة جديدة. ربما تزوجت. لن يكون زوجها عبداً أسود. ولن تسكن في حوش تربي فيه الحمام.

مضت سنوات العذاب. غداً، حين تنشغل المدينة بالاحتفالات، ستفر مع **يونس** والركب الذي دبره.

وداعاً أيها العذاب.

غداً تفر. وتنال الإكليل.

9

"طُوبَى لِلرَّجُلِ الَّذِي يَحْتَمِلُ التَّجْرِبَةَ، لأَنَّهُ إِذَا تَزَكَّى يَنَالُ إِكْلِيلَ الْحَيَاةِ الَّذِي وَعَدَ بِهِ الرَّبُّ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَهُ"

(رسالة يعقوب 1: 12)

السابع عشر

1

تلهث الأحداث وراء بعضها.

الوقائع أمواج تغطي ما سبقها بنشوة شريرة فيعجز **بخيت منديل** عن إدراك ما يحدث.

الطبول تقرع والإمباية تُنفخ ليل نهار. يمضغ القلق المدينة ويلوك السجن ومن فيه. الصلوات أهملت. الخروج ممنوع. والشائعات تعوي في الشوارع. لا يسمعون إلا الصياح وضجة الأقدام الحافية تركض في جنبات المدينة.

من يطارد من؟

السجن ممتلئ بالجهادية الفارين. كثر السجناء على القيود. فكان من حظ الجدد أن بقيت أرجل بعضهم حرة. وفي النهار الذي

ضربت فيه المدينة بالقنابل زجهم الحراس في الغرف الحجرية مذعورين. وجد **بخيت** نفسه يساق بالسوط مع **رفعت أفندي السلاموني** إلى غرفة مع عشرات الخائفين. كدسوهم فوق بعضهم وأغلقوا الأبواب. صرخ أحدهم حين شج باب الخشب الثقيل رأسه. مات في اليوم الثاني. الغرفة خانقة لا منفذ لها. تثاقل الهواء حتى صار عبئاً عليهم. الرائحة خانقة قاتلة. كجحر فئران تعفّنت من الطاعون.

ضج السجن بدوي قنبلة. فاحت رائحة الدم. سمعوا الأصوات تصرخ إن سجن النساء قُصف. ناداه، في الزحام، **رفعت** أفندي:

سنموت هنا يا بخيت!

كلما دوت قنبلة خُيّل إليهم أنها تهوي بحجارة الغرفة على رؤوسهم. ثم سمعوا النداء:

القبة هدمت. قبة المهدي هدمت.

رجف السجن. الكفار يهدمون القبة الطاهرة.

لم يسمعوا بعدها حساً للحرس. فروا وتركوهم لمصيرهم. طاش منهم، في محبسهم، حساب الأيام. لم يعرفوا نهاراً أو يميزوا ليلاً. رائحة البارود والدخان. تساوى الليل والنهار. والموت في الخارج يضحك عالياً. وبين الجدران يتسلى بالتقاط بعضهم اختناقاً.

القنابل تدوي. الغرفة تهتز. ينزف السقف غباره عليهم. يصرخون:

يا مهدي الله للمساكين.

لكن القنابل لا تصمت. ومهدي الله لم ينقذ قبته.

سقطت المدنية. وفتح الغزاة السجن. خرج السجناء لا يصدقون بالنجاة.

أحدهم ضرب على كتف **بخيت** وصرخ:

أخيراً.. الحرية يا بخيت.

فر **بخيت** من بهجة رفاقه وتسلل في زحام الشوارع يطلب بيت **مريسيلة**. المكان الوحيد الذي يعلم أنه واجد فيه أمانه.

وبعد أيام أخرج الغزاة جثمان مهدي الله الطاهر من جوف الأرض. أحرقوه، ونثروا رماده في بحر النيل.

2

حين خرج **بخيت** من أم درمان كان يعرف أماكن طرائده الستة.

ترك **مريسيلة** واقفة وراءه تلهث بما تخفيه. في قلبه بقية حنين للقبر الذي وقف عنده. وغضب زرعه هناك منذ سبعة أعوام حان حصاده إذ استوى على سوقه.

الشيخ **إبراهيم الشواك**. **عبد القيوم** ابن الشيخ **إبراهيم**. **النعيم ود الحاج طه**. **يونس ود جابر**. **الطاهر جبريل**. **موسى الكلس**.

أقربهم مكاناً كان **النعيم ودالحاج طه** الدليل. ينزل مع جماعة من عشيرته العربان مسيرة ساعات جنوب أم درمان. جهد أن يدركهم قبل استواء الشمس، لكنه فشل. كمن نهاره منتظراً ثم أسرج حصانه عند الغروب.

تمنى أن يكون **يونس ود جابر** أولهم. لكن أخبار **مريسيلة** التي أتت بها لم تعن أمانيه. قال لنفسه:

النعيم بداية جيدة.

قطع نهاره في ظل حصانه. العرق يغطي جبينه. يلهث من عزم ما ينوي. يمد أصابعه يلمس انتفاخ دفترها في خُرج حصانه.

كتبت فيه بالعربية:

"لا تحب.. كي تخرج سالماً لا لك ولا عليك".

وبالإنجليزية:

"تبقت أيام. أكره كل لحظة لي في هذه المدينة. قد يبدو غريباً لقارئ متمدن أن يفهم هذه الكراهية. لكني أؤكد أن سنواتي في مدينة المتمهدي غيّرت قلبي كثيراً. إن هؤلاء الوحوش لا يمكن إلا أن يعاملوا بالكراهية والتوحش الذين هم جديرون به. لكن هذا لا يمنع وجود نماذج محيرة. **بخيت منديل** أحد هذه النماذج. **بخيت منديل** هو هذه النماذج. **بخيت منديل** هو النموذج الوحيد"

حيرته فقرات طويلة كتبت باليونانية. مكتوبة بخط عصبي متوتر. يكثر فيها الكشط والخطوط المنبهة لنقاط مهمة.

في ليلة السادس والعَشرين من رجب ذهب يقضي الوقت عند **إدريس النوباوي** ليقرأ الدفتر.

تخلى عن حذره وبدأ يشرب المريسة ويقرأ. كلما سلك الشراب شرايينه تصاعد غضبه وإحساسه بالخديعة.

"**بخيت منديل** لا يشبه هذه المدينة. في حالة طباعة بعض هذه المذكرات في كتاب لابد أن يذكر الكتاب **بخيت منديل**. فهو مختلف. نموذج سيدهش القارئ الغربي أن يطلع عليه. إن سيرته في المحبة جديرة أن يكتب عنها الأدب الغربي. عاشق من مسرحيات شكسبير سقط سهواً إلى هذه البلاد الوحشية. لولا أنه أسود. لولا أنه عبد من الدراويش".

"أعظم العيوب أن تتعلق بشخص بأي صفة. لا أريد أن أصبح مثل **بخيت**"

لماذا أرادته أن يقرأ هذا؟

هل تخبره كم هي حائرة بشأنه؟ كم تراه عاشقاً محباً، لكنه عبد لا يستحق منزلة أكثر من منزلة التأمل؟ أليس **يونس ود جابر** أسود مثله؟ لماذا كتبت عنه "**يونس** هو أملي"

هل هي حقاً مجنونة؟

لما ذهبت سأله **إدريس**:

ماذا بها؟

قلّب **بخيت** كفيه في حيرة. قال لصاحبه:

لا أدري يا إدريس. إنها مجنونة.

ضحك **إدريس**.

كل البيض مجانين.

نظر **بخيت** إلى الزحام الذي أخفاها وقال:

لكني أحبها بجنونها.

هل مازال يحبها بجنونها؟ هل مازال صدره يتحمل ذلك الوطء؟

يشرب أكثر. يغوص في ثقل الخمر. ويقرأ.

حين تسلل إلى معسكر العربان بحثاً عن **النعيم ود حاج طه** الدليل كان يرجف من ثقل الذكريات. الظلام يلف المكان وهو يمشي محاذراً بين عرائش القش.

قتيله الأول. نشوة أن ترى الموت يكسو وجه خصمك. آخر ما يبقى منهم ذلك الذعر وعدم الفهم.

لأجلك أقتلهم.

لأروي ما بجوفي من شوق إليك.

حين هوى السيف على صدر **النعيم** المذهول لمحها في خوف عينيه.

كانت تبكي.

لكنه طعنه مرة أخرى.

3

ضجيج السكارى في منزل **إدريس النوباوي** يزعجه.

دخل داخل فصاح:

هل سمعتم الخبر؟

تصايح الشاربون تثقلهم المريسة. قال الداخل:

لا مهدية والدنيا تركية.

قرقع الضحك في البيت. غرفة طينية عرضها خمسة عشر ذراع تكدست فيها جماعات الندماء. عرشها من القش وكلما حركه الهواء رجفت القلوب من مداهمة العسس. نظر **بخيت** إلى من حوله. يعرف خمسة أو ستة كانوا في جردة النجومي إلى مصر. واحد آخر كان في قتال الحبوش في جيش الزاكي طمّل. مجاهدون قدامى طال عليهم الأمد وانتهوا إلى بيت **إدريس النوباوي** يشربون المريسة ويلعنون المهدية. هل في الدنيا حقيقة؟

ليلة انفجرت الصواريخ في سماء الخرطوم كبس أنصار الله المدينة. قُتل الترك في الشوارع والبيوت. وجالت خيل أصحاب المهدي في داخل البلد وكثر الصراخ والعويل. سمع **بخيت منديل** ضجة رهيبة فنزل عن سطح البيت يستكشف الخبر. سيده **عبد اللطيف أفندي مظهر** مذبوح على درجات سلم البيت. ملقى على

قفاه. الريح تلعب في جلبابه فتكشف فخذيه الممتلئين. في إحدى قدميه صندل جلدي. والدم يقطر من أنفه.

أين **بثينة** بنزقها وصدرها الوردي وشيئها القبيح كجرح عفن. لا شك أنهم ذهبوا بها إلى حيث يشبعها عشرات المؤمنين.

الدم باسم الله. الدم لأجل الله. الدم يا مهدي الله.

ثم من قلب الموت نهضت الحياة. قامت الحياة من وسط جثث الخرطوم فعبرت النهر إلى الغرب وجثمت على أم درمان. بقعة مهدي الله الطاهرة. عبر إليها **بخيت** في زحام العابرين متبعاً سيد الخلق. مدينة الإيمان. دار الإسلام إذ لا إسلام في الأرض اليوم غيرها.

يا مهدي الله! النار بدارك شبّت. من يطفئها؟

يقّلب دفترها ويقرأ. يسمع من يسأله عن الكتاب الذي بين يديه. لكنه لا يجيب.

الوقت يمر. ينبغي أن يلحق بها في بيت سيدها **إبراهيم ود الشوّاك** كما طلبت منه. لكنه غارق في دفترها. يحس بخذلان وأسى. المرة الوحيدة التي قرر أن يغضب فيها. المرة الوحيدة التي أحس أنه لا يطيق أن يراها.

يمسك ورقة مهترئة في قلب الدفتر ويقرأ عليها:

"فمن العبد المفتقر إلى الله الواثق بما عند مولاه محمد المهدي بن عبد الله إلى أحبابه المكرمين المعظمين وأهل الدراية، وهم كبير العسكر وعظيمهم فرج الله وصاحبه عبد النبي ومن انضم إليهم من الأكابر والأصاغر.

اعلموا وتحققوا أحبابي أني لست قائماً هذا المقام إلا بدعوة الخلق إلى الله وسعادتهم الكبرى ونيل مراتبهم العلية. ومنفرهم عما يضرهم من خسيس فاني اللذات التي تعقب طول الحسرات"

يا مهدي الله إن عشق الفاني أورثني الحسرات.

لا تراني إلا عبداً أسود لا يستحق أن تعشقه المتمدينة البيضاء.

يا مهدي الله ماذا حلّ بنا؟ يا مهدي الله ماذا حلّ بي؟

أنا درويشها.

لكن الدرويش ليلتها كان يخترمه الغضب.

جرته المذكرات إلى جب مظلم.

قالت له إلحق بي في بيت سيدي ولا تسأل. لكنه لن يلحق بها.

قرر أن يتمرغ في العناد. فخسر.

فقط لو كان يعلم.

4

"بخيت منديل لا يشبه هذه المدينة. في حالة طباعة بعض هذه المذكرات في كتاب لابد أن يذكر الكتاب بخيت منديل. فهو مختلف. نموذج سيدهش القارئ الغربي أن يطلع عليه. إن سيرته في المحبة جديرة أن يكتب عنها الأدب الغربي. عاشق من مسرحيات شكسبير سقط سهواً إلى هذه البلاد الوحشية. لولا أنه أسود. لولا أنه عبد من الدراويش"

5

الإثنين 22 فبراير 1892

"تم الإعداد لكل شيء. أخبرني يونس أننا سنفر يوم الجمعة ليلاً. سيكون الجمع في احتفال إسلامي. أخبرني خطة تبدو هزيلة. لكنه واثق يقول أنها نجحت مع كثيرين"

6

قتلهم تباعاً.

كان الله ييسر أمره ويسدد سيفه. تساقطوا عن الحياة فلم يعبأ أحد بهم في زحام موجات الانتقام. كُسرت المهدية فخرج المغبونون يأخذون بثاراتهم المؤجلة.

عبيد ذاقوا الذلة. فقراء أضناهم التكفف. عربان حارو الدماء يطلبون دماً بدم.

كل يقتل لمطلبه. وهو يقتل لأجلها. طاردهم في سوبا والكاملين ورفاعة والمسلمية وأبوحراز. **النعيم ود طه** الدليل الخائن. **عبد الغفار بن الحاج إبراهيم ود الشواك** الذي أرسلهم خلفها. ومضى يطلب **ابراهيم ود الشواك** سيدها الذي وقف يرقبها تموت بين يديه. **موسى الكلس** قائد القافلة. **الطاهر جبريل** الذي طاردها وعاد بها. كلهم لا يستحقون الحياة. كيف يعيشون وهي ماتت؟

كل من خانوها وآذوها يستحقون الموت. جميعهم لابد أن يدفعوا الثمن.

مات **النعيم** و**عبد الغفار** و**موسى** والشيخ **إبراهيم** و**الطاهر**..
ما تبقى له سوى **يونس**.

لكنه وقع في الأسر.

ليلاً يجلس إليه **الحسن الجريفاوي**. يسأله عن قتلهم. و**بخيت** يحكي.

كان سكراناً فجر اليوم الثاني، عقب عودته من مشوار **الطاهر جبريل**، يريق نفسه في غيابة المريسة حين دخل **النعيم ود طه** منزل **إدريس النوباوي**. ثري كحاله كلما خرج في رحلة. يكسب المال من سفر قوافل التجارة إلى سواكن شرقاً أو دنقلة شمالاً، وربما، نادراً، إلى فازوغلي. ويكسب أضعافاً من القوافل غير الشرعية التي تهرّب المسافرين أو البضائع. كلما زاد الخطر زاد عطاؤه. وقف في وسط الغرفة ونادى على **إدريس**.

أتكفل بخروف الشاربين اليوم.

تصايح السكارى وقد ضمنوا لحم الخمر. هرول أكثر من واحد للمشاركة في الذبح. جلس **النعيم** فخوراً ومُد إليه قدح مريسة مخصوص. رشف منه وتجشأ. سُئل عن رحلته لكنه ابتسم في غموض. فهل يصمد الغموض مع زحف المريسة؟ كلما غاص في السُكر تسربت منه الحكاية.

الكافرة التي أرادت الهرب ترقد الآن فطيسة ميتة.

يقهقه.

- كانت تظننا خونة. هل نخون سيدي المهدي ونخون الدين لقروش قليلة وريالات؟

رفع **بخيت** رأسه يسمع. أسماء وتفاصيل لا يفهمها. ثم ضحك **النعيم** وقال:

مال هذا العبد لا يشاركنا؟

نظر إليه **بخيت منديل** ذاهلاً. **النعيم** يحكي والعالم تصرخ شياطينه وتقوم القيامة.

قل لي يا عربي. هل كان معكم رجل ضخم الجثة، أفطس وله شارب يسيل على فمه؟

الطاهر جبريل. أحد الملازمية. هو من بُعث إلينا.

متى نُفخ في الصور؟

آخر ما يذكره **بخيت** أنه حين أفاق ما وجد جواره أحد. كان السكارى قد غادروا وتركوه في غيبوبته. فحمل سيفه وخرج إلى شوارع أم درمان يصرخ.

قتلوها. فالويل لهم.

يصرخ بالثأر.. حتى وقع من السُكر مغشياً في أيدي العسس.

الثامن عشر

1

جمعت **ثيودورا** قليل حاجياتها ورثها وبقيت تنتظر.

مالها في هذه البلاد بعد شيء. إنما هو دفترها ولقاء **بخيت**. لن تحمل معها سوى صرة بها نُثر ثياب ودفتر مذكرات وذكرى **بخيت**. حين مرت على العشاء ساعتان سمعت دق الحصى على باب حوش الخدم. تسربت حذرة. ما أتى **بخيت** بعد. وجدت **يونس** ينتظرها جاثماً في الظلام يغطي وجهه بلثام من القماش.

هيا بنا.

نظرت حولها تتوقع أن ينفصل جزء من الظلام ليتشكل من تنتظر. قالت في جزع:

فلنبق قليلاً مازلت أنتظر شيئاً.

قال **يونس** في توتر.

لا يوجد وقت. الرجال في انتظارنا. إن لم ترغبي في أن يُكتشف أمرنا ونُقتل فلابد أن نذهب الان.

أمسكها من ساعدها وجرها خلفه.

هل معكِ النقود؟

مدت يدها وأخرجت إليه ما أدخرت.

أين **بخيت**؟ لماذا لم يظهر حتى الان. لا تقدر على السفر قبل أن تلتقيه.

يا الله! كم يشتعل القلب بالنزق ساعة الفراق. تريد أن تلتقي به لتلقي نفسها على صدره. ستتعلق بعنقه. ستدفع شفتيها قرب أذنه وتهمس له بالكثير. تحتضن كفه السوداء. أين هو؟

لكن **يونس** لا يمهلها. يجرها خلفه في غلظة. مذعورة هي مما تقدم عليه. كيف فكرت في هذا؟ أي حياة تلك التي تفر إليها؟ حياة ليس فيها **بخيت منديل**؟ ألن تر عينيه بحبهما الصاخب مرة أخرى؟ أين ستسكن إن لم يكن هناك؟ العبد الأسود بحبه المجنون وبراءة أحلامه. **لا أريد. لا أريد.**

الأزقة مظلمة خاوية إلا من أصوات الذكر تأتي من بعيد. لكنها مزدحمة بالذكريات. تحاول أن تجد طريقها وسط زحام التفاصيل لكنها تصطدم بها.

"من أي بلاد يسكنها ملائكة أنتِ؟"

يقول لها:

أنت عزيزة جداً.

تسمع فيها عبارات غرام بلغات لم تتخيل أنه يعرفها. تبتسم روحها.

وأنت عزيز عليّ كأخ. فكلنا أبناء الرب وأمنا المعاناة يا بخيت.

خذني إلى النهر. أريد أن أرى الغروب.

أريد أن يكون لي أطفال في لوني وجمال عينيك.

يقول لها قبل أن تذهب:

قولي لي إن السعادة ممكنة يا حواء.

طفل خائف يطلب الطمأنينة.

لكنها تقول له بوجع:

لن أبشرك. ستحمل الهم مادمت حياً. ستحمل الهم مادمت تحبني. أنا أدرى بنفسي منك. وربما القادم أسوأ.

أكان وهماً كل هذا؟ أتفر من كل هذا؟ من قال إن أم درمان موحشة كريهة؟ أم درمان زاهية بالحب. ترابها الإلفة وبيوتها الغرام. أي بلاد الأرض تلك التي كأم درمان؟

تهمس ملتاعة:

يا يونس! لا أريد.

لكنه لا يتوقف. يجرها.

شمال حي المسلمانية تجد الركب في انتظارها. غارقون في الظلام. **الربيع ود طه** الدليل. **موسى الكلس**. وأربعة جمال تلزم الصمت الحذر كأصحابها.

اركبي. هيا!

لا وقت لدينا.

تتلفت. أين هو؟ أيخلف الشوق وعده؟

يا **بخيت** كن. يا **بخيت** كن.

لكنه لا يكن والبعير يصعد بها إلى السماء. يخور فتتأرجح. تتشبث بالسرج وتشهق.

ستبدأ الرحلة. الفرار من أم درمان. الفرار من أسر السنوات. العودة إلى الحضارة والعالم المتمدن. بعيداً عن أرض الدراويش والموت. العودة إلا بلاد لا يحكمها الدم.

ستعود إلى الإسكندرية. حيث البحر حبيبها والذكريات الندية. لكن قلبها مشدود إلى هنا.

وحين يهم الركب أن يغوص في الفرار تسمع صوت القادمين. يا **بخيت** أهو أنت؟

لكن صوتاً غليظاً يصيح بهم:

توقفوا يا كفرة.

2

حين أمر **الحسن الجريفاوي** الركب أن يخيموا قبل دخول المسلمية تضجر أتباعه.

قال له أحدهم:

هي مسيرة ساعات. لماذا تريد المبيت هنا؟

لا تجادلني.

تهامسوا بينهم في شك. لكنهم لم يجدوا بداً من الطاعة. أنزلوا سروج الخيول. ربطوا دوابهم قرب بحر النيل. وتفرقوا يبحثون عن حطب. النار في الخلاء مهمة لدفع الشياطين قبل جلب الدفء. أنزلوا قرب الماء ونثروا فرشهم في دائرة وضعوا بخيت في وسطها.

الحسن مازال يعاني التردد. كلما حكى له **بخيت** أكثر كلما زادت الأسئلة في جوفه. وكلما اقتربت المسلمية كلما عاودته هواجسه.

ما أمرّ شك المؤمن. عامان مرّن نفسه فيهما على النسيان. لكن الذكريات عصية. والطفلة في ثوب الكستور الأزرق لا تفارق منامه.

يوم آمن بالمهدية عرف أنها نهاية العالم. سيغزو البلاد فاتحاً ليدخل الناس في دين الله أفواجاً. سيعم عدل مهدي الله الأرض. سيشرق النور ويعم الدنيا. وعد المهدي عليه السلام بفتح مكة ومصر وبلاد الشام وديار الترك. سيموت الكفار وينتشر الإسلام.

كان يؤمن إن الإسلام هو العدل والخير. الإسلام هو عكس التركية.

الظلم والقهر والقتل. لكنه في المهدية ولغ في الدم وخاض في الموت. لماذا يرفض الناس العدل؟ ولماذا ينشر العدل الظلم؟ ما عادت الأمور واضحة. المهدية حق لا شك فيه. كيف ينكر المهدية وهي رسالة الله؟ لكن ما بال رسالة الله تنشر الموت؟ في عهد التركية كان مؤمناً مظلوماً.. وحين شرح الله قلبه للمهدية صار ظالماً شاكاً. أين الحق؟ لو كان التقى **بخيت** قبل عشرة سنوات لقتله بلا لحظة تردد. **بخيت منديل** مجرم. قاتل. هو ممن يقع عليهم أمر الله عز وجل بالقطع من خلاف وأن يكونوا عبرة للخارجين. لكن سنوات الدم لطخت كل شيء. ما عاد الحق واضحاً.

إن كنا على الحق فكيف ظلمنا وقتلنا ثم هزمنا؟ إن كنا على الباطل فكيف نكون أكثر عبادة وخشية لله من الترك والمصريين؟

أليسوا كفرة؟ ألسنا مؤمنين؟

أليس **بخيت منديل** قاتل؟

أم تراه مجرد شخص سئ الحظ؟ لقد قتل وقتلنا. هو قتل لأجل حبه. ونحن قتلنا لأجل مهدي الله عليه السلام.

على سيفه دم.. وعلى سيفي دم.

يتقدم نحو أسيره المتكوم على الأرض. يرفع بخيت رأسه ينظره. في عيني **بخيت** سكينة ورضا كأنه عابد على أعتاب الجنة. يسأله **الحسن**:

ألست خائفاً؟

العاشق لا يخاف لقاء من يحب.

ستموت على معصية.

سأموت مقصراً أني ما قتلت يونس ود جابر. لكن عفوها أكبر من تقصيري.

هل تشرك بالله امرأة؟

وهل الله إلا محبة؟

كان **الحسن الجريفاوي** يرتع في المحبة. لكنه في طريق الله وقع في الكراهية. هل كان طريق الله أم كان وهماً؟ ما ذنبه إلا تصديق مهدي الله الذي بعثه إلى الخلق.

يمسك **بخيت** من كتفه ويقيمه. يجره خلفه تحت نظرات صحبه المتشككين. يجلسه قرب النهر.

يجلس إليه ويسأله:

أمسكوا بصاحبتك حين همّت أن تفر. فماذا حدث؟

خانوها.

كلهم؟

كلهم.

وكيف عرفت أنت؟

إن لله رسلاً منهم القتلة.

النعيم ود طه الدليل كان يثرثر فرحاً بمهمته التي أنجز. حكاها فخوراً و**بخيت** يسمع في ذهول. أمسكوها وهي تصرخ. **الطاهر جبريل**، الذي كان مع **بخيت** قبل ساعات وعبر معه إلى الخرطوم، صفعها فارتمت على الأرض. صاح بها:

يا كافرة.

صرخت مستغيثة. لكنهم وقفوا ينظرون. حملها **الطاهر** ومن معه عائدين إلى سيدها. تركوها لهم وهم يبتسمون. ما أعانها أحد. كانت تتوسل. مدت يدها نحو **يونس ود جابر**. لكنه تشاغل بمسواك يدسه في فمه يفرك أسنانه. وحين غابوا في الظلام قال لهم **يونس**:

انصرفوا بارك الله فيكم. سيأتيكم رسول عبد القيوم ود الشواك بالمكافأة.

يقول **الحسن**:

ومن دون خلق الله أتاك الطاهر جبريل؟

هذا ذنبي يا ابن العرب الذي لا تدركه مغفرة. دفنتها بيدي وأنا غافل.

أشهر مرت وهو يبحث. دخل مدناً، وفر من قرى. طارده العسكر، وكاد الموت يظفر به من مرض متوحش. لكنه لا يكل.

ككلب صيد يطارد رائحة القتلة. يستعين بمعلومات **مريسيلة**. ثرثرات أم درمان التي جمعتها له.

حين تلت عليه ما عرفته عن أماكن طرائده الستة سمع صوت القدر يقول له "قم"

هبَّ بجسده الأسود فملأ الدنيا في عينيها. رأى على السماء شعر **ثيودورا** البندقي يوشح الأفق. ما كان بينه والخروج إلا زيارة أخيرة لابد منها. **مريسيلة** قالت له:

سأذهب معك.

أريد أن نكون وحدنا.

لكنها هزّت رأسها في عناد. رضخ لها. تسللا في الظلام الغض عقب المغرب إلى ضفة النيل. عبرا إلى الخرطوم. مازالت نصف ميتة بعد رغم نزول جانب من عسكر الغزاة بها. مشيا بين خرائب ينعق فيها الخوف. **مريسيلة** تفوح بالحنان. خطوها على الأرض كنقر الحمام. لكن **بخيت** يشتاق سلاسل عشقه. كان غائباً عن الوعي في ساحة ذكر. دف قلبة يدق باسم **حواء**. يذكر مشيه خلف **الطاهر جبريل** في هذا المكان قبل سبعة أعوام. معيتهما رجلين يحملان الجسد الملفوف. حاول **الطاهر جبريل** أن يقول له شيئاً عن خادم ماتت حتف أنفها في بيت سيدها. لكن **بخيت** لم يكن مهتماً بتبريرات. إنها مهمة ما

سيجني منها مالاً يرجع به إلى بيت **إدريس النوباوي** ليشرب مريسة أكثر، ويسكر أكثر، فيغضب أكثر، ويحزن أكثر وأكثر. وحين وقفوا عند البقعة التي اختارها **الطاهر** وسط خرائب الخرطوم انحنى **بخيت** ليدس الدفتر الجلدي وصرة أشيائه القليلات التي يحاذر عليها أسفل جدار مهدم. راقبه **الطاهر** متسائلاً. قال **بخيت**:

ثروتي من الدنيا.

ضحك **الطاهر** بتوتر.. قال:

من يسرق صرتك يا عبد. هلم إلى عملك.

بيديه وسّع المرقد. أنزل الجسد إلى اللحد وهو يشم رائحة المسك تغرق الدنيا. وحين أخذ يهيل التراب كان يسمع الخرائب تنوح. وعيه يسيل منه مع التراب الذي يتسرب حول الجثة ليملأ اللحد. دار العالم فكاد يتهاوى. صاح **الطاهر**:

سكرت يا كلب!

تماسك بلا اجابة. لكن قلبه يعوي. غام الوجود وأوشك أن يفقد الوعي. حمله رفيقا **الطاهر جبريل** في طريق العودة. قال **الطاهر**:

- لا تطمع في أجرك كاملاً فقد أعنّاك.

كان لا يلوي غير أن يعود إلى مزيد من السكر. نسي صرته هناك عند قبرها المقدس. تركوه أمام بيت **إدريس** وابتلعتهم الشوارع. دخل مترنحاً يطلب مزيداً من خمر. وبعد ساعات لما دخل **النعيم ود طه** كانت رائحة المسك مازالت تحيط به. لكنه كان شديد الجهل.

هو من دون العالم أعان **الطاهر جبريل**. دسها في حفرة وأهال التراب على وجهها الحلو. هم جعلوه يفعل.

كان يرى أشباحهم تحيط به وهو يتبع **مريسيلة** بين الخرائب. ولما اقترب من قبرها رأى جمعهم يحيط بالقبر وهو يترنح دائخاً فوق الحفرة التي ضمت حبيبته.

3

قذفوا بها تحت قدمي **إبراهيم ود الشواك**.

تجمعوا حولها ناهشين. لا تعي شيئاً. جسدها مغطى بالدم. كانت خائفة. تبكي وحدتها وضعفها. همست:

ارحموني!

لكن الشيخ **ود الشواك** ركلها.

تحلمين بالفرار يا كافرة!

غاصت قدمه في لحمها. **عبد القيوم** وضع قدمه على كفها واتكأ. هرس عظامها.

صوت المنشدين يترنح من بعيد. ليلة الرجبية. الملائكة تنزل سلاماً على أهل الأرض. جسدها ينتفض بالوجع. وجهها مغطى بالتراب. ثوبها ممزق. شعرها البندقي يلتف على وجهها وعنقها. يجتاحها الألم. تصرخ:

يا يسوع!

تنتظر خلاصاً لا يجئ. وركلة ترتطم بفكها داهمتها الهواجس. أنه لا راحة هناك ولا خلاص. الوجع هو كل هذه الحياة والإيمان لا ينجي.

انفقأت عينها. ناحت بصوت مخنوق.

يا إكليل الشوك. يا طريق الألام.

امتلأت بالوجع. تصرخ. تستغيث. تتوسل أحداً أن يرحمها. تنزل عليها الضربات مرة أخرى. ينقطع نفسها فتنحبس صرخاتها لوهلة. توحش بها الوجع فانتفضت. لكنهم لفوها في بساط صوف وقيدوها.

تنزل عليها الضربات وهي تئن. يغشاها الظلام الأبدي.

وهي تغيب تحاول الصراخ:

أدركني يا بخيت!

لكنها لم تقدر على النطق. ولا جاء **بخيت**. انتفض البساط المحكم حولها مرات.. ثم سكن. هزها **الطاهر جبريل** بقدمه. نزل الصمت بالجمع.

بعد برهة قال الشيخ **إبراهيم ود الشواك**:

لله الأمر من قبل ومن بعد. ادفنوها بعيداً. لا نريد فضائح في هذه الليلة المباركة.

4

يذكر **الحسن الجريفاوي** خروجه من أم درمان مع جردة الأمير محمود ود أحمد.

الأيام الأخيرة لقلبه الملئ بالإيمان. جند الله يتجهون شمالاً لملاقاة الكفار عند دنقلا.

لم يشهد **الحسن** غزو الترك المصريين لبلاده قبل ستين عاماً. هدموا مملكة سنار وأطفأوا نار القرآن. جعلوا المؤمنين عباد الله يعبدون الحكومة. قمعوا الشيوخ أهل الله العارفين. وغيروا مذهب

الإمام مالك إمام أهل مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم. أدخلوا غريب العادات وجعلوا الدين غريباً. نشروا الفساد وشرب القهوة وجلبوا الغوازي.

لكن الله أكرمه بمبايعة مهديه. فحق عليه قول مهدي الله عليه السلام ان أقل أصحابه أفضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لكن حكم المهدية أوجع إيمانه. يوم كان أنصار الله يقاتلون الكفار في قدير وأبا والأبيض وشيكان كانت الملائكة تقاتل معهم، تمشي بينهم، تحادثهم، وتمدهم بالسلوى. تعدهم النصر وملك الخرطوم والقاهرة والشام ومكة.

فلما ملكوا الخرطوم فردت الملائكة أجنحتها وصعدت إلى السماء، وتوارت.

هل ما كنا أهلاً للنصر الذي منحناه الله؟

كان بقي في قاع صدره شيء من إيمان. شحذه مع سلاحه وخرج ليلقى الكفرة.

سيقاتل الباطل الذي لا جدال فيه. ما اختلف اثنان من أهل الله ان الترك كفار وقتالهم واجب.

يجلس أنصار الله حول النار ليلاً وأزيزهم القرآن. على وجوههم شحوب الإجهاد ونور الإيمان. في صدورهم يعتمل بغض الكفر

وكراهية الفاسدين. ويحدوهم ملك العالم كما وعد الله.

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾.

الأرض أرض الله.. وهم جند الله.

لكن جيش محمود ود أحمد وقف عند مدينة المتمة!

صعق **الحسن**، والجيش، أن أهل المتمة ارتدوا كفاراً. منعوا جيش انصار الله أن ينزل مدينتهم. وسمع **الحسن** المجاهدين يقولون ان شيخ الجعليين بالمدينة بعث برسله إلى الكفار يطلبهم المعونة ويعلن عصيانه لخليفة مهدي الله عليه السلام.

الأمير محمود كان طلب من الجعليين أن يخلوا منازلهم ويعبروا النهر إلى الجانب الآخر لينزل الجيش بالمدينة. أنصار الله متعبون ويحتاجون الراحة والطعام. لكن أهل المتمة عصوا وأبوا. فنزل عليهم غضب الله.

رفع أنصار الله رماحهم.. واقتحموا المدينة.

الحسن الجريفاوي على حصانه يصرخ:

في شان الله.

الخيل تركض في شوارع المدينة. الصراخ يعلو معانقاً النيران.

أزيز الرصاص ونواح الثكلى. الدم يكسو الحيطان. الموت يتبختر في الأزقة الضيقة. فني المرتدون أو كادوا. ونسوة المتمة يلقين أنفسهن في بحر النيل ليمتن غرقاً غشية عار السبي.

طفلة تجري. عليها ثوب من الكستور أزرق، يصل إلى ربلتيها الطفلتين.

حصان **الحسن** يلحق بها. يصهل وهو يطأ ظلها. والرمح ينغرس في ظهرها الهش. يرفعها عالياً. ترفرف راية موت. ثم يلقيها خلفه ويركض.

لكنها ما تركته إذ تركها هناك جثة.

لكنها ما تركته. تلاحق أحلامه.

ما عاد يقدر أن ينام. كلما أغمض عينيه أتته.

يا عمي! أين أمي؟

عيناها تسيلان دماً. شعرها مبعثر. شفتاها شققهما الموت. ما عاد يرى نبي الله الخضر.

يناجي **الحسن** إيمانه.

يا مهدي الله لماذا صرت تركياً؟

والطفلة لا تكف أن تأتيه تسأل:

هل أمي تبحث عني يا عمي؟ هل هي تبكي؟

5

"البلاء من الله، والعافية من الله، والأمر عن الله، والنهي إجلال لله"

(الحلاج)

6

هل العائد من المتمة هو الخارج إليها؟

هو ذات الجسد بذات ملامحه. ندوبه التي ازدان بها جسده في غزوات مهدي الله عليها السلام مازالت مكانها. والشجة التي أورثها إياه **حسونه** زميل المسيد هي ذاتها. لكن الروح أثقلتها القيود.

قروح ما ارتكبت يداه تأكل فؤاده. حين دخل منزله ظهراً وألقى حموله جوار الحائط كان يترنح بسلاسل روحه. مشى متكفئاً حتى وصل فراشه فارتمى عليه.

غرفته من الطين النيء مظلمة لا تكاد تدخلها شمس. على أرضها بساط من السعف يستخدمه للصلاة، جواره إبريق من الصفيح.

وعلى منضدة قصيرة وريقات عليها راتب المهدي عليه السلام وأرباع من القرآن.

أغمض عينيه وأراح ذقنه على صدره. رأى الطفلة تدخل عليه تحمل لومها.

دعيني. لا تعودي مرة أخرى.

يا عمي! أين أمي؟

يختنق بذنبه.

ماذا أصابه؟ ما كانت المرة الأولى التي يقاتل. جاهد في سبيل الله في القلابات وبحر الغزال وسنكات والأبيض والخرطوم. على سيفه دم المئات من الكفار. روحه كانت تهش بالنصر، والفتك كان أسمى أمانيه. عبد الله بالدم سنوات طوال. وادخر محبته لأهل الله كما أمره ربه. فكان لإخوانه ذليلاً خاضعاً. وعلى الكافرين حرباً لا تلين. لكنه اليوم يسأل نفسه عمن قتل.

ذلك الحبشي العجوز في القلابات. هل عادت جثته لبناته السمراوات فدفنه نائحات؟ هل فيهن من لطمت وجهها وناحت؟ كيف يرثي الأمهره موتاهم؟ مقاتل الشلك في بحر الغزال الأسود كقلب الكافر. هل علم أفراخه الصغار في كوندو كرو أن **الحسن الجريفاوي** قتل أباهم؟ ويلك يا **حسن** كم رمّلت.

ويلك يا **حسن** كم أثكلت.

ويلك يا **حسن** كم أحسرت ويتمّت.

صاح وصك وجهه. انكفأ عن فراشه ودفن وجهه في التراب. رفس برجليه ويداه تخبطان الأرض.

يا ضيعتك يا حسن. يا ويلك من ربك يا حسن.

7

يفر..

يهرب **الحسن الجريفاوي** من نفسه. يترك إيمانه، وجهاده، والرايات الملطخة بالحق المقدس ويهيم.

قدماه تراودانه لطريق العودة إلى مسيد شيخه **سلمان ود حمد الدويحي**، إلى **فاطمة**، قرة العين.

مات الشيخ **سلمان** قبل سنوات.

كان **الحسن** يجاهد في شرق البلاد، يقاتل الأحباش، حين التقى رفيقاً قديماً من طلبة المسيد. أخبره إن الشيخ **سلمان** صعد إلى السماء.

قال صاحبه:

ليلة مات عرضت روحه القرآن على رب العزة ثلاثة مرات،
ثم قال له عز وجل انزل من الجنة حيث شئت يا سلمان.

بعد أشهر من موته دك المجاهدون، حملة رايات مهدي الله، المسيد وقتلوا الطلاب والحواريين الذين رفضوا ترك التصوف والإيمان بالمهدي. أخذوا قلة منهم مقيدين بالسلاسل حتى يرجعوا عن كفرهم.

حُرقت كتب الفقة والتصوف. ونسخة الشيخ **سلمان** من مختصر خليل ألقيت في بحر الدندر.

قدماه تتحرقان للعودة إلى تلك الرسوم التي عفت. لكن قلبه ضيق حرج بالإيمان.

لا يعرف أحد أين ذهبت **فاطمة**.

الحبيبة التي دفعته إلى طريق الله.

ما كنت لأقف بينك وأمر الله يا سيدي.

يفر من نفسه..

يلقي بروحه إلى الشيخ **إبراهيم ود الشواك**. المشير الأمين الذي أوصاه بالجهاد.

- تعبت من الدم يا عمي الشيخ.

الإيمان اختبار يا ولدي!

فرط الإيمان يكاد يودي بي إلى الكفر.

يجفل الشيخ **ود الشواك**.

أعوذ بالله ومهديه.

يتشبث **الحسن** بقلب الشيخ الطيب.

ما عدت أريد الجهاد يا عمي الشيخ.

يقلب الشيخ **ود الشواك** النظر في الشاب الموجوع.

ما قولك في التجارة؟ قال رسول الله إن تسعة أعشار الرزق في التجارة.

وقال مهدي الله إن التجار كلاب الدنيا. لكن **الحسن** ما كان لديه سعة الخيار.

أغثني بالدنيا من نفسي يا عمي الشيخ. أغثني بالدنيا من الإيمان.

يا ولدي لا مهرب من النفس.

لكن **الحسن** هرب. غاص في عمله الجديد وكيلاً لأعمال الشيخ **إبراهيم ود الشواك**. ما عاد يقلقه الجهاد إلا لبيع الذرة للجيش. وما شغله الغزو إلا في معونة سيده في الإستعداد للهرب.

فليأت الكفار أو يذهبوا. لا يهمني اليوم. سأظل ألتقط رزق التجارة ما شاء الله لي.

ما عاد يحلم بني الله الخضر. لكنه كان يحلم بعبد الرحمن بن عوف. يدخل الجنة حبواً.

ويوم فرّ مع الشيخ **إبراهيم ود الشواك** من أم درمان قبل سويعات من سقوط المدينة ودخول جيش المصريين كان يتمنى أن لا يعود مرة أخرى إلى تلك البقعة. الأرض التي ملئت بالإيمان ثم صارت خراباً به.

غرس نفسه في المسلمية، وراودته أحلام الزواج من أخرى. لكن **فاطمة** كانت في قلبه أقوى من عقدة الإيمان الذي هجره. فبقي ينتظر اللاشيء.

8

يستمع **بخيت منديل** لحكاية **الحسن** وأحلامه. يرى في عينيه بريق الدمع. يحاول تحريك جسده فتصهل السلاسل. يطقطق **الحسن** بلسانه محذراً أن يسمع صحابه الضجة.

يقول **بخيت**:

لكن المهدية خير كلها.

يقول **الحسن**:

وما المهدية يا بخيت إلا إيماننا؟ فإن ذهب الإيمان ذهبت.

أليس الحب إيمان؟

هل تحب المهدي؟

يفكر **بخيت** لبرهة، ثم يقول:

أحب حواء.

يقول **الحسن**:

في يوم ما، لم يحن أوانه بعد، سيجلس الناجون منا ليسألوا أنفسهم كيف نجوا من كل هذا الإيمان، ويتعجبون إنهم ما هلكوا تحت ركام اليقين الذي انهال علينا.

أنا ما نجوت.

يلفهما الصمت. ينظر **الحسن الجريفاوي** إلى الأرض تحته. الغبار الأحمر. وصوت النهر يأكل الضفة القريبة.

لقد تعبت يا بخيت!

يلمح **بخيت** النور يظهر من بعيد.

إنها تأتي. جاءت مرة أخرى تداعب شوقه.

كم يفتقدها.

وأنا مثلك يا ابن العرب. لكن متى ما كنا متعبين؟

كيف هو قتل الثأر يا بخيت؟

إنه الحياة.. كالحب.. ربما أشهى.

ينظر إليه **الحسن**. يرمي ببصره إلى حيث ينظر **بخيت** فلا يرى شيئاً. يقول بانكسار:

إن دخلت بك المسلمية فأنت ميت.

عبقها لفه. انها تقف وراء **الحسن** بنورها الأبدي. يشم رائحة المسك. في عينيها حزنها المقيم.

الأن يذكر أنه مات من قبل. على يديه دم. وفي قلبه هي.

يا ابن العرب هل لي في وصية؟

يجتاح **الحسن** حلمه القديم بنبي الله الخضر يقوده من يده في زفّة خضراء. يوقفه عند بحر النيل. يريه في قبضته تراباً أحمر.

هل أنت موقن بالموت؟

أنا ميّت يا ابن العرب منذ سنوات. لكن لي دين واجب السداد. فإن قبلت وصيتي فهي أن تحمل خبري إلى امرأة في ام درمان اسمها مريسيلة. قل لها كيف قتلت. أخبرها أني وفَيت ديني لحواء ما استطعت. لكن يونس أنجاه من أنجى سميه من الحوت.

يونس!

فقط أخبرها بذلك وهي ستعرف. كما أعرف أنا الآن أن حواء حمته مني. أعرف الآن أن كل ما بذلته لأجلها لا يضاهي سعادة عصفور الدوري الأول الذي أهداها إياه. فحمته مني. كان بين يدي وما مات. وطلبت كل خصومي وجعلته الأخير رغم أن ثأري عنده لا غيره. وها أنا أقطع رحلتي،مرغماً، ليظل هو حياً بما جناه.

أفعل.

ودفتري. إن قدرت أن تدفنه معي ففاعل.

لا تريد أن تهرب؟

يكفيني ما فعلت. أنا مثلك وأكثر. تعبت. ما عدت أريد إلا أن ألقاها.

كان يتحدث وهو ينظر إليها. في وجهها وجع لا يخفى. تقف وراء **الحسن** ويداها منسدلتان جوارها. عاجزة عن النطق. عبث كل ما حاوله. عبث كل حبه. لكنه لا يملك أن يكفر بها.

في اللحظة التي يدرك فيها الإنسان كل شيء يعلم إنها لحظة الموت. كتلك الرؤى الغيبية التي تجتاح الغريق وهو يلفظ مع النهر أنفاسه. في لحظة الموت، الحقيقة، لا تعود هناك أي أوهام، ولا تشوش عليك الأمنيات. إنك ترى كل شيء كما هو. لا كما تتمناه.

ينهض **الحسن الجريفاوي**. ينفض التراب الأحمر عن ثوبه. يقول:

غداً ندخل بك المسلمية. وليقضي الله أمراً.

يبتعد منهكاً وتتقدم هي نحوه. تقف أمامه.

طلبت منك أن تعيش يا بخيت. لكنك أبيت.

ما استطعت يا حواء.

وماذنبك إلا أنا. لولاي لعشت حياة أخرى.

لقد عشت حيوات كثيرة يا حواء. أكثر مما أتحمله. ربما ما عشت طويلاً. لكني عشت كثيراً. وما وجدت حياة أحلى من التي كانت أنتِ. فقط لو كنتِ أحببتني! لكني لا ألومك. لقد تعلمت في حياة عشتها إن الحب كالقدر. لا تملك من أمره شيئاً.

صمتت تنظر إليه في رثاء. نورها يغطي العالم. رائحتها تداعب النجوم.

أنا آت يا حواء.

أخيراً.

ربما عرفت الآن ما كنت لا أعرفه. ربما أبرر لنفسي تعبي وتعطشي للنهاية.

لكني لا أهتم. لقد تعبت.

هي ساعات ويعلقوني على مشانقهم. بيني وبين لقياك حبل مشنقة.

لا تحزني. فإنما هو لقاء لا فراق بعده.

إنما هو لقاء يسكن بعده الشوق.

أنا آت. أخيراً.

9

"شوق بتحصيل الوصال يزول، والإشتياق مع الوصال يكون إن التخيل للفراق يديمه عند اللقاء. فربة مغبون من قال هون صعبة، قلنا له ما كل صعب في الوجود يهون هو صفات العشق لا من غيره. والعشق داء في القلوب دفين.

(محي الدين ابن عربي)

شكر وتقدير

من الواجب أن أتقدم بالشكر لمن أعانوني في كتابة هذه الرواية، برأي، أو مراجعة، أو تشجيع وتحفيز يكسران كسلي وتغيرات مزاجي..

الصديقة المثقفة **ميسون النجومي**.. كم أرهقتها بتعديلات الرواية وأفكار أتبادلها معها ثم أنكص عنها.

الصديق اللغوي **شريف رفاعي**.. الذي صبر على أخطائي وإنكاري لأهمية الهمزة في اللغة. و**عزاز شامي** و**ميرفت يوسف** على تدقيقهما اللغوي

الصديقة د. **داليا حسين**.. التي رعتني، وجاهدت خير الجهاد لأكثر من عام لأكمل هذا العمل.

لهم أتقدم بوافر الشكر والعجز عن وفاء الأيدي التي أولوني إياها.

صور الغلاف مأخوذة من مؤلف "الأب أوهر ولدر" عشرة سنوات في معسكر المهدي 1882 ـ 1892، من طبعته الإنجليزية الصادرة في انجلترا عام 1892.

حمّور زيادة



صدر للمؤلف:

سيرة أم درمانية ـ مجموعة قصصية ـ دار الأحمدي للنشر/ القاهرة 2008.

الكونج ـ رواية ـ دار ميريت/ القاهرة 2010.

النوم عند قدمي الجبل ـ مجموعة قصصية ـ دار ميريت/ القاهرة 2014.

ناداني الله يا فاطمة.
أما ترين ما أصاب الدين من بلاء ؟
تغير الزمان. ملئت الأرض جوراً. التُرك، الكفار، بدّلوا دين الله. أذّلوا العباد.
ألا أستجيب لداعي الله ورسوله إذا دعاني لما يحييني ؟
سنجاهد في سبيل الله. في شان الله.
نغزو الخرطوم. نفتح مكة. نحكم مصر.
ننشر نور الله في الأرض بعد إظلامها.
وعدُ اللهِ سيدنا المهدي عليه السلام. وما كان الله مخلفاً وعده مهديه يا فاطمة.
واجبة علينا الهجرة. واجب علينا نُصرة الله.
عجلت إليك ربي لترضى. عجلت إليك ربي لترضى.
عجلت إليك .. وتركت فاطمة ورائي.

تصميم الغلاف: ماريان معراك



